

اللَّهُمَّ رَوْضَ الْإِسْلَامِ

فِي أَخْطَارِ

عَوَارِفِ الْمَعَارِفِ

لِلْإِمَامِ شَهَابِ الدِّينِ الشَّهْرَوَرْدِيِّ

اِسْتِخْبَابُ وَأَخْطَارُ

الْإِمَامِ الْبَارِعِ الْعَارِفِ بِاللَّهِ

الْحَبِيبِ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْنِ بْنِ سَمِيطَ بَاعِلَوِي

(١١٠٨هـ - ١١٧٢هـ)

قَرَأَهُ وَقَدَّمَ لَهُ

إِيَادُ أَحْمَدُ الْقَوِج

تَقَبَّلَ وَتَمْلِكُ

عَمَدُ اللَّهِ حَافِظُ الصِّفَتِي

مَدَارُ الْعِلْمِ وَالْإِسْلَامِ

اللَّهُمَّ وَالْوَطَنُ الْفَيْتُ

الدرر واللطائف

في اختصار

عوارف المعارف

للإمام شهاب الدين الشهرزدي

انتخاب واختصار

الإمام البارع العارف بالله

الحبيب محمد بن زين بن سميطة باعلوي

(١١٠٨ هـ - ١١٧٢ هـ)

قرأه وقدم له
إياد أحمد الفرج

تمت وتعليق
حمد الله حافظ الصفي



دار الكتب والعلوم

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٦/٧/١٨٩٧)

٢١٩

ابن سبط، محمد بن زين بن علوي بن عبدالرحمن
(١١٧٢-١١٠٠)

الدرر واللطائف في اختصار عوارف المعارف

محمد بن زين بن سبط

عمان: دار الفتح للتراث والنشر، ٢٠٠٦

ر.إ.: (٢٠٠٦/٧/١٨٩٧)

الواصفات: التصرف الإسلامي // الصرغون // مصادر التصرف

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

(رقم الإجازة التسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٢٠٠٦/٧/٢١٤٥)

الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

جميع الحقوق محفوظة ©

قياس القطع: ٢٤ × ١٧

الرقم المعياري الدولي: ISBN 9957-23-061-1



الجمهورية اليمنية، تريم (حضر موت)

تلفاكس ٤١٩٣٣٦ (٠٠٩٦٧٥)، ص.ب ٥٨٠٧٦

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.dar-alilm.com>

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق .

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا مختصرٌ لطيفٌ نافع، لكتاب «عوارف المعارف» للإمام شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي رحمه الله تعالى، اختصره علّم من رجالات حضرموت في القرن الثاني عشر الهجري، وواحدٌ من أبرز تلامذة الإمام الكبير قطب الإرشاد، عبد الله بن علوي الحدّاد، وهو الإمام العلامة، العارف الوليّ الزاهد، الحبيب جمال الدين محمد بن زين بن سميط، رحمة الله عليه.

وهو مختصرٌ حوى نفائسَ مما سُجِنَ به «العوارف» من معارف القوم ومعانيهم، حَرَصَ مختصره على التقاط ما ينشطُ همّة السالك ويقوّي عزمه، ويرشده في طريقه، نقدّمه اليوم في حلّةٍ متقنةٍ بإذن الله، وقد صدرناه بتراجم ثلاثة، للأئمة: الشهاب السهروردي مؤلف الأصل، وعمّه وشيخه أبي النجيب السهروردي الذي ورد ذكره كثيراً في الأصل والمختصر، والإمام محمد بن زين بن سميط صاحب هذا الاختصار المسمّى: «الدرر واللطائف».

ضارعين إلى المولى تعالى أن يجعل فيما صنّعنا النفع في الدارين، ويعيننا على إخراج تراثنا السنيّ الهادي، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

الإمام شهاب الدين الشهروردي^(١)

(٥٣٩ - ٦٣٢ هـ)

صاحب «عوارف المعارف»

الإمام العالم، القدوة الزاهد، العارف المربي، شيخ الإسلام، شهاب الدين أبو حفص، عمر بن محمد بن عبد الله البكري الشهروردي ثم البغدادي. وُلِدَ في رجب، سنة ٥٣٩، بشهروردي^(٢)، وقَدِمَ بغداد يافعاً قريباً من ست عشرة سنة، فصحبَ عمه الشيخ أبا النجيب ولازمه وسلكَ على يديه، وصحبَ قليلاً الشيخ عبد القادر الجيلاني، وغيره. وسمعَ الحديثَ على جماعة، منهم: أبو زُرْعَةَ المقدسي، وأبو الفتح ابنُ البطي، ومَعْمَرُ بنُ الفاخر، وعمُّه أبو النجيب، وغيرهم^(٣).

(١) من مصادر ترجمته:

«معجم البلدان» لياقوت (٣: ٢٩٠ سهرورد)، «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣: ٤٤٦ - ٤٤٨)، «ذيل الروضتين» لأبي شامة (ص ١٦٣)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٢: ٣٧٣ - ٣٧٧)، «طبقات الشافعية الكبرى» للناج السبكي (٨: ٣٣٨ - ٣٤١)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١٧: ٢٠٩ - ٢١٠ سنة ٦٣٠، ط. هجر)، «طبقات الأولياء» لابن الملقن (ص ٢٦٢ - ٢٦٥)، «الأعلام» للزركلي (٥: ٦٢)، وغيرها.

(٢) وقُتِلَ أبوه بها وللشهاب سنة أشهر من العمر. «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار.

(٣) وجمع طائفة ممن سمع عليهم الحديث في «مشيخة»، وصلتنا منها نسخة تحتفظ بها مكتبة (تشرينبي) برقم (٩ / ٣٤٩٥). وقد طبعت مؤخراً بتحقيق الدكتور عامر حسن صبري.

وقرأ الفقه والخلاف والعربية، وتفقه بعمه ولزمه إلى أن توفي^(١)، ثم صحب بعده أبا القاسم ابن فضلان إلى أن برع في الفقه، ثم أقبل على الاشتغال بالله وسلوك طريق الآخرة، واستغرق أوقاته بالعبادات والأوراد، ولزم باب الله تعالى، ففتح الله عز وجل عليه حتى صار أوحده زمانه^(٢).

دعا الخلق إلى الله، وظهر للناس في علوسه وتكلم ووعظ، وكان كلامه آخذاً بمنجامع القلوب، صادراً عن معاملة ورياضة، خالياً عن التزويق والتكلف، وظهرت بركات أنفاسه على خلق من العصاة فتابوا، ووصل به خلق إلى الله، وصار أصحابه كالنجوم.

أقبل عليه الخليفة الناصر لدين الله أحمد، واستنفضه رسولاً إلى عدة مواضع، فما توجه في أمر إلا وتم ببركته، ورأى من الجاه والحُرمة ما لم يره أحد.

قال الحافظ ابن النجار: وكان تاماً المروءة، كبير النفس، ليس للمال عنده قدر، لقد حصل له الوف كثيرة فلم يدخر شيئاً، ومات ولم يُخلّف كفنّاً! وكان مليح الخلق والخلق، متواضعاً، كامل الأوصاف الجميلة، قرأت عليه كثيراً، وصحبته مدة، وكان صدوقاً نبيلاً.

وقال الحافظ ابن نُقطة: كان شيخ العراق في وقته، صاحب مجاهدة وإيثار، وطريق حميدة، ومروءة تامة، وأوراد على كبر سته.

قال ابن كثير: «كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين... وكانت فيه مروءة وإعانة للملهوفين، وإعانة للمحتاجين، وأمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ عن منكر»^(٣).

(١) وعاش بعد عمه أبي النجيب دهرًا، نحو سبعين عاماً، لأنه عُمر.

(٢) «طبقات الشافعية الوسطى» عن هامش «الكبرى» (٨: ٣٣٩)، نقلاً من كلام ابن باطيش تلميذ المترجم.

(٣) «البداية والنهاية» (١٧: ٢٠٩ ط. دار هجر).

وممن حدّث عنه : الحفّاظ : ابنُ نُقْطَة ، وابنُ الدُّبَيْثِي ، وابنُ النّجار ، والضياء المقدسي ، وغيرُهم من المحدثين والنقلة .

أما الذين تربّوا به وسلکوا على يديه فخلّق كثيرون .

وكان أربابُ الطريق من أهل عصره يكتبون إليه يسألونه عن بعض أحوالهم ، وقد كتبَ إليه أحدهم مرةً : يا سيدي ، إن تركتُ العملَ أخلدتُ إلى البطالة ، وإن عملتُ داخلتني العُجب ، فأيهما أولى ؟ فكتب جوابه : اعمل واستغفرِ اللهَ من العُجب . وأخباره في ذلك كثيرة .

انتهت إليه الرئاسةُ في تربية المريدين والتسليكِ ودعاء الخلقِ إلى الله ، وحصلَ له القبولُ التام ، وقُصِدَ من الآفاق . ثم أضرَّ في آخر عمره ، وأُقْعِد ، ومع هذا فما أخلَّ بالأورادِ ودوام الذكر ، وحضورِ الجُمُع في مَحَفَّتِهِ ، والمضي إلى الحج ، إلى أن دخلَ في عشر المئة وضَعُفَ فانقطع .

وفي أوّل ليلةٍ من سنة ٦٣٢ لَحِقَ الإمام عمر بن محمد السهروردي بدار الحق ، ودُفِنَ بمسجده ببغداد ، الواقع اليوم بمنطقة تُعرَف بـ «مَحَلَّة الشيخ عمر» ، وله منارةٌ مميّزة^(١) .



ترك الإمام السهروردي رحمه الله عدداً من المؤلفات ، منها :

١ - «عوارف المعارف» ، وهو أشهرُ كتبه وبه يُعرَف ، وهو من أصول كتب التصوّف . طُبِعَ طبعاتٍ عدة كانت آخرُها طبعةُ دار البحوث بدبي ، ولا يزال بحاجة إلى تحقيق علمي وثيق .

٢ - «نغمة البيان في تفسير القرآن» ، مخطوط^(٢) .

(١) وقد جعلنا على الغلاف صورةً لذلك المسجد ومنارته ، إحياءً لذلك المشهد المبارك .

(٢) وله نسخةٌ نفيسة بمكتبة المدرسة العثمانية بحلب ، مقروءة على مؤلفها وعليها خطه . أفاده =

- ٣ - «جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب»، رسالة، مطبوعة.
- ٤ - «السَّيْرُ وَالطَّيْرُ»، رسالة، مخطوطة.
- ٥ - كُنَاشٌ فِيهِ شَعْرٌ، مخطوط.
- ٦ - «مَشِيخَةٌ» ذكر فيها عدداً من شيوخه، مطبوعة.
- ٧ - «رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية»، مطبوع^(١).
- ٨ - «أعلام الهدى وعقيدة أرباب التقى»، مخطوط.
- ٩ - وصية لبعض تلاميذه، مخطوطة.
- وله شعرٌ كثيرٌ حسن. رحمه الله تعالى، وأجزل مثوبته.



= الزركلي في «الأعلام» (٥ : ٦٢)، ومن تلك النسخة نقل الزركلي نموذج خطه.
 (١) بدار السلام بالقاهرة سنة ١٩٩٩م، بتحقيق الدكتورة عائشة يوسف المناعي.

الإمام أبو النّجيب السُّهْرَوْرْدِي^(١)

(٤٩٠ - ٥٦٣ هـ)

عَمُّ صاحب «العَوَارِف» وشيخه

الإمام الجليل، الصوفي الزاهد العابد، الفقيه المتقن، أبو النجيب، عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عَمُّوَيْه البكري السهروردي الشافعي، أحد أئمة المسلمين ومشايخ الطريقة.

مولده بسُهرورد، سنة ٤٩٠، ثم قدم بغداد نحو سنة ٥١٠، فتنفقه بالمدرسة النظامية على أسعد الميمني، وبرع في المذهب، وتأدّب على الفصيح، وسمع الحديث من جماعة.

ثم هبّ له نسيمُ التوفيق، ودلّه على سواء الطريق، فأثر الانقطاع، وتجرّد، ودخل البريّة حافياً، وحجّ، وجرت له قِصَصٌ، وسلك طريقاً وعراً في المجاهدة. وصحبَ في تربيته الشيخ أحمد الغزالي، والشيخ حمّاد الدباس.

(١) من مصادر ترجمته:

«الأنساب» للسمرقاني (٧: ١٩٧)، «الكامل» لابن الأثير (١١: ٣٣٣)، «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣: ٢٠٤ - ٢٠٥)، «معجم البلدان» لياقوت (٣: ٢٨٩ - ٢٩٠ سهرورد)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٠: ٤٧٥ - ٤٧٨)، «طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي (٧: ١٧٣ - ١٧٥)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١٦: ٤٢٦ - ٤٢٧ سنة ٥٦٣، ط. هجر)، «الأعلام» للزركلي (٤: ٤٩)، وغيرها.

ثم شرع في دعاء الخلق إلى الله، فأقبل الناس عليه، وصار له قبول عظيم، وأفلح بسببه أمة صاروا سُرُجًا، وبنى مدرسة ورباطين، ودرّس وأفتى، ووليّ تدريس النظامية.

قال الحافظُ ابنُ النجار: كان مطّرحاً للتكلّف في وعظه بلا سجع، وبقي سنين يستقي بالقرّة بالأجرة، ويتقوّت، ويؤثّر مَنْ عنده...، ثم اشتهر، وصار له القبول عند الملوك، وزاره السلطان...، وصار [رباطه] حمى لمن لجأ إليه من الخائفين، يُجبر من الخليفة والسلطان...، أملى مجالسَ وصّف مصنّفات.

وحدّث عن المترجم كثيرين، منهم الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر، وولده القاسم، والسمعاني، وأبو نصر ابن الشيرازي، وابن أخيه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي المتقدمة ترجمته، وغيرهم.

قال ياقوت في «معجمه»: قدم - المترجم - دمشق سنة ٥٥٨ عازماً على زيارة بيت المقدس، فلم يتفق له ذلك لانفساخ الهدنة بين المسلمين والعدوّ، فأكرم نور الدين محمود بن زنكي^(١) مقدّمه، واحترمه وأكرمه، وأقام بدمشق يسيراً وعاد إلى بغداد.

وفي جمادى الآخرة، من سنة ٥٦٣، توفّي المترجم إلى رحمة الله تعالى، ودفن بمدرسته.

وخلف تصانيف، منها:

- ١ - «آداب المريدين»، مطبوع.
- ٢ - «شرح الأسماء الحسنى»، مخطوط.
- ٣ - «غريب المصاييح»، مخطوط.
- وغيرها. رحمه الله وأكرم مثواه.

(١) ذلك الخليفة الذي كانت تعتقد رعيته ولايته في حياته، فرضي الله عنه وأرضاه.

العلامة الحبيب
 محمد بن زين بن سميطة باعلوي^(١)
 (١١٠٠ - ١١٧٢ هـ)
 مختصر «عوارف المعارف»

الإمام القدوة، العالم العامل، الورع الزاهد العارف بالله، الحبيب جمال الدين محمد بن زين بن علوي بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد سميطة^(٢)، باعلوي الحسيني الحضرمي الشافعي.

وُلد الحبيب محمد في مدينة (تريم) الغناء، فاتح شهر شعبان سنة ١١٠٠ هـ، ونشأ في رعاية والده الصالح المبارك: السيد زين بن علوي.

(١) من مصادر ترجمته:

«مجمع البحرين في مناقب الحبيب محمد بن زين» لتلميذه الشيخ معروف بن محمد باجمال (مخطوط)، «تاريخ الشعراء الحضرميين» للسقاف (٢: ١٢٧)، «إدام القوت» لابن عبيد الله السقاف (ص ٥١١) (ط. دار المنهاج)، «الأعلام» للزركلي (٦: ١٣٣)، «القلادة: مقالات الأستاذ عمر باذيب» (ص ٧١ - ٩٥)، وغيرها.

(٢) آل (بن سميطة) أسرة كريمة، مشهورة بفحول العلماء وسادات الأتقياء، وهم متشرون في (تريم) و(شباب) بحضرموت، وفي جاوة بإندونيسيا، وفي الحجاز من الديار السعودية، وغيرها. و(سميطة) أول من لُقّب به: جدهم السيد محمد بن علي بن عبد الرحمن حين سقط عن سميطة وهو طفل، فلُقّب به. انتهى من «القلادة» للأستاذ عمر باذيب (ص ٧٤) باختصار.

حفظ القرآن الكريم، وقرأ المتون العلمية، من فقه وحديث، وتفسير وعربية، وغيرها، وتلقى عن علماء مضره، كالإمام عمر بن عبد الرحمن البار، والإمام الحسين بن عمر بن عبد الرحمن العطاس، والعلامة السيد عمر بن حامد المنفر، والعلامة الشيخ سالم بن عمر بلحاج بافضل، وغيرهم.

أما أجل شيوخه فهو الإمام قطب الإرشاد، عبد الله بن علوي الحداد، صحبه الحبيب محمد بن زين وانقطع إليه انقطاعاً تاماً. وصحب بعده تلميذه العلامة الحبيب أحمد بن زين الحبشي، وعن هذين العَلَمَين جُلُّ أخذه وملازمته، وفي ذلك يقول الحبيب ابن سميط من شعره:

أَحْمَدُ اللَّهَ إِذْ مَنَّ عَلَيَّ	بِالْجَمِيلِ الْمَخْضِ أَسْدَاهُ إِلَيَّ
نِعْمَةٌ مَا مِثْلُهَا مِنْ نِعْمَةٍ	نِعْمَةٌ عَظُمَى لَقَدْ جَلَّتْ لَدَيَّ
نَسَبِي لِلْقَوْمِ سَادَاتِ الْوَرَى	وَهُدَاةِ الْخَلْقِ مِنْ جَهْلِ وَغَيِّ
وَهُمَا الْحَدَّادُ وَالْحَبْشِيُّ اللَّذَا	نِ هُمَا كَتَزِي إِذَا كَلَّتْ يَدَيَّ
أَيُّ شَيْءٍ فَاتَ مَنْ أَدْرَكُهُمَا	وَالَّذِي فَاتَاهُ أَدْرَكَ أَيُّ شَيْءٍ؟



في سنة ١١٣٥ هـ، انتقل الإمام محمد بن زين مع والده وأسرته إلى مدينة (شِيبام)، بعد وفاة شيخه الحداد، فكانت مستقره، ومنطلق دعوته، فتلقى عنه خلقٌ كثيرون، وعمَّ نفعه، وانتشر ذكره.

كان الحبيب محمد رحمه الله فصيحَ العبارة، لطيفَ الإشارة، حسنَ المظهر، كريماً جواداً، ورعاً زاهداً، شجاعاً مجاهداً، ذا صدقاتٍ ومبرات.

وإلى جانب قيامه بأعباء التعليم والإرشاد والدعوة كتب الحبيب محمد عدة مؤلفات، منها:

١ - «غاية القصد والمراد في مناقب الإمام عبد الله بن علوي الحداد».

- ٢ - «بهجة الفؤاد»، مختصرٌ من «غاية القصد والمراد».
- ٣ - «قرة العين وجلاء الرّين»، في مناقب الإمام أحمد بن زَيْن (الحبشي)، مخطوط.
- ٤ - «بهجة الزمان وسَلوة الأحزان»، ذكر فيه تراجم طائفة من أسيّاح شيخه الحدّاد وأقرانه وأصحابه، مطبوع.
- ٥ - «إتحاف المريدين، وإسعاف المسترشدين، بلباب كتاب إحياء علوم الدين»،
- ٦ - «لب اللباب خلاصة مجمع الأحباب (للواسطي)»، مخطوط.
- ٧ - «الدر المنضود، الملتقط من بحر العهود (للشعراني)»، مخطوط.
- ٨ - «الدور واللطائف في اختصار عوارف المعارف»، كتابنا هذا.
- ٩ - «شرح قصيدة: يا رب يا عالم الحال (لشيخه الحدّاد)»، مخطوط.
- وغيرها من التّأليف المباركة.
- وفي ليلة الثلاثاء، العشرين من ربيع الأول سنة ١١٧٢، انتقل العلّامة الوليّ الحبيب محمد بن زَيْن بن سَمِيْط إلى دار الحق، ودُفِنَ بجوار والده في مقبرة شِباب المعروفة بـ (جرب هَيْصَم)، رحمه الله ورضي عنه وأكرم مثواه.



هذا الكتاب

يُعَدُّ كتابُ «عوارف المعارف» للإمام شهاب الدين السهروردي، من أجلّ كتب التصوف الأصول، وهو مادةٌ مذاكّرةٌ عاليةٌ للسائرين إلى الله، لذا اعتنى به العلماء والمشايخ، وأكثروا من مطالعته وإقرانه.

وللإمام محمد بن زين بن سميط عنايةٌ باختصار أمثال ذلك الكتاب الهام^(١)، والتقاط نفائسها وفوائدها، بحيث تصبح مؤونةً الاطلاع عليها يسيرةً باختصار حجمها، مع اجتهاده في حسن الانتقاء لأهم ما في تلك الكتب، قاصداً على الأخص نقل ما فيه شحذاً لهمة السالك وتنشيطاً لسيره، وقد صرّح الإمام ابن سميط بهذا القصد في غير ما محلّ من مختصراته^(٢).

ومن مراجعتي لتحقيق هذا المختصر: «الدرر واللطائف»، لاحظت الملاحظ المنهجية الآتية:

-
- (١) كـ «إحياء علوم الدين» لحجة الإسلام الغزالي، و «منهاج العابدين» له، و «مجمع الأحباب» للشمس الواسطي، و «العهود المحمدية» للشمراني، وغيرها، معبراً عن اختصاره لأمثال تلك الكتب بـ (خلاصة كذا) أو (لباب كذا) أو (الالتقاط من كذا)، وكل ذلك مبين عن منهجه.
 - (٢) منها قوله في مقدمة كتابه «لب اللباب من مجمع الأحباب»: «... وما نقلتُ منه إلا ما كان منشطاً ومنعشاً للهمة في الاقتداء، وما يحصل به التأثير للقلوب، بحسب ما وجدتُ أنا من التأثير بذلك، والله أعلم بوجوده لنيري، ولعلّ الناس يختلفون...». انتهى من مقدمة «مجمع الأحباب» للشريف الواسطي (١: ٥٧).
- وانظر كلامه في آخر هذا المختصر ص ١٥٠.

١ - لم يلتزم المختصر التسلسل في التقاطه^(١) من الكتاب الأصل، بل كان يلتقط تارة من آخره فأوله، على غير ترتيب، لكنه مع ذلك راعى في ما التقطه قسطاً لا بأس به من التسلسل الموضوعي.

٢ - في الأحاديث التي وقعت في «الدرر واللطائف»، لم يلتزم المختصر الاختصار على الصحيح، بل ينقل ما اتفق له خلال الالتقاط، ولعل ذلك يرجع أيضاً إلى عدم شيوع النقد الحديثي في ذلك الإقليم آنذاك.

٣ - لم يلتزم المختصر في نقله للأقوال نقلها بأسماء ناقليها، بل كان يجرد العبارة أحياناً من قائلها ويُدريجها في السياق.

٤ - يتصرف المختصر أحياناً في بعض الأقوال والعبارات، إما بالاختصار، أو بتغيير بعض الكلمات لأجل الإيضاح.

٥ - لم يلتزم المختصر وضع عناوين فرعية لكل ما بدأه بعنوان (فصل).

٦ - أضرب المختصر عن نقل أي من الأسانيد التي وردت في الأصل، وهو منهج شديد، إذ السالك لا همّة له - في مطالعة هذا الصنف من الكتب - لغير المعاني والمباحث الروحية، وللإسناد مجال آخر.

٧ - لم يزد المختصر من نفسه أي عبارة على الكتاب، سوى كلمة نفيسة لشيخه الإمام الحدّاد، جعلها ختام اختصاره.

هذا جلّ ما ظهر لي أثناء المراجعة لنص الكتاب.

- النسخة الخطية المعتمدة:

كان الاعتماد في تحقيق «الدرر واللطائف» على نسخة واحدة تحتفظ بها مكتبة

(١) مصطلح (الالتقاط) شائع في تراث الحضارم في القرون المتأخرة، وهو بمعنى (الاختصار) الانتقائي، وهو لفظ حسن دقيق الوصف.

الأحقاف بترسيم، تحت الرقم ٢٥٥٤ تصوُّف، عدد ورقاتها ٥٨ ورقة، كتبها: محمد بن عبد الله بن بو بكر (مكذا) بن عمر بن محمد بايوسف، بتاريخ ٢٤ رجب سنة ١٢٨٥ هجرية، وهي نسخة سقيمة كثيرة الأخطاء، ولولا العودة إلى الأصل «عوارف العوارف» - في التحقيق والمراجعة - والاستنارة الدائمة به؛ لكان إخراج نصٍّ مقاربٍ - دون ذلك - متعذراً^(١).

- العمل في هذا الكتاب :

انصبَّ جلُّ الجهد في هذا الكتاب على إقامة نصّه والتأكد من سلامته بأكبر قدرٍ ممكن، وضبطه وترقيمه وتفقيره، بالإضافة إلى عزو الآيات، وتخريج الأحاديث، والتعريف بالأعلام، وتعليقاتٍ طفيفةٍ عند الحاجة. ثم العناية بتصحيح التجارب، والتوثق منها مرات، رجاء أن يكون بين يدي القارئ بعد ذلك نصٌّ صحيحٌ سائغ.

وأخيراً..

فقد كان القصدُ من إخراج هذا المختصر :

- تقريب أصله النفيس «عوارف المعارف» لأيدي القراء...

- وإبراز نموذج من كتب التصوُّف العليم النقي، الذي هو أعمالٌ وآدابٌ من فرائض الشرع المطهر ومندوباته...

- وإحياء ذكر الصالحين من علماء الأمة، أمثال الإمام السهروردي، وعمه أبي النجيب، ومن بعدهم العلامة ابن سُمَيْط...

(١) بلغنا وجود نسخةٍ أخرى لهذا الكتاب عند بعض أهل العلم، فسينا لتحصيلها، وطال الطلب والانتظار، حتى أعلمنا أنها مجرد وريقات التقطها ناسخها من «الدرر»، وأن قسماً منها ضائع! فأضربنا عنها.

فَاللَّهُمَّ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، وَانْفَعْ بِمَا صَنَعْنَا، وَأَنْلُنَا مِنْ ثَوَابِ ذَلِكَ النَّصِيبِ الْأَوْفَرِ،
وَاجْعَلْ خَطَايَا مَغْمُورًا فِي بَحْرِ عَفْوِكَ وَفَضْلِكَ، إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

هذا وقد كانت كتابة هذه الكلمة والتراجم قبلها، في سُوِيَعَاتِ عَجَلِي قُبَيْلَ
السَّفَرِ، بَطْلِبِ مِنَ الْفَاضِلِ السَّاعِي فِي نَشْرِ هَذَا الْكِتَابِ، فَأَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ مَا
فِيهَا رَشِيدًا، وَيَسْتَرَّ مَا طَغَى بِهِ الْقَلَمُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.

وكتبه العبدُ الضعيفُ
إياد أحمد الغوج

عُتَمَانُ فِي ١٨ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ ١٤٢٧ هـ
الْمُوَافِقُ ١٤ (تَمُّوز) ٢٠٠٦ م

• كتاب الدرر والقطر في إحصار
 • غوارف المعارف انتخاب حسين بن موسى
 • جمال الدين وبركة المصطفى جمال
 • الدين أحمد الغوثي شمس الدين
 • زين علوي شمس الدين
 • نفيعنا الله بنو نفيعنا
 • أمير المؤمنين
 • الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ الرَّسُولُ أَلَا يَعْلَمُ الْعَارِفُ
 أَلَكُلِّ مَلِكٍ الْعَامِلُ عَلَى كِتَابِ الذِّكْرِ أَبُو خَفْصٍ غَيْرُ نَبِيِّ السَّهْرِ وَرَدِي
 مَرْجِعُهُ إِلَيْهِ وَنَفْعُهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمَحَارِقُ وَالْأَحْدِثُ الْعَظِيمُ
 شَأْنُهُ الْقُدْرَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الظَّاهِرُ أَحْسَنُهُ الْبَاهِرُ مَجْدُهُ
 وَبِرْهَانُهُ فَتَعْبَهُانِ مِنْ عِزَّتِهِ مَعْرِفَتُهُ لَوْلَا تَعْرِيفُهُ وَتَعْدَتُهُ
 عَلَى الْعُقُولِ تَحْدِيدُهُ وَتَكْيِيفُهُ الْبَصَرُ قُلُوبُ الْمُصْغُوفِ مِنْ
 عِبَادِهِ مَلَائِكَةُ الْعَرْشَانِ وَخُصْمُهُمْ مِنْ بَيْنِ عِبَادِهِ نَجَسَاتُ
 الْأَحْسَانِ فَصَارَتْ ضَمَائِرُهُمْ مِنْ مَوَاقِبِ الْأَنْفُسِ مَهْلُوهُ
 وَمِنْ أَيْدِيهِمْ قُلُوبُهُمْ بِنُورِ الْقُدْسِ مَجْلُوفٌ فَتَهْنَأُ
 لِقَبُولِ الْأَمْدَادِ الْقُدْسِيَّةِ فَاسْتَعْدَتْهُ لُورُودُ الْأَلْوَانِ
 الْعَلَوِيَّةِ وَاتَّخَذَتْ مِنْهُ الْأَنْفَاسُ الْعَطْرِيَّةُ بِالْأَذْكَارِ
 جَلَالًا وَأَقَامَتْ عَلَى الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ مِنَ الْقُدْرَةِ عِزًّا
 وَاسْتَعْلَتْ فِي ظِلْمِ الْبُحَيْرِيَّةِ مِنَ الْبَيْقِنِ نِيرَانًا وَاسْتَحْفَرَتْ
 خَوَابِرَ الدُّنْيَا وَلَذَائِقَهَا وَانْكَرَتْ عَوَالِدَ الْهَوَى وَتَبَعَاتِهَا
 وَامْتَنَعَتْ عَوَالِمَ الرِّغْبَةِ وَاسْتَفْرَشَتْ بَعْلُومَهَا
 بَسَاتِ الْمَلَكُوتِ وَامْتَدَّتْ إِلَى الْمَعَالِي أَعْنَاقُهَا وَطَمَعَتْ
 إِلَى النُّورِ الْأَمِيعِ الْعَلَوِيِّ أَحْدَانُهَا وَاتَّخَذَتْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 الْأَعْلَاءِ مَسَامِرًا وَمِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهَا
 مِزَاجًا وَمِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهَا
 وَاشْتَبَاهَ قُرْسِيَّةً بَارِدًا عَرِشِيَّةً نَفْسِيَّةً فِي مَنَازِلِ
 الْحُزْمِ سَيَّارَةً وَارْوَاهُمْ فِي فِصَالِ الْقَرَبِ طَيَّارَةً

منها هبهم

الصفحة الأولى من الأصل المخطوط

لوجه الكريم ومقربا الى رضوانه انه هو الجواد الكريم ولا حول
ولا قوة الا بالله العلي العظيم وما توفيقي الا بالله عليه
توكلت واليه انيب قال سيدنا اجيب عند رز علي الحداد
نفيع الله به الطريق الى الله ظاهرها علم وباطنها فهم
وحاصلها السرار وغايتها ذهاب في الله انتهى
تم الكتاب وكان الفراع من نساخته عشرين ٢٠
شهر جمادى ص ٢٨ اسم الحكيم الذي

بنعنه تتم الصالحات بعلم العبد الى

مولانا محمد علي بن محمد بن

عمر بن محمد بن يوسف بن

له ولغا له واجابه

ولما سمع

الملك

امين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم كما كبره في الدنيا والآخرة

اللَّهُمَّ رَوْضَ الْإِطَائِفِ

فِي اخْتِصَارِ

عَوَارِفِ الْمُحَارِفِ

لِلْإِمَامِ شَهَابِ الدِّينِ الشُّهْرَوَرْدِيِّ

اِئْتِخَابُ وَاخْتِصَارُ

الْأَمَارِ الْبَارِعِ الْعَارِفِ بِاللَّهِ

الْحَبِيبِ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْنِ بْنِ سُمَيْطٍ بَاعِلَوِيِّ

(١١٠٨ هـ - ١١٧٢ هـ)

قرأه وقدم له
إياد أحمد الفرج

تحقيق وتعليق
صمد الله حافظ الصفدي



لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلف الشهروردي]

قال الشيخ الإمام العارف الكامل العامل: شهاب الدين أبو حفص عمر
ابن الشهروردي - رحمه الله ونفع به - في كتابه «عوارف المعارف»:

الحمد لله العظيم شأنه، القوي سلطانه، الظاهر إحسانه، الباهر حُجَّتُهُ
وبرهانه، فسبحان مَنْ عَزَّتْ معرفته لولا تعريفه، وتَعَدَّرَ على العقول تحديده
وتكليفه، ألَبَسَ قلوبَ الصَّفوةِ مِنْ عبادِهِ ملابسَ العِرفانِ، وَخَصَّصَهُمْ مِنْ بَيْنِ
عبادِهِ بخصائصِ الإحسانِ؛ فصارتْ ضَمَانُهُمْ مِنْ مواهبِ الأنسِ مَمْلُوءَةً،
ومرايا^(١) قلوبِهِمْ بنورِ القُدسِ مَجْلُوءَةً؛ فتَهَيَّأتْ لِقَبُولِ الأَمْدَادِ القُدُسِيَّةِ،
فاستعدَّتْ لورودِ الأنوارِ العُلويَّةِ، واتَّخَذَتْ مِنَ الأنفاسِ العِطْرِ^(٢) بالأذكارِ
جُلَاسًا، وأقامتْ على الباطنِ والظاهرِ مِنَ التَّقوى حُرَّاسًا، وأشعلتْ في ظُلَمِ
البشريَّةِ مِنَ اليقينِ نِيرانًا، واستَحَقَرَّتْ فوائدَ الدُّنيا وَلَذَّاتِهَا، وأنكَرَتْ عوائدَ
الهُوى وَتَبَعَاتِهَا، وامتَطَّتْ غَوَارِبَ الرِّغْبِوتِ، واستَفْرَشَتْ - بِعُلُوِّ هِمَّتِهَا - بِسَاطَ

(١) في أصل «عوارف المعارف»: (مراي). قال في «مختار الصحاح» (رأى): والمِرْآة،
بكسر الميم: التي يُنظَرُ فيها، وثلاث (مَرَاة)، والكثيرُ (مَرَايا).

(٢) في الأصل: (العطرية)، والمثبت من «عوارف المعارف».

الْمَلَكَوتِ، وامتدَّتْ إِلَى الْمَعَالِي اعْنَاقُهَا، وَطَمَحَتْ إِلَى الثُّورِ اللَّامِعِ الْعُلُويِّ
أَخْدَاقُهَا، وَاتَّخَذَتْ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى مُسَايِرًا وَمُحَاوِرًا، وَمِنَ الثُّورِ الْأَعَزِّ
الْأَقْصَى مُزَاوِرًا وَمُجَاوِرًا. أَجْسَادُ أَرْضِيَّةٍ بِقُلُوبِ سَمَاوِيَّةٍ، وَأَشْبَاحُ فَرَشِيَّةٍ^(١)
بِأَرْوَاحِ عَرَشِيَّةٍ، نُفُوسُهُمْ فِي مَنَازِلِ الْخِدْمَةِ سَيَّارَةً، وَأَرْوَاحُهُمْ فِي فُضَاءِ الْقُرْبِ
طَيَّارَةً [١/٢] مَذَاهِبُهُمْ فِي الْعُبُودِيَّةِ مَشْهُورَةٌ، وَأَعْلَامُهُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ
مَنْشُورَةٌ، يَقُولُ الْجَاهِلُ بِهِمْ: فَقِدُوا، وَمَا فَقِدُوا؛ وَلَكِنْ سَمَتْ أَحْوَالُهُمْ فَلَمْ
يُدْرِكُوا، وَعَلَا مَقَامُهُمْ فَلَمْ يُمْلِكُوا، كَانَتَيْنِ بِالْجُثْمَانِ، بَاثْنَيْنِ بِقُلُوبِهِمْ عَنْ
أَوْطَانِ الْحَدَثَانِ، لِأَرْوَاحِهِمْ حَوْلَ الْعَرْشِ تَطَوُّافٌ، وَلِقُلُوبِهِمْ مِنْ خَزَائِنِ السِّرِّ
إِسْعَافٌ، يَتَنَعَّمُونَ بِالْخِدْمَةِ فِي الدِّيَاجِرِ، وَيَتَلَذَّذُونَ مِنْ وَهَجِ الطَّلَبِ بِظِلِّ
الْهَوَاجِرِ، تَسَلُّوا بِالصَّلَوَاتِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَتَعَوَّضُوا بِحِلَاوَةِ الثَّلَاوَةِ عَنِ
اللَّذَّاتِ، يَلُوحُ مِنْ صَفَحَاتِ وَجْهِهِمْ بِشَرِّ الْوَجْدَانِ، وَيَنْتُمُّ عَنْ مَكْنُونِ سَرَائِرِهِمْ
نُضَارَةُ الْعِرْفَانِ، لَا يَزَالُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَعَصْرِ مِنْهُمْ قَائِمُونَ بِالْحَقِّ، دَاعُونَ
لِلْخَلْقِ، مُنِحُوا بِحُسْنِ الْمُتَابَعَةِ رُتْبَةَ الدَّعْوَةِ، وَجُعِلُوا لِلْمُتَّقِينَ قُدُوةً، فَلَا يَزَالُ
تَظْهَرُ فِي الْخَلْقِ آثَارُهُمْ، وَتَزْهَرُ فِي الْآفَاقِ أَنْوَارُهُمْ؛ مَنْ اقْتَدَى بِهِمْ اهْتَدَى،
وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ ضَلَّ وَاعْتَدَى.

فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى مَا هِيَاً لِلْعِبَادِ مِنْ بَرَكَاتٍ خَوَاصٍّ حَضَرَتْهُ مِنْ أَهْلِ الْوِدَادِ.
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ الْأَكْرَمِينَ الْأَمْجَادِ.

قال: وَمِمَّا حَضَرَنِي فِيهِ مِنَ النَّسِيَةِ - يَعْنِي: تَصْنِيفَ الْكِتَابِ - أَنَّ أَكْثَرَ
سَوَادِ الْقَوْمِ بِالْإِعْتِزَاءِ إِلَى طَرِيقَتِهِمْ، وَالْإِشَارَةِ إِلَى أَحْوَالِهِمْ. وَقَدْ وَرَدَ: «مَنْ كَثَرَ
سَوَادَ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(٢).

(١) يعني: أرضية، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنَقِمَ الْمَنُحَدِّثُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

(٢) أخرجه أبا يعلى الموصلي في «مسنده»، وعلي بن معبد في «كتاب الطاعة والمعصية» =

وَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ صِحَّةَ [٢/ب] النَّيَّةِ فِيهِ، وَتَخْلِيصَهَا مِنْ شَوَابِ
النَّفْسِ. وَكُلُّ مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهِ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَعَوَارِفِ، [وَا] مِنْ أَجْلِ
الْمَنْحِ «عَوَارِفُ الْمَعَارِفِ». وَالْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى نَيْفٍ وَسِتِّينَ بَاباً، وَاللَّهُ
الْمُعِينُ، وَهُوَ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ.

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ نَفَعَ اللَّهُ بِهِ تَرْجَمَ هَذِهِ الْأَبْوَابَ وَسَرَدَهَا عِدْداً، ثُمَّ قَالَ (١):
فَهَذِهِ الْأَبْوَابُ تَحَرَّرَتْ بِعَوْنِ اللَّهِ مُشْتَمِلَةً عَلَى بَعْضِ عُلُومِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ،
وَمَقَامَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَدَقَائِقِ إِشَارَاتِهِمْ، وَلَطِيفِ اضْطِلَاحَاتِهِمْ.
فَعُلُومُهُمْ كُلُّهَا إِنْبَاءٌ عَنْ وَجْدَانٍ، وَاعْتِزَاءٌ إِلَى عِرْفَانٍ، وَذَوْقٌ تَحَقَّقَ
بِصِدْقِ الْحَالِ، وَلَمْ يَفِ بِاسْتِيفَاءِ كُنْهَيْهَا صَرِيحُ الْمَقَالِ؛ لِأَنَّهَا مَوَاهِبُ رَبَّانِيَّةٍ،
وَمَنَاحِيحُ حَقَّائِيَّةٍ، اسْتَنْزَلَهَا صَفَاءُ السَّرَائِرِ، وَخُلُوصُ الضَّمَائِرِ، وَاسْتَعَصَتْ
بِكُنْهَيْهَا عَنِ الْإِشَارَةِ، وَطَفَحَتْ عَلَى الْعِبَارَةِ، وَتَهَادَّتْهَا الْأَرْوَاحُ بِدِلَالَةِ الْبَشَارَةِ
وَالِائْتِلَافِ، وَكَرَعَتْ فِي حَقَائِقِهَا مِنْ بَحْرِ الْأَلْطَافِ، وَقَدْ اُنْدَرَسَ كَثِيرٌ مِنْ دَقِيقِ
عُلُومِهِمْ، كَمَا انْظَمَسَ كَثِيرٌ مِنْ حَقَائِقِ رُسُومِهِمْ.
وَاللَّهُ الْمَأْمُولُ، أَنْ يُقَابِلَ جَهْدَ الْمُقْلِّ بِحَسَنِ الْقَبُولِ؛ إِنَّهُ خَيْرُ مَسْئُولٍ،
وَالسَّلَامُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



= من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وأخرجه ابن المبارك في «كتاب الزهد والرقائق»
مرفوعاً على أبي ذر. كما في «نصب الراية» للزيلعي (٤ : ٣٤٦).
(١) هذه العبارة من كلام المنتخب الإمام ابن سميطة رحمه الله.

بَابُ

[فِي ذِكْرِ شَيْءٍ مِنَ الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ]

وَعَلِمَ أَنَّ الشَّيْخَ صَاحِبَ «الْعَوَارِفِ» خَتَمَ كِتَابَهُ بِبَابٍ — وَهُوَ الْبَابُ الثَّالِثُ وَالسُّتُونَ —: فِي ذِكْرِ شَيْءٍ مِنَ الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ أَوَّلَ مَا حَاصِلَ [١/٣] مَا ذَكَرَهُ فِيهِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْأَوْرَاقِ الَّتِي [هِيَ] مُنْتَخَبَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَمُلْتَقَطَةٌ مِنْهُ، وَهِيَ كَالِاخْتِصَارِ لَهُ، مَعَ الْحَذْفِ مِنْهُ، وَنَقَلَ الْمُقْصُودَ فِيهِ مِنْ عُيُونِ مَا ذَكَرَهُ، وَالْغُرَرِ وَالْجَوَاهِرِ مِمَّا حَرَّرَهُ، وَالذَّرَرَ مِنَ التُّكَيْتِ الْغَرِيْبَةِ، وَالْمَنَازِعِ الْعَجِيْبَةِ، مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ وَنِظَامٍ؛ بَلْ عَلَى حَسَبِ مَا جَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ. وَجَعَلْتُ مَا نَقَلْتُ فُصُولًا يُعْرَفُ بِكُلِّ فَصْلِ الْجُمْلَةُ الَّتِي اخْتَرْتُ عَلَيْهَا مِنَ الْعِلْمِ، وَقَصْدِي — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — حِفْظُ الْفَائِدَةِ لِنَفْسِي وَلِغَيْرِي، وَلَعَلَّ الْفُصُولَ تَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ فَضْلًا، وَخَاتِمَةٌ نَخْتِمُ بِهَا هَذَا الْإِتْقَاطَ.

فَصْلٌ

[فِي النِّيَّةِ]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مِمَّا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، وَأَمْرًا يَنْكِحُهَا؛ فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا

هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١).

النَّيَّةُ أَوَّلُ الْعَمَلِ، وَبَحْسُهَا يَكُونُ الْعَمَلُ، وَأَهَمُّ مَا لِلْمُرِيدِ - فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ فِي طَرِيقِ الْقَوْمِ - : أَنْ تَدْخُلَ طَرِيقَ الصُّوفِيَّةِ، وَتَتَزَيَّأَ بِرِيْهِمْ، وَتُجَالِسَ طَائِفَتَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ فِي دُخُولِهِ فِي طَرِيقِهِمْ هِجْرَةَ حَالِهِ وَوَقْتِهِ.

وقد ورد: «الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ [ب/٣] فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

فَالْمُرِيدُ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى طَرِيقِ الْقَوْمِ، [فَإِنْ وَصَلَ] فَقَدْ لَحِقَ بِالْمَنْزِلِ، وَإِنْ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى نِهَايَاتِ الْقَوْمِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَكُلُّ مَنْ كَانَتْ بِدَايَتُهُ أَحْكَمَ؛ كَانَتْ نِهَايَتُهُ أَتَمَّ.

قال الجنيد^(٣): أَكْثَرُ الْعَوَاقِبِ وَالْحَوَائِلِ وَالْمَوَانِعِ: مِنْ فَسَادِ الْإِبْتِدَاءِ.

(١) أخرجه البخاري في صدر «صحيحه»، وكذلك في مواطن عديدة منه، منها: كتاب الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى (رقم ٥٤)، وأخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (رقم ١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»، كتاب الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (رقم ١٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) الجنيد: الإمام الكبير الناطق بالحكمة، إمام الطائفتين (أهل الشريعة وأهل الحقيقة): أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري، ولد سنة ٢١٥ هـ ببغداد، وأصله من نهاوند، كان تلميذاً للسري السقطي وهو ابن أخته. إمام مقبول على جميع الألسنة، وهو من أئمة القوم وساداتهم، توفي سنة ٢٩٧ هـ. ترك عدداً من الرسائل طبعت قديماً، وأقواله منتشرة حتى لا يكاد يخلو منها كتاب، وترجمته مشهورة. انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ١٥٥، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ٢٥٥).

فالمريدُ في أوَّلِ سُلُوكِهِ هَـذِي الطَّرِيقَ يَخْتَاجُ إِلَى إِحْكَامِ النَّيَّةِ، وَإِحْكَامِ
النَّيَّةِ: تَنْزِيهُهَا عَنْ دَوَاعِي الْهَوَىٰ وَكُلِّ مَا كَانَ لِلنَّفْسِ فِيهِ حَظٌّ عَاجِلٌ، حَتَّى
يَكُونَ خُرُوجُهُ خَالِصاً لِلَّهِ تَعَالَى.

وَكَتَبَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ^(١) إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٢): يَا عُمَرُ،
إِنَّ عَوْنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ بِقَدْرِ النَّيَّةِ، فَمَنْ تَمَثَّلَتْ نَيْتُهُ تَمَّ عَوْنُ اللَّهِ لَهُ، وَمَنْ قَصُرَتْ
عَنْهُ نَيْتُهُ قَصُرَ [عَنْهُ] عَوْنُ اللَّهِ بِقَدْرِ ذَلِكَ.

وَكَتَبَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ إِلَى أَخِيهِ: أَخْلِصِ النَّيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَعْمَالِكَ،
يَكْفِكَ قَلِيلٌ مِنَ الْعَمَلِ. وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى النَّيَّةِ بِنَفْسِهِ؛ يَضْحَبُ مَنْ يُعَلِّمُهُ
حُسْنَ النَّيَّةِ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ^(٣) نَفَعَ اللَّهُ بِهِ: أَوَّلُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْمُرِيدُ

(١) سالم بن عبد الله: بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أبو عبد الله، المدني، أحد
الفقهاء السبعة، كان ثباتاً عدلاً فاضلاً، يشبه أباه في الهدى والسمت، مات في آخر
سنة ست على الصحيح. انظر: «تقريب التهذيب» لابن حجر ص ٢٧٠.

(٢) عمر بن عبد العزيز: هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي
القرشي، الخليفة الأموي الملقب بخامس الخلفاء الراشدين لعدله وورعه وزهده،
تولى الخلافة لإمارة المسلمين بعد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ، ولم تطل مدة
إقامته فيها، وتوفي رضي الله عنه سنة ١٠١هـ، روى الأحاديث الكثيرة، أخباره
كثيرة في كتب التاريخ والسير. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٥):
٢٥٣، و«سير النبلاء» للذهبي (٥: ١١٤)، وغيرهما.

(٣) سهل بن عبد الله التستري: هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، أحد أئمة
الصوفية الكبار المشاهير، صاحب المؤلفات الصوفية الهامة والأقوال المشهورة، من
مؤلفاته: «تفسيره للقرآن الكريم»، وكان صاحب كرامات، لقي ذا النون المصري
بمكة سنة خروجه إلى الحج، وتوفي على المشهور سنة ٢٨٣هـ، وقيل: سنة
٢٩٣هـ، انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٢٠٦، «حلية الأولياء» =

المُبْتَدِئُ: التَّبَرُّي مِنْ الْحَرَكَاتِ الْمَدْمُومَةِ، ثُمَّ التَّنْقُلُ إِلَى الْحَرَكَاتِ
الْمَحْمُودَةِ، ثُمَّ التَّفَرُّدُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ التَّوَكُّفُ فِي الرَّشَادِ، ثُمَّ الثَّبَاتُ [فِي
النُّبَاتِ] ^(١)، ثُمَّ الْبَيَانُ، ثُمَّ الْقُرْبُ، ثُمَّ الْمُتَنَاجَاةُ، ثُمَّ الْمُصَافَاةُ، ثُمَّ الْمُوَالَاةُ،
وَيَكُونُ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ مُرَادَهُ، وَالتَّفْوِيضُ (١/٤) وَالتَّوَكُّلُ حَالَهُ، ثُمَّ يَمُنُّ اللَّهُ
عَلَيْهِ بَعْدَ هَذِهِ بِالْمَعْرِفَةِ، فَيَكُونُ مَقَامُهُ عِنْدَ اللَّهِ مَقَامَ الْمُتَبَرِّينَ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ،
وهذا مقامُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، وَلَيْسَ بَعْدَهُ مَقَامٌ. هَذَا مِنْ كَلَامٍ سَهْلٍ، جَمَعَ فِيهِ مَا
فِي الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ.

وَمَنْ تَمَسَّكَ الْمُرِيدُ بِالصُّدُقِ وَالْإِخْلَاصِ بَلَغَ مَبْلَغَ الرُّجَالِ، وَلَا يُحَقِّقُ
مَبْدَقَهُ وَإِخْلَاصَهُ كَتَبَتَيْنِ مُتَابَعَةٍ أَمْرِ الشَّرْعِ، وَقَطَعَ النَّظَرَ عَنِ الْخَلْقِ؛ فَكُلُّ
الْآفَاتِ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَى أَهْلِ الْبِدَايَاتِ لِمَوْضِعِ نَظَرِهِمْ إِلَى الْخَلْقِ.

وَبَلَّغْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ أَنَّهُ: «لَا يَكْمُلُ إِيْمَانُ الْمَرْءِ حَتَّى يَكُونَ
النَّاسُ عِنْدَهُ كَالْأَبَاغِرِ» ^(٢)، إِشَارَةً إِلَى قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الْخَلْقِ، وَالخُرُوجِ مِنْهُمْ،
وَتَرْكِ التَّقْيِيدِ بِعَادَاتِهِمْ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَفْصٍ رَوَيْهِ ^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مَعَهُ

لَا بِي نعيم (١٠ : ١٨٩) وغيرهما.

(١) زيادة من المخطوط ليست في «المعارف»

(٢) قال أبو الفتح الغماري: «غريب جداً، وبعيد أن يكون مرفوعاً من كلام النبي ﷺ،
وفي معناه قول أبي الدرداء: إن نفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم
تقبل على نفسك فتكون لها أشد مقناً. أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، ترجمة أبي
الدرداء ١ : ٢١١، وهو عند عبد الرزاق في «المصنف» (رقم ٢٠٤٧٣). انتهى.

(٣) أحمد بن حفص رويه: أبو حامد أحمد بن حفص رويه البلخي، كان من أكابر مشايخ
خراسان، صاحب أبا تراب النخشي، وحنافياً الأصم، ورحل إلى أبي يزيد، وزار
أبا جعفر الحساد، وهو من المشهورين بالفتوة، توفي رضي الله عنه سنة أربعين

على كل حال: فَلْيَلْزَمْ الصُّدُقُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَعَ الصَّادِقِينَ.

وفي الحديث: «الصُّدُقُ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ»^(١).

ولا بُدَّ لِلْمُرِيدِ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَالْخُرُوجِ مِنَ الْخَلْقِ؛ بِقَطْعِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ، إِلَى أَنْ يَتَحَكَّمَ أَسَاسُهُ، فَيَعْلَمَ دَقَائِقَ الْهَوَى وَخَفَايَا شَهَوَاتِ النَّفْسِ؛ فَأَنْفَعُ شَيْءٍ لِلْمُرِيدِ: مَعْرِفَةُ النَّفْسِ، وَلَا يَقُومُ بِوَاجِبٍ حَقٌّ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ مَنْ لَهُ فِي الدُّنْيَا حَاجَةٌ مِنْ طَلَبِ الْفُضُولِ، أَوْ غَلَبَةُ الْهَوَى بِنَفْسِهِ.

قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ^(٢): خَصَلَتَانِ هُمَا كَمَالُ أَمْرِكَ: تُصْبِحُ لَا تَهْمُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، [٤/ب] وَتُمْسِي لَا تَهْمُ لِلَّهِ بِمَعْصِيَةٍ.

فَإِذَا أَحْكَمَ الزُّهْدَ وَالتَّقْوَى انْكَشَفَتْ لَهُ النَّفْسُ، وَخَرَجَتْ مِنْ حُجُبِهَا، وَعَلِمَ طَرِيقَ حَرَكَاتِهَا، وَخَفِيَ شَهَوَاتِهَا، وَدَسَائِسُهَا وَتَلَبِّسَاتِهَا. وَمَنْ تَمَسَّكَ بِالصُّدُقِ فَقَدْ تَمَسَّكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى.

قَالَ ذُو النُّونِ^(٣): لِلَّهِ فِي أَرْضِهِ سَيْفٌ مَا وُضِعَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا قَطَعَهُ؛

= ومثنين. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ١٨٤) وغيرها.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»، كتاب الأدب، باب: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وما ينهي عن الكذب (رقم ٦٠٩٤)، ومسلم في «الصحيح»، كتاب البر والصلة والآداب، باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (رقم ٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) زيد بن أسلم: العدوي، مولى عمر بن الخطاب، أبو عبد الله المدني، ثقة عالم، مات سنة ست وثلاثين. انظر: «تقريب التهذيب» لابن حجر ص ٢٦٥.

(٣) ذو النون المصري: هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، ذو النون (ت ٢٤٥هـ)، من كبار الصوفية الذين أسسوا علم التصوف وأطلقوا عليه هذا الاسم. كان يقول: إياك أن تكون بالمعرفة مدعيًا، أو تكون بالزهد محترِفًا، أو تكون بالعبادة متعلقًا. وسئل: ما أخفى الحجاب وأشدُّه؟ فقال: رؤية النفس وتدبيرها.

وَهُوَ الصُّدُق .

وَرُوي أَنَّ إبليسَ يَقُولُ : لَيْسَ لِي سُلْطَانٌ عَلَى مَنْ خَالَفَ هَوَاهُ ، وَبَذَلَ نَفْسَهُ لِلَّهِ تَعَالَى .

وَيَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ ؛ حَتَّى فِي أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَمَلْبُوسِهِ : فَلَا يَلْبَسُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَلَا يَشْرَبُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَلَا يَنَامُ إِلَّا لِلَّهِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ أَرْزَاقُ أَدْخَلَهَا اللَّهُ عَلَى النَّفْسِ ، فَإِذَا كَانَتْ لِلَّهِ لَا تَسْتَعْصِي النَّفْسُ ، وَتُجِيبُ إِلَى مَا يُرَادُ مِنْهَا : إِلَى الْمُعَامَلَةِ وَالْإِخْلَاصِ ، فَإِذَا دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ رِفْقِ النَّفْسِ لَا لِلَّهِ ، وَلَا لِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ ، صَارَ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْهِ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْخَبَرِ : «مَنْ [تَطَلَّيْبٌ لِلَّهِ تَعَالَى] جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ الْأَذْفَرِ^(١) ، وَمَنْ تَطَلَّيْبٌ لِغَيْرِ اللَّهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أُنْتَنُ مِنَ الْجَنَفَةِ^(٢) .

وَقَدْ كَانُوا يُحْسِنُونَ اللَّبَاسَ ، مُتَقَرِّبِينَ بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِنِيَّتِهِمْ .

فَالْمُرِيدُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَفَقَّدَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَلَا يُسَامِحُ نَفْسَهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ بِحَرَكَةٍ أَوْ يَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى . وَلَا يَنْفَعُ الْقَوْلُ إِذَا لَمْ تَكُنْ

= تُنْظَرُ تَرْجَمَتُهُ فِي : «طَبَقَاتُ الصُّوفِيَّةِ» لِلْسَّلَمِيِّ ص ١٥ ، «حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ» لِأَبِي نَعِيمٍ (٩ : ٣٣١) .

(١) الْأَذْفَرُ : صِفَةٌ ، يُقَالُ : ذَفَرَ الشَّيْءُ ذَفْرًا : اشْتَدَّتْ رَائِحَتُهُ ، طَيِّبَةً كَانَتْ كَالْمِسْكِ ، أَوْ خَبِيثَةً كَالْعَسْنَانِ ، فَهُوَ : أَذْفَرُ وَهِيَ : ذَفْرَاءُ .

(٢) رَوَاهُ أَبُو الْوَلِيدِ الصَّفَّارُ فِي «كِتَابِ الصَّلَاةِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ مَرْسَلًا ، كَمَا فِي «تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْأَحْيَاءِ» لِلْعِرَاقِيِّ (٤ : ٣٥٣) ، وَهُوَ عِنْدَ عَبْدِ الرَّزَاقِ فِي «الْمُصَنَّفِ» (رَقْمُ ٧٩٣٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ مَرْسَلًا أَيْضًا . وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّهْيُ عَنِ التَّطَلُّبِ لِغَيْرِ الزَّوْجِ ، كَمَا فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٥ : ١٧٢) .

النِّيَّةُ فِي الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ: عَمَلُ الْقَلْبِ، وَإِنَّمَا اللُّسَانُ تَرْجُمان، فَمَهْمَا لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَيْهَا [١/٥] عَزِيمَةُ الْقَلْبِ لِلَّهِ لَا تَكُونُ نِيَّةً.

وَكُلُّ مُرِيدٍ لَا يُحْكِمُ أَسَاسَ بَدَايَتِهِ بِمُهَاجَرَةِ الْأَلْفِ^(١) وَالْأَصْدِقَاءِ وَالْمَعَارِفِ، وَ[لَا]^(٢) يَتَمَسَّكُ بِالْوَحْدَةِ، لَا تَسْتَقِرُّ بَدَايَتُهُ. وَقَدْ قِيلَ: مِنْ قِلَّةِ الصَّدَقِ: كَثْرَةُ الْخُلَطَاءِ، وَأَنْفَعُ مَا لَهُ: لَزُومُ الصَّمْتِ، وَأَنْ لَا يَطْرُقَ سَمْعُهُ كَلَامُ النَّاسِ؛ فَإِنَّ بَاطِنَهُ يَتَغَيَّرُ وَيَتَأَثَّرُ بِالْأَقْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَكُلُّ مَنْ لَا يَعْلَمُ كَمَالَ زُهْدِهِ فِي الدُّنْيَا وَتَمَسُّكِهِ بِحَقَائِقِ التَّقْوَى لَا يَقْبَلُهُ أَبَدًا؛ فَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ لَهُ لَا تُتَبَّجُّ لَهُ خَيْرًا.

وَبَوَاطِنُ أَهْلِ الْإِبْتِدَاءِ كَالشَّمْعِ: يَقْبَلُ كُلُّ نَفْسٍ، وَرُبَّمَا اسْتَضَرَّ الْمُبْتَدِئُ بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ إِلَى النَّاسِ، وَيَسْتَضِرُّ بِفُضُولِ النَّظَرِ أَيْضًا وَفُضُولِ الْمَشْيِ، وَيَقِفُ مِنَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا عَلَى الضَّرُورَةِ؛ فَيَنْظُرُ ضَرُورَةً، حَتَّى لَوْ مَشَى فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ يَجْتَهِدُ أَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي يَسْلُكُهُ [لَا يَلْتَفِتُ يُمْنَةً وَيَسْرَةً، ثُمَّ يَسْتَقِي مَوْضِعَ نَظَرٍ]^(٣) النَّاسِ وَإِحْسَاسَهُمْ مِنْهُ بِالرَّعَايَةِ وَالْإِحْتِرَازِ؛ فَإِنَّ عِلْمَ النَّاسِ فِيهِ بِذَلِكَ أَضَرُّ عَلَيْهِ مِنْ فِعْلِهِ، وَلَا يَسْتَحْقِرُ فُضُولَ الْمَشْيِ؛ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ: مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَنَظَرٍ وَسَمَاعٍ خَرَجَ عَنْ حَدِّ الضَّرُورَةِ، جَرَّ إِلَى الْفُضُولِ، ثُمَّ يَجْرُ إِلَى تَضْيِيعِ الْأَصُولِ.

قَالَ سَفِيانٌ^(٤): إِنَّمَا حُرِّمُوا الْوُصُولَ بِتَضْيِيعِ الْأَصُولِ.

(١) جمع (إلف)، أي: صاحب.

(٢) زيادة انتضاها السياق.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من المخطوط، واستدركناه من «عوارف المعارف» ليتسق المعنى.

(٤) سفيان الثوري: الإمام القدوة، أمير المؤمنين في الحديث، شيخ الإسلام، هو سفيان =

فَكُلُّ مَنْ لَا يَتَمَسَّكُ بِالضَّرُورَةِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْعَمَلِ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَقِفَ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالثَّوْمِ، وَمَتَى تَعَدَّى الضَّرُورَةَ تَدَاعَتْ عَزَائِمُ قَلْبِهِ، وَانْحَلَّتْ شَيْئاً شَيْئاً.

وَقَدْ قَالَ سَهْلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ اخْتِيَاراً، عَبَدَ الْخَلْقَ اضْطِرَّاراً. وَتَنْفَتِحُ عَلَى الْعَبْدِ أَبْوَابُ [٥/ب] الرُّخَصِ وَالْإِتْسَاعِ، وَيَهْلِكُ مَعَ الْهَالِكِينَ. وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدًا مِنْ أَرْبَابِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ لَهُمْ سُمْ قَاتِلٌ، وَوَرَدَ: «الدُّنْيَا مَبْغُوضَةٌ لِلَّهِ، مَنْ تَمَسَّكَ بِحَبْلٍ مِنْهَا قَادَتْهُ إِلَى النَّارِ»^(١). وَمَا حَبْلٌ مِنْ حِبَالِهَا كَأَبْنَائِهَا وَالطَّالِبِينَ لَهَا! فَمَنْ عَرَفَهُمْ انْجَذَبَ إِلَيْهَا شَاءَ أَمْ أَبَى.

وَيَخْتَرِزُ الْمُبْتَدِئُ مِنْ مُجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ؛ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْهِ - مِنْهُمْ - أَشْرٌ مِمَّا يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ مُجَالَسَةِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، وَرُبَّمَا يُشِيرُونَ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ شُغْلُ الْمُتَعَبِّدِ، وَأَنَّ أَرْبَابَ الْأَحْوَالِ ارْتَقَوْا عَنْ ذَلِكَ، وَيَنْبَغِي لِلْفَقِيرِ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الْفَرَائِضِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ فَحَسْبُ! لَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْخُلَ هَذَا الْكَلَامُ سَمْعَهُ رَأْساً؛ فَإِنَّا جَرَّبْنَا وَمَارَسْنَا الْأُمُورَ كُلَّهَا، وَجَالَسْنَا الْفُقَرَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَرَأَيْنَا أَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَذَا الْقَوْلَ، وَيَرَوْنَ الْفَرَائِضَ دُونَ

= ابن سعيد بن مسروق، الثوري، أبو عبد الله، الكوفي، قال عنه عبد الرحمن بن مهدي: ما رأت عيناى أحفظ للحديث من الثوري. قيل: إنه توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ.

انظر ترجمته في: «تهذيب الكمال» للمزي (٧: ٣٥٣) ترجمة رقم (٢٣٨٩)، «حلية الأولياء» (٦: ٣٥٦)، (٧: ٣ - ١٤٣).

(١) قال أبو الفيض الغماري: «لم أجده» يعني بهذا اللفظ، والأحاديث في معناه كثيرة مشهورة، راجع: «إتحاف السادة المتقين» (٨: ١٤٦).

التَّوَافِلِ والزِّيَادَاتِ: تَحْتَ الْقُصُورِ، مَعَ كَوْنِهِمْ أَصِحَّاءَ فِي أَحْوَالِهِمْ. فَعَلَى الْعَبْدِ التَّمَسُّكُ بِكُلِّ فَرِيضَةٍ وَفَضِيلَةٍ؛ فَبِذَلِكَ يَثْبُتُ قَدَمُهُ فِي بِدَايَتِهِ، وَيُرَاعِي يَوْمَ الْجُمُعَةِ خَاصَّةً، وَيَجْعَلُهُ لِلَّهِ خَالِصاً لَا يَمْزُجُهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِ نَفْسِهِ وَمَآرِبِهَا، وَيُبْكُرُ إِلَى الْجَامِعِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ بَعْدَ الْغُسْلِ لِلْجُمُعَةِ، وَإِنْ اغْتَسَلَ قَرِيباً مِنْ وَقْتِ الصَّلَاةِ - إِذَا أُمِنَهُ ذَلِكَ - فَحَسَنٌ، وَيَهْتُمُّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّضَرُّعِ وَالِدُّعَاءِ وَالتَّلَاوَةِ وَأَنْوَاعِ الْأَذْكَارِ مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ إِلَى أَنْ يُصَلِّيَ الْجُمُعَةَ، وَيَجْلِسُ مُعْتَكِفاً فِي الْجَامِعِ إِلَى أَنْ يُصَلِّيَ الْفَرَضَ [١/٦] مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَبَقِيَّةُ النَّهَارِ يَشْغَلُهُ بِالتَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّهُ يَجِدُ بَرَكَاتَ ذَلِكَ فِي أُسْبُوعِهِ.

وَقَدْ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ مَنْ يَضْبِطُ أَحْوَالَهُ وَأَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ فِي جَمِيعِ الْأُسْبُوعِ؛ حَتَّى يَجِدَ ثَمَرَةَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ لِأَنَّهُ يَوْمُ الْمَزِيدِ لِكُلِّ صَادِقٍ، وَيَكُونُ مَا يَجِدُهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُحْكَمًا يَعْتَبِرُ بِهِ سَائِرَ الْأُسْبُوعِ الَّذِي مَضَى؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ الْأُسْبُوعُ سَلِيمًا يَكُونُ الْجُمُعَةُ فِيهِ مَزِيدُ الْأَنْوَارِ وَالْبَرَكَاتِ، وَمَا يَجِدُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: مِنْ ظُلْمَةٍ وَسَامَةِ النَّفْسِ وَقِلَّةِ الْإِنْشِرَاحِ؛ فَلَمَّا ضَيَّعَ فِي الْأُسْبُوعِ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَيَعْتَبِرُهُ.

وَلَا بُدَّ لِلْمُبْتَدِئِ أَنْ يَكُونَ لَهُ حِظٌّ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَمِنْ حِفْظِهِ، وَلَا يُضَيِّعُ إِلَى قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ: مُلَازِمَةُ ذِكْرِ وَاحِدٍ أَفْضَلُ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ يَجِدُ بِالْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ، فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِ الصَّلَاةِ، جَمِيعَ مَا يَتَمَنَّاهُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِنَّمَا اخْتَارُوا أَنْ يُدِيمَ ذِكْرًا وَاحِدًا لِيَجْتَمَعَ لَهُمْ.

وَمَنْ لَازَمَ التَّلَاوَةَ فِي الْخَلْوَةِ، وَتَمَسَّكَ بِالْوَحْدَةِ؛ تُفِيدُهُ التَّلَاوَةُ وَالصَّلَاةُ أَوْفَى مَا يُفِيدُهُ الذِّكْرُ، فَإِذَا سَيَّمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ صَانَعَ النَّفْسَ عَلَى الذِّكْرِ مُصَانَعَةً، وَنَزَلَ مِنَ التَّلَاوَةِ إِلَى الذِّكْرِ؛ فَإِنَّهُ أَخَفُّ عَلَى النَّفْسِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ الْإِعْتِبَارَ بِالْقَلْبِ؛ فَكُلُّ عَمَلٍ: مِنْ تِلَاوَةٍ وَصَلَاةٍ وَذِكْرِ لَا

يُجْمَعُ فِيهِ بَيْنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، لَا يُعْتَدُّ بِهِ كُلُّ الْاِعْتِدَادِ؛ فَإِنَّهُ عَمَلٌ نَاقِصٌ.

وَلَا يَخْفَرُ الرَّبَّاسُ وَحَدِيثَ النَّفْسِ؛ فَإِنَّهُ مُضِرٌّ وَدَاءٌ عُضَالٌ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُطَالَبَ نَفْسُهُ أَنْ يَصِيرَ - فِي تَلَاوَتِهِ - مَعْنَى^(١) الْقُرْآنِ مَكَانَ حَدِيثِ النَّفْسِ مِنْ بَاطِنِهِ، كَمَا أَنَّ التَّلَاوَةَ [ب/٦] عَلَى اللِّسَانِ هُوَ مَشْغُولٌ بِهَا لَا يَمَزُجُهَا بِكَلَامٍ آخَرَ. هَكَذَا يَكُونُ مَعْنَى الْقُرْآنِ فِي الْقَلْبِ لَا يَمَزُجُهُ حَدِيثُ النَّفْسِ.

وَأِنْ كَانَ أَعْجَمِيًّا لَا يَعْلَمُ مَعْنَى الْقُرْآنِ يَكُونُ الْمُرَاقَبَةُ حَلِيَّةَ بَاطِنِهِ، فَيُشْغِلُ بَاطِنَهُ بِمُطَالَعَةِ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ مَكَانَ حَدِيثِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ بِالْدَّوَامِ عَلَى ذَلِكَ يَصِيرُ مِنْ أَرْبَابِ الْمُشَاهَدَةِ.

قَالَ مَالِكٌ^(٢): قُلُوبُ الصَّادِقِينَ إِذَا سَمِعَتِ الْقُرْآنَ طَرِبَتْ إِلَى الْآخِرَةِ.

فَلْيَتَمَسَّكِ الْمُرِيدُ بِهَذِهِ الْأُصُولِ، وَلْيَسْتَعِزْ بِدَوَامِ الْاِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَبِذَلِكَ ثَبَاتٌ قَدِيمٌ.

قَالَ سَهْلٌ: عَلَى قَدْرِ لَزُومِ الْاِلْتِجَاءِ وَالْاِفْتِقَارِ يُعْرِفُ الْبَلَاءُ، وَعَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ بِالْبَلَاءِ يَكُونُ اِفْتِقَارُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَدَوَامُ اِفْتِقَارِهِ إِلَى اللَّهِ: أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَمِفْتَاحُ كُلِّ عِلْمٍ دَقِيقٍ فِي طَرِيقِ الْقَوْمِ، وَهَذَا الْاِفْتِقَارُ مَعَ الْأَنْفَاسِ: لَا يَتَشَبَّهُ بِحَرَكَةٍ، وَلَا يَسْتَقِلُّ بِكَلِمَةٍ دُونَ اللَّهِ وَدُونَ الْاِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ فِيهَا، وَكُلُّ كَلِمَةٍ وَحَرَكَةٍ خَلَّتْ عَنْ مُرَاجَعَةِ اللَّهِ

(١) اسم (يصير).

(٢) مالك: ابن أنس: الإمام صاحب المذهب، أحد المجتهدين (٩٣ - ١٧٩ هـ). أخذ عن ثلاثمائة من التابعين، وكان إذا جلس للحديث تبخر وتطيب، ومنع الناس من رفع الصوت، وكان إذا دخل بيته لم يكن له شاغل إلا المصحف. وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ١٢٨).

والافتقار فيها لا تُعَقَّبُ خيراً قطعاً، عَلِمْنَا ذَلِكَ وَتَحَقَّقْنَاهُ.

وَقَالَ سَهْلٌ : مَنْ انْتَقَلَ مِنْ نَفْسٍ إِلَى نَفْسٍ، مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ، فَقَدْ ضَيَّعَ حَالَهُ،
وَأَدْنَى مَا يَدْخُلُ عَلَى مَنْ ضَيَّعَ حَالَهُ: دُخُولُهُ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ، وَتَرْكُهُ مَا يَعْنِيهِ.
فَبِالصَّدِّيقِ نَالُوا مَا نَالُوا، وَبِقُوَّةِ الْعِزَائِمِ: عِزَائِمِ الرُّجَالِ، بَلَّغُوا مَا بَلَّغُوا.

قَالَ الْجُنَيْدُ: لَوْ أَقْبَلَ صَادِقٌ عَلَى اللَّهِ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهُ لِحِظَةٍ،
لَكَانَ مَا فَاتَهُ مِنَ اللَّهِ أَكْثَرَ مِمَّا نَالَ.

وهذه الجملة يحتاج المبتدئ أن [١/٧] يُحْكِمَهَا، وَالْمُنْتَهَى عَالِمٌ بِهَا
عَامِلٌ بِحَقَائِقِهَا.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْقُرَشِيُّ^(١): الصَّادِقُ: الَّذِي ظَاهِرُهُ مُسْتَقِيمٌ، وَبَاطِنُهُ يَمِيلُ
أَحْيَاناً إِلَى حِظِّ النَّفْسِ، وَعَلَامَتُهُ: أَنْ يَجِدَ الْحَلَاوَةَ فِي بَعْضِ الطَّاعَاتِ وَلَا يَجِدَ
فِي بَعْضٍ، وَإِذَا اشْتَغَلَ بِالذِّكْرِ نَوَّرَ الرُّوحَ، وَإِذَا اشْتَغَلَ بِحِظِّ النَّفْسِ يَنْحَجِبُ
عَنِ الْأَذْكَارِ، وَالصَّدِّيقُ: [الَّذِي اسْتَقَامَ] ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ، يَعْبُدُ اللَّهَ بَتْلَوَيْنِ
الْأَحْوَالِ، لَا يَخْجُبُهُ عَنِ اللَّهِ وَلَا عَنِ الْأَذْكَارِ أَكْلٌ وَلَا نَوْمٌ وَلَا شُرْبٌ وَلَا طَعَامٌ،
وَالصَّدِّيقُ يَرِيدُ نَفْسَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَقْرَبُ الْأَحْوَالِ إِلَى التُّبُّوَّةِ: الصَّدِّيقِيَّةُ.

قَالَ أَبُو يَزِيدَ^(٢): آخِرُ نَهَايَاتِ الصَّدِّيقِينَ أَوَّلُ دَرَجَاتِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَعَلِمَ أَنَّ أَرْبَابَ النَّهَايَاتِ اسْتَقَامَتْ بَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ لِلَّهِ، وَأَزْوَاحُهُمْ

(١) أَبُو سَعِيدٍ الْقُرَشِيُّ: لَمْ أَقِفْ عَلَى تَرْجُمَتِهِ فِيمَا بَيْنَ يَدَيِ الْمَصَادِرِ.

(٢) أَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِيُّ: طَيْفُورُ بْنُ عَيْسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدُ أَكْبَرِ الْأَوْلِيَاءِ، كَانَ يَقُولُ:
السَّنَةُ تَرَكَ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا، وَالْفَرِيضَةُ صَحْبَةُ اللَّهِ عِزَّ وَجَلٍّ، وَكَانَ يَقُولُ: اخْتِلَافُ
الْعُلَمَاءِ رَحْمَةٌ إِلَّا فِي تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ، تُوْفِي سَنَةً إِحْدَى وَسِتِّينَ وَمِثْنِينَ. انْظُرْ:
«الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى» لِلشَّعْرَانِيِّ (١: ١٧٤).

خَلَصَتْ عَنْ ظُلْمَةِ النُّفُوسِ، وَوَطِئَتْ بِسَاطِ الْقُرْبِ، وَنَفُوسُهُمْ مُنْقَادَةٌ مِطْوَاعَةٌ مُصَالِحَةٌ مَعَ الْقُلُوبِ، مُجِيبَةٌ إِلَى كُلِّ مَا تُجِيبُ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ؛ فَأَرَوَّاحُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَقَامِ الْأَعْلَى، انْطَفَأَتْ فِيهِمْ نِيرَانُ الْهَوَى، وَتَخَمَّرَ فِي بَوَاطِنِهِمْ صَرِيحُ الْعِلْمِ، وَانْكَشَفَتْ لَهُمُ الْآخِرَةُ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَقِّ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَيِّتٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ»^(١)، إشارَةً إِلَى مَا كُوشِفَ بِهِ مِنْ صَرِيحِ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ عَوَامُّ الْمُؤْمِنِينَ [إِلَّا] بَعْدَ الْمَوْتِ؛ حَيْثُ يُقَالُ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

فَأَرْبَابُ النُّهَايَاتِ مَاتَتْ أَهْوِيَّتُهُمْ، وَخَلَصَتْ أَرَوَّاحُهُمْ، [٧/ب] [وهم] عِنْدَ اللَّهِ بِحَقِيقَتِهِمْ، مُعَوِّقِينَ بِتَوْقِيتِ الْأَجَلِ، جَعَلَهُمْ مِنْ جُنُودِهِ فِي خَلْقِهِ، بِهِمْ يَهْدِي، [و] بِهِمْ يُرْشِدُ، وَبِهِمْ يَجْذِبُ أَهْلَ الْإِرَادَةِ. كَلَامُهُمْ دَوَاءٌ، وَنَظَرُهُمْ دَوَاءٌ، ظَاهِرُهُمْ مَحْفُوظٌ بِالْحُكْمِ، وَبَاطِنُهُمْ مَعْمُورٌ بِالْعِلْمِ، كُلَّمَا أَزْدَادُوا نِعْمَةً أَزْدَادُوا عُبُودِيَّةً، وَكُلَّمَا أَزْدَادُوا دِينًا أَزْدَادُوا قُرْبًا، وَكُلَّمَا أَزْدَادُوا جَاهًا وَرِفْعَةً^(٢) أَزْدَادُوا تَوَاضُعًا وَذِلَّةً، وَكُلَّمَا تَنَاوَلُوا شَهْوَةً مِنْ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ اسْتَخْرَجَتْ مِنْهُمْ شُكْرًا صَافِيًا، يَتَنَاوَلُونَ الشَّهَوَاتِ تَارَةً رِفْقًا بِالنُّفُوسِ؛ لِأَنَّهَا مَعَهُمْ كَالطِّفْلِ الَّذِي يُلَاطِفُ بِالشَّيْءِ، وَيُهْدِي لَهُ الشَّيْءَ؛ لِأَنَّهُ مَقْهُورٌ تَحْتَ السِّيَاسَةِ، مَرَحُومٌ بِهِ، مَلْطُوفٌ بِهِ، وَتَارَةً يَمْنَعُونَ نَفُوسَهُمْ تَأْسِيًا بِالْأَنْبِيَاءِ وَاخْتِيَارِهِمُ التَّقَلُّلَ مِنْ

(١) المعروف: «من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار؛ فلينظر إلى أبي بكر»، أخرجه أبو يعلى في «المسند» (رقم ٤٨٩٩)، والطبراني في «الكبير» (رقم ١٩)، والحاكم في «المستدرک» من حديث عائشة (٣: ٦١) وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بأن في سنده صالح بن موسى الطلحي ضعفه، قال: والسند مظلم.

(٢) زاد في المخطوط بعد هذه الكلمة: (ورفعاً)، وليست في «العوارف»، ولا وجه لها.

الشَّهَوَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ . وَاَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَّهِيَ مَعَ كَمَالِ حَالِهِ لَا يَسْتَغْنِي أَيْضاً عَنْ سِيَاسَةِ النَّفْسِ وَمَنْعِهَا الشَّهَوَاتِ ، وَأَخِذِ الْحِظَّ مِنْ زِيَادَةِ الصَّيَامِ وَالْقِيَامِ وَأَنْوَاعِ الْبِرِّ .

وَمَنْ تَخَلَّصَ مِنْ نَوْرِ الْحَالِ إِلَى نُورِ الْحَقِّ يَذْهَبُ عَنْهُ بَقَايَا الشُّكْرِ ، وَيُوقِفُ نَفْسَهُ مَقَامَ الْعَبِيدِ ، كَأَحَادِ عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ : يَتَقَرَّبُ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَأَنْوَاعِ الْبِرِّ ، حَتَّى بِإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَلَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَعُودَ فِي صُورِ عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ : مِنْ إِظْهَارِ الْإِرَادَةِ بِكُلِّ بَرٍّ وَصِلَةٍ ؛ فَيَتَنَاوَلُ الشَّهَوَاتِ وَقْتاً ؛ رِفْقاً بِالنَّفْسِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُزَكَّاةِ الْمُتَقَادَةِ الْمُطَوَّاعَةِ ؛ لِأَنَّهَا أُسِيرَتُهُ ، [١/٨] وَيَمْنَعُهَا الشَّهَوَاتِ وَقْتاً ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ صَلَاحَهَا ، وَأَعْتَبِرْ هَذَا سِوَاءَ بِحَالِ الصَّبِيِّ ، فَإِنَّهُ إِنْ جَاوَزَ حَدَّ الْعِتْدَالِ — مِنْ إِعْطَاءِ الْمُرَادِ وَقْتاً وَمَنْعِهِ وَقْتاً — انْفَسَدَ طَبْعُهُ ؛ لِأَنَّ الْجِبِلَّةَ لَا بُدَّ مِنْ قَمْعِهَا بِسِيَاسَةِ الْعِلْمِ ، وَمَا دَامَتِ الْجِبِلَّةُ بَاقِيَةً لَا بُدَّ مِنْ سِيَاسَةِ الْعِلْمِ .

فصل

[فِي مَنْشَأِ عُلُومِ الصُّوفِيَّةِ]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا ، فَقَالَ : يَا قَوْمُ ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثَنِي ، فَأَنَا التَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالْنَّجَاءُ النَّجَاءُ ؛ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذْلَجُوا^(١) ، فَأَنْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَّوْا^(٢) .

(١) الإدلاج: السير في الليل كما هو معروف، وفي الحديث: «عليكم بالدُّلْجَةِ، فَإِنْ الْأَرْضُ تُطَوِّى بِاللَّيْلِ» .

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»، كتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (رقم ٦٤٨٢)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (رقم ٧٢٨٣)، ومسلم في «الصحيح»، كتاب الفضائل، باب: شفقتي ﷺ على أمته =

أَعَدَّ اللَّهُ لِقَبُولِ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْفَى الْقُلُوبِ، وَأَزْكَى النَّفُوسِ،
وظَهَرَ تَفَاوُثَ الصَّفَاءِ وَالتَّزَكِّيَةِ فِي تَفَاوُثِ الْفَائِدَةِ وَالتَّشْفَعِ، فَنفُوسُ الْعُلَمَاءِ
الزَّاهِدِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَالشُّيُوخِ تَزَكَّتْ، وَقُلُوبُهُمْ صَفَّتْ، وَاخْتَصَّتْ بِمَزِيدِ
الْفَائِدَةِ؛ فَصَارُوا إِخَادَاتٍ^(١).

قَالَ مَسْرُوقٌ^(٢): صَحِبْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدْتُهُمْ كَالِإِخَادَاتِ،
لَأَنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ وَاعِيَةً، فَصَارَتْ أَوْعِيَةً الْعُلُومِ بِمَا رُزِقَتْ مِنْ صَفَاءِ الْفُهْمِ.
حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: «سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ
يَا عَلِيُّ»^(٣). قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا نَسِيتُ شَيْئاً [ب/٨] وَمَا كَانَ لِي أَنْ
أَنْسِيَ.

قَالَ الْوَاسِطِيُّ^(٤): (آذَانٌ) وَعَثَّ عَنِ اللَّهِ أَسْرَارُهُ.

= ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (رقم ٢٢٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(١) أي: أوعية، كما يدل عليه السطر الآتي.

(٢) مسروق: ابن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة الكوفي، فقيه ثقة عابد، توفي سنة اثنتين وستين. انظر: «تقريب التهذيب» لابن حجر ص ٦١٤.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١: ٦٧) من وجهين عن علي رضي الله عنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن مردويه، جميعاً في التفسير عن مكحول مرسلاً، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر وابن النجار من حديث بريدة، والبخاري في «المسند» من حديث أبي رافع، وراجع «الدر المنثور» للسيوطي (٨: ٢٦٧).

(٤) الواسطي: هو أبو بكر الواسطي، واسمه محمد بن موسى، أصله من فرغانة، وكان يعرف بابن الفرغاني، من قدماء أصحاب الجنيد، وأبي الحسين الثوري، وهو من علماء مشايخ القوم، لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثله، وكان عالماً بالأصول =

وقال أيضاً: ﴿رَعِيَّةٌ﴾ في معادِنِها^(١)، ليس فيها غيرُ ما أشهدها^(٢)؛ فهي الخالية عما سواه، فما اضطرابُ الطَّبَائِعِ إلا ضَرْبٌ مِنَ الْجَهْلِ.

فقلوبُ الصُّوفِيَّةِ وَعَتْ؛ لأنَّهم زَهَدُوا في الدُّنْيَا بعدَ أَنْ أَحْكَمُوا آسَاسَ التَّقْوَى، فبِالتَّقْوَى تَزَكَّتْ نَفُوسُهُمْ، وبِالزُّهْدِ صَفَتْ قُلُوبُهُمْ، فَلَمَّا عُدِمُوا شَوَاغِلَ الدُّنْيَا بِتَحْقِيقِ الزُّهْدِ؛ انْفَتَحَتْ مَسَامُ بَوَاطِنِهِمْ، وَسَمِعَتْ آذَانُ قُلُوبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ذَلِكَ زُهْدُهُمْ فِي الدُّنْيَا.

قَالَ الْوَاسِطِيُّ: خَلَقَ اللَّهُ دُرَّةً صَافِيَةً، فَلَا حَظَّهَا بَعِينَ الْجَلَالِ؛ فَذَابَتْ حَيَاءُ مِنْهُ فَسَّالَتْ، فَقَالَ: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا﴾ [الرعد: ١٧]، فَصَفَاءُ الْقُلُوبِ مِنْ صَفَاءِ ذَلِكَ الْمَاءِ [الواصل] إِلَيْهَا.

قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ^(٣): هَذَا مِثْلُ ضَرْبَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ إِذَا سَالَ السَّيْلُ فِي الْأَوْدِيَةِ لَا يَبْقَى فِيهَا نَجَاسَةٌ إِلَّا كَنَسَهَا وَذَهَبَ بِهَا، كَذَلِكَ إِذَا نَزَلَ الثُّورُ الَّذِي قَسَمَ اللَّهُ لِلْعَبْدِ فِي نَفْسِهِ لَا يَبْقَى فِيهَا جَفْوَةٌ، تَذْهَبُ الْأَبَاطِيلُ وَتَبْقَى الْحَقَائِقُ. فَمَنْ كَانَ فِي بَاطِنِهِ لَوْنٌ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا مِنْ فُضُولِ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَطَلَبِ الْمَنَاصِبِ وَالرَّفْعَةِ؛ سَالَ وَادِي قَلْبِهِ بِقَدَرِهِ، فَأَخَذَ مِنَ الْعِلْمِ طَرَفًا صَالِحًا، وَلَمْ يُحِطْ بِدَقَائِقِ الْعُلُومِ،

= وعلوم الظاهر، استوطن كورة مرو، ومات بها بعد العشرين وثلاثمئة. انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٢٠٣، «حلية الأولياء» (١٠): (٣٤٩).

(١) في المخطوط: معانيها، والمثبت من «العوارف».

(٢) في «العوارف»: (ليس فيها غير ما شهدته شيء).

(٣) ابن عطاء: هو أحمد بن عطاء بن أحمد الروذباري، أبو عبد الله، ابن أخت أبي علي الروذباري، شيخ الشام في وقته، يرجع إلى أحوال يختص بها وأنواع من العلوم شتى، كان يقول: أقبح من كل قبيح صوفي شحيح، توفي سنة تسع وستين وثلاثمئة. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٢٨٢).

وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا اتَّسَعَ وَاِدْي قَلْبِهِ ؛ فَسَالَتْ فِيهِ مِيَاهُ الْعُلُومِ وَاجْتَمَعَتْ وَصَارَتْ
إِخَاذَاتٍ .

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ^(١) : هَلْ رَأَيْتَ فَقِيهًا قَطُّ ؟ ! إِنَّمَا الْفَقِيهُ : الزَّاهِدُ فِي
الدُّنْيَا . فَالْصُّوْفِيَّةُ أَخَذُوا حِطًّا مِنْ [١/٩] عِلْمِ الدِّرَاسَةِ ، فَأَفَادَهُمُ الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ ،
فَلَمَّا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا أَفَادَهُمُ عِلْمُ الْوِرَاثَةِ ، فَهُمْ مَعَ سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي عُلُومِهِمْ ،
وَتَمَيَّزُوا عَنْهُمْ بِعُلُومِ زَائِدَةٍ : هِيَ عُلُومُ الْوِرَاثَةِ .

وَعِلْمُ الْوِرَاثَةِ هُوَ : الْفِقْهُ فِي الدِّينِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَسْفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، فَإِلَّا نَذَارُ مُسْتَفَادٌ مِنَ الْفَقْهِ عَنْهُمْ ، وَهُوَ : إِحْيَاءُ
الْمُنْذَرِ بِمَاءِ الْعِلْمِ ، وَالْإِحْيَاءُ بِالْعِلْمِ رُتْبَةُ الْفَقْهِ فِي الدِّينِ ؛ فَصَارَ الْفَقْهُ فِي الدِّينِ
مِنْ أَكْمَلِ الرُّتَبِ وَأَعْلَاهَا ، وَهُوَ عِلْمُ الْعَالِمِ الزَّاهِدِ فِي الدُّنْيَا ، الْمُتَمِّمِي الَّذِي يَبْلُغُ
رُتْبَةَ الْإِنْدَارِ بِعِلْمِهِ .

فَمَرَّ دُ الْهُدَى وَالْعِلْمِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلًا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ الْعِلْمُ وَالْهُدَى مِنْ
اللَّهِ فَارْتَوَى بِذَلِكَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَظَهَرَ مِنْ أَنْوَارِ ظَاهِرِهِ الدِّينِ ، وَالدِّينُ هُوَ
الْإِنْقِيَادُ وَالْخُضُوعُ ، وَهُوَ : أَنْ يَضَعَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ لِرَبِّهِ . وَالْقَلْبُ فِي ارْتِوَائِهِ
بِالْعِلْمِ بِمِثَابَةِ الْبَحْرِ ، فَصَارَ قَلْبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْعِلْمِ وَالْهُدَى بَحْرًا مَوْجًا ، ثُمَّ
وَصَلَ مِنْ بَحْرِ قَلْبِهِ إِلَى النَّفْسِ ، فَظَهَرَ عَلَى نَفْسِهِ الشَّرِيقَةُ نَضَارَةُ الْعِلْمِ وَرِيَّةُ ؛
فَتَبَدَّلَتْ نُعُوتُ النَّفْسِ وَأَخْلَقُهَا [الدِّمِيمة] ، ثُمَّ وَصَلَ إِلَى الْجَوَارِحِ جَذُولٌ

(١) الحسن البصري : أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري ، من سادات
التابعين وكبرائهم ، كان إمام أهل البصرة ، حبر الأمة في زمانه ، كان عالماً ، جامعاً ،
رفيعاً ، فقيهاً ، ناسكاً ، أقواله كثيرة متناثرة مشهورة ، توفي بالبصرة في مستهل رجب
سنة ثمانية وعشر . انظر : « البداية والنهاية » لابن كثير (٥ : ٩ : ٣٠١) ، « الكواكب
الدرية » للمناوي (١ : ١٨١) .

فصارت رِيَانَةً [٩/ب] ناضرة، فلمّا استتمّ نضارةً وامتلأ رِيَانًا: بعثه الله إلى الخلق، وأقبل على الخلق بقلبٍ مَوَاجٍ بمياه العلوم، واستقبله جداولُ الفُهوم، وجسرى من بحره في كلِّ جدولٍ قِسطٌ ونصيب، وذلك القسطُ الواصلُ إلى الفُهوم هو الفقه في الدين. وإذا وصل ماء العلم إلى الفهم، انفتح بصر القلب؛ فأبصر الحقَّ والباطل. وتبيّن له الرُّشدُ من الغي.

وكانت ذرّة رسول الله ﷺ مَوْضِعَ نظير الله؛ فلم يُصبه حظُّ الجهل، بل صارَ منزوعاً^(١)، مَوْفِراً حظُّه من العلم، فبعثه الله بالهدى والعلم، وانتقل من قلبه الكريم إلى القلوب، ومن نفسه إلى الثغوس؛ فأخذت من العلم حظاً وافراً، فصارت بَوَاطِنُهُمْ إِخَادَاتٍ، فعلموا وعملوا وعلموا.

ولمّا تزكّت الثغوسُ انجلت مرآتي قلوبهم بما صَفَلَهَا مِنَ الثَّقَوِي؛ فأنجلي فيها صورُ الأشياءِ على هَيْئَتِهَا وَمَاهِيَّتِهَا، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها، وظهرت الآخرة بحُسْنِهَا فطلبوها، فلمّا زهدوا في الدنيا فانصبّت إلى بَوَاطِنِهِمْ أقسامُ العلوم انصباباً، وانضاف إلى علم الدُّرَاسَةِ علمُ الِورَاثَةِ.

فصل

[حال الصوفي المنقطع]

لَمَّا صَحَّ حَالُ الصُّوفِيّ وانقَطَعَتْ أَطْمَاعُهُ، وَسَكَنَتْ عَنْ كُلِّ تَشْرِيفٍ وَتَطْلُعِ نَفْسِهِ؛ خَدَمَتْهُ الدُّنْيَا، وَصَلَحَتْ [١٠/أ] لَهُ الدُّنْيَا خَادِمَةً، وَمَا رَضِيَهَا مَخْدُومَةً، فَصَاحِبُ الْفُتُوحِ يَرَى حَرَكَةَ النَّفْسِ بِالسَّرْفِ جَنَائَةً وَذَنْبًا، [و] أَرْبَابُ الصَّدَقِ إِنْ سَأَلُوا سَأَلُوا بِعِلْمٍ، وَإِنْ أَمْسَكُوا عَنْ السُّؤَالِ أَمْسَكُوا بِحَالٍ، وَإِنْ قَبِلُوا قَبِلُوا بِعِلْمٍ، فَمَنْ لَمْ يُزَوِّقْ حَالَ الْفُتُوحِ فَلَهُ حَالُ السُّؤَالِ وَالْكَسْبِ بِشَرِّطِ

(١) أي: الجليل.

العِلْمَ، فأمّا السائلُ مُستَكثراً فوقَ الحاجةِ ولا في وقتِ الضَّرورةِ، فليسَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ في شيءٍ .

فحالُ الصُّوفِيَّةِ: حُسْنُ الأدبِ في السؤالِ والفتوحِ، والصَّدقُ معَ اللهِ في كلِّ حالٍ كيفَ تَقَلَّبَ .

فصلٌ

[حالُ الصُّوفِيِّ المُتَجَرِّدِ]

يَصْلُحُ للفقيرِ في ابتداءِ أمرِهِ قطعُ العلائقِ، ومَحْوُ العوائقِ، والتَّنْقُلُ في الأسفارِ، وركوبُ الأخطارِ، والتَّجَرُّدُ عَنِ الأسبابِ، والخروجُ عَنِ كُلِّ ما يَكُونُ حِجَاباً .

وقَدْ قيلَ : النَّفْسُ إِذَا لَمْ تَشْغَلْهَا شَغَلَتْكَ .

فإذا أدامَ الشابُّ المريدُ العَمَلَ، وأدأبَ نَفْسَهُ في العِبادةِ، ثَقُلَ عليهِ خواطرُ النَّفسِ . وأيضاً، شَغَلَهُ بالعِبادةِ يُثْمِرُ لَهُ حلاوةَ المُعاملةِ، ومَحَبَّةَ الإكثارِ مِنْهَا، وينفتحُ لَهُ بابُ السُّهولةِ واليسرِ في العَمَلِ؛ فيَغَارُ على حالِهِ ووقْتِهِ أن يَتَكَدَّرَ بِهِمْ .

فصلٌ

[حالُ الصُّوفِيِّ المُتَأَهِّلِ]

لِلقلوبِ إقبالٌ وإدبارٌ، فإذا أدبَرَتْ رُوِّحَتْ بالإرفاقِ [١٠/ب] وإذا أَقْبَلَتْ رُدَّتْ إلى المَساقِ؛ فتَبْقَى قلوبُهُم دائمةَ الإقبالِ إلا اليَسيرَ، ولا يدومُ إقبالُها إلا لِطُمأنينةِ الثُّفوسِ، فإذا اطمأنَّتِ الثُّفوسُ واستَقَرَّتْ عَنِ طيشِها ونفُورها وشراسِتها؛ توفَّرَتْ عَلَيْها حَقُوقُها، ورُبَّما يَصِيرُ مِنَ حَقُوقِها حُظُوظُها؛ لأنَّ في أداءِ الحَقُوقِ إقناعاً، وفي أخذِ الحِظِّ اتِّساعاً، وهذا مِنْ دَقِيقِ عِلْمِ الصُّوفِيَّةِ،

فَبِأَنَّهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِالشُّكَاكِحِ الْمُبَاحِ إِيصَالاً إِلَى النَّفْسِ حَظَّهَا؛ لِأَنَّهَا مَا زَالَتْ تُخَالِفُ هَوَاهَا حَتَّى صَارَ دَاوُهَا دَوَاءَهَا، فَصَارَتِ الشَّهَوَاتُ الْمُبَاحَةُ وَاللَّذَاتُ الْمَشْرُوعَةُ لَا تَضُرُّهَا وَلَا تُفْسِدُ عَلَيْهَا عِزَانِمَهَا، بَلْ كُلَّمَا وَصَلَتِ الثُّفُوسُ الزَّكِيَّةُ إِلَى حُطُوطِهَا اِزْدَادَ الْقَلْبُ انْشِرَاحاً وَانْفِسَاحاً، وَيَصِيرُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ مُوَافَقَةٌ بَعْطَفٍ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، وَيَزْدَادُ كُلُّ وَاحِدٍ فِيهِمَا بِمَا يَدْخُلُ عَلَى الْآخَرِ مِنَ الْحِظِّ: كُلَّمَا أَخَذَ الْقَلْبُ حِظَّهُ مِنَ اللَّهِ خَلَعَ عَلَى النَّفْسِ خِلْعَةَ الطُّمَائِنَةِ، فَيَكُونُ مَزِيدُ السَّكِينَةِ لِلْقَلْبِ مَزِيدَ الطُّمَائِنَةِ لِلنَّفْسِ.

وَأَنْشَدُوا:

[كامل]

إِنَّ السَّمَاءَ إِذَا اكْتَسَتْ كَسَبَ الثَّرَى حُلَا يَدْبُجُهَا الْغَمَامُ الدَّاهِمُ
وَكُلَّمَا أَخَذَتِ النَّفْسُ حَظَّهَا تَرَوَّحَ الْقَلْبُ تَرَوَّحَ الْجَارِ الْمُشْفِقِ [١١/ب]
بِرَاحَةِ الْجَارِ، وَهَذَا مِنَ الْأَحْوَالِ الْعَزِيزَةِ، لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِعَالَمٍ رَبَّانِيٍّ، فَكَمْ مِنْ مُدَّعٍ هَلَكَ بِتَوَكُّمِهِ هَذَا فِي نَفْسِهِ، وَالْعَبْدُ إِذَا كَمَلَ بِأَخْذِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَلَا تَأْخُذُ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ.

فصل

[نَصِيحَةٌ لِلصُّوفِيِّ الْمُتَاهِلِ]

مَنْ أُعْطِيَ الظَّهَارَةَ فِي بَاطِنِهِ، لَا يُدْنَسُ بِبَاطِنِهِ بِخَوَاطِرِ الشَّهْوَةِ، وَإِذَا سَنَحَ لَهُ الْخَوَاطِرُ يَمْحُوهُ بِحُسْنِ الْإِنَابَةِ وَاللِّبَازِ بِالْهَرَبِ، وَمَتَى سَامَرَ الْفِكْرَ كَثَفَ الْخَوَاطِرُ، وَخَرَجَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الصَّدْرِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُحْذَرُ إِحْسَاسُ الْعِضْوِ بِالْخَوَاطِرِ؛ فَيَصِيرُ ذَلِكَ عَمَلًا خَفِيًّا، وَمَا أَقْبَحَ مِثْلَ هَذَا بِالصَّادِقِ وَالْمُتَطَّلِعِ إِلَى الْحُضُورِ وَالْيَقَظَةِ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ فَاحِشَةً الْحَالِ.

وَقَدْ قِيلَ: مَرُورُ الْفَاحِشَةِ بِقَلْبِ الْعَارِفِ كَفَعْلِ الْفَاعِلِينَ لَهَا. انْتَهَى.

[القول في السَّماع]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اغْتَنِمُوا الدُّعَاءَ عِنْدَ الرُّقَّةِ؛ فَإِنَّهَا رَحْمَةٌ»^(١).

وقَدْ يُنْكَرُ السَّمَاعُ جَامِداً الطَّبْعُ، عَدِيمُ الذَّوْقِ؛ فيَقَالُ لَهُ: الْعَيْنُ لَا يَعْلَمُ لَذَّةَ الْوِقَاعِ، وَالْمَكْفُوفُ لَيْسَ لَهُ بِالْجَمَالِ الْبَارِعِ اسْتِمْتَاعٌ، وَغَيْرُ الْمُصَابِ لَا يَتَكَلَّمُ بِالْإِسْتِرْجَاعِ، فَمَاذَا تُنْكَرُ مِنْ مُحِبِّ تَرْبِيٍّ بَاطِنُهُ بِالشَّوْقِ وَالْمَحَبَّةِ، وَيَرَى انْخِنَاسَ رُوحِهِ الطَّيَّارَةِ، فِي مَضْيَقِ قَفْصِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ، ثُمَّ تَمُرُّ بِرُوحِهِ تَنْسِيمُ أَنْسِ الْأَوْطَانِ، وَتَمُرُّ [١١/ب] وَتَلُوحُ لَهُ طَوَالِغُ نَجُومِ جُنُودِ الْعِرْفَانِ، وَهُوَ بِوَجُودِ النَّفْسِ فِي دَارِ الْغُرْبَةِ يَتَجَرَّعُ كَأْسَ الْهَجْرَانِ، يَتَنُّ تَحْتَ أَعْيَاءِ الْمُجَاهِدَةِ، وَلَا تُحْمَلُ عَنْهُ سَوَائِحُ الْمُشَاهَدَةِ، وَكَلَّمَا قَطَعَ مَنَازِلَ النَّفْسِ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ، لَا يَقْرُبُ مِنْ كَعْبَةِ الْوِصَالِ، وَلَا يُكْشَفُ لَهُ الْمُسْتَبَلُّ مِنَ الْحِجَابِ فَيَسْتَرِيحُ بِتَنْفُسِ الصُّعْدَاءِ، وَيَرْتَاحُ بِاللَّائِحِ مِنْ شِدَّةِ الْبُرْحَاءِ^(٢)، وَيَقُولُ مُخَاطِباً [الشَّيْطَانَ] وَالنَّفْسَ - وَهُمَا الْمَانِعَانِ - شِعْراً:

أَيَا جَبَلِي نَعْمَانٌ بِاللَّهِ خَلِيًّا	نَسِيمَ الصَّبَا يَخْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا
فَإِنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمَثْ	عَلَى قَلْبٍ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُهَا
اجْذُ بَرْدَهَا أَوْ تَشْفِ مِنِّي حَرَارَةً	عَلَى كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَمِيمُهَا
أَلَا إِنَّ أَدْوَانِي يَلِيلِي قَدِيمَةٌ	وَأَقْتُلُ دَاءَ الْعَاشِقِينَ قَدِيمُهَا

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ شَاهِينَ فِي «الْتَرغِيبِ» (رَقْم ١٥١)، وَالْقُضَاعِي فِي «مُسْنَدِ الشَّهَابِ» (رَقْم

١٦٩٢)، مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَابْنِ زَبَرٍ فِي «الْمُسْنَدِ» (رَقْم ٣٢٣١

مَعَ كَشْفِ الْأَسْتَارِ) مِنْ حَدِيثِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الْبُرْحَاءُ: تَعْنِي الشَّدَّةُ.

فصل

[في أدب زيارة الصالحين]

يَسْتَعِدُّ لِلِقَاءِ الْمَشَايخِ وَالزُّبَارَاتِ بِتَوْبِيرِ الْبَاطِنِ، فَإِذَا كَانَ بَاطِنُهُ مُنَوَّرًا؛
يَسْتَوْفِي حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مِنْ كُلِّ شَيْخٍ وَأَخٍ يَزُورُهُ.

وقد كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَنَا^(١) يُوصِي الْأَصْحَابَ وَيَقُولُ: لَا تُكَلِّمُ أَهْلَ هَذِهِ
الطَّرِيقِ إِلَّا فِي أَصْفَى أَوْقَاتِكَ.

وهذا فيه فائدة كبيرة؛ فَإِنَّ نُورَ الْكَلَامِ عَلَى قَدْرِ نُورِ الْقَلْبِ، وَنُورُ السَّمْعِ
عَلَى قَدْرِ [١/١٢] نُورِ الْقَلْبِ. انتهى.

فصل

[في تحقيق التوكل الباطن وترك التدبير]

إِذَا كَمَلَ شُغْلُ الصُّوفِيِّ بِاللَّهِ، وَكَمُلَ زُهْدُهُ بِكَمَالِ تَقْوَاهُ، يَحْكُمُ الْوَقْتُ
عَلَيْهِ بِتَرْكِ التَّسَبُّبِ، وَيَنْكَشِفُ لَهُ صَرِيحُ التَّوْحِيدِ وَصِحَّةُ الْكَفَالَةِ مِنَ اللَّهِ
الْكَرِيمِ، فَيَزُولُ عَنْ بَاطِنِهِ الْإِهْتِمَامُ بِالْأَقْسَامِ، وَيَكُونُ مَقْدَمَةً هَذَا أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُ
بَاطِنًا مِنَ التَّعْرِيفِ بِطَرِيقِ الْمُقَابَلَةِ [عَلَى كُلِّ فَعْلٍ] يَصْدُرُ فِيهِ، حَتَّى لَوْ جَرَى عَلَيْهِ
سَيْرٌ مِنْ ذَنْبٍ [بِحَسَبِ] حَالِهِ، أَوْ الذَّنْبِ مُطْلَقًا مِمَّا هُوَ مَنهِيٌّ عَنْهُ فِي الشَّرْعِ؛
يَجِدُ غَيْبَ ذَلِكَ فِي وَقْتِهِ أَوْ يَوْمِهِ.

فَلَا تَزَالُ بِهِ الْمُقَابَلَاتُ مُتَضَمِّنَةً بِالتَّعْرِيفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، حَتَّى يَتَحَصَّنَ بِصَدَقِ
الْمُحَاسَبَةِ وَصَفَاءِ الْمُرَاقَبَةِ عَنْ تَضْيِيعِ حَقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ، وَمُخَالَفَةِ حُكْمِ الْوَقْتِ،
وَيَتَجَرَّدَ لَهُ فَعْلُ اللَّهِ، وَيَتَمَحَيَّ عَنْهُ أَفْعَالُ غَيْرِ اللَّهِ؛ فَيَرَى الْمُعْطِيَّ وَالْمَانِعَ هُوَ

(١) (شيخنا): يعني به عمه أبا النجيب السهروردي.

اللَّهُ ذَوْقًا وَحَالًا، لَا عِلْمًا وَإِيمَانًا، ثُمَّ يَتَدَارَكُهُ الْحَقُّ بِالْمَعْرِفَةِ، وَيُوقِفُهُ عَلَى صَرِيحِ التَّوْحِيدِ، وَتَجَرِيدِ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى .

فَإِذَا وَقَفَ الْحَقُّ عَبْدَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، يُزِيلُ عَنْ بَاطِنِهِ الْاهْتِمَامَ بِالْأَقْسَامِ، وَيَرَى الدَّخُولَ فِي التَّسْبِيبِ وَالتَّكْسِبِ بِالشُّوَالِ وَغَيْرِهِ رُتَبَةَ الْعَوَامِ، وَيَصِيرُ مَسْلُوبَ الْإِخْتِيَارِ، غَيْرَ مُتَطَلِّعٍ إِلَى الْأَغْيَارِ، نَازِلًا إِلَى فِعْلِ اللَّهِ، مُنْتَظِرًا لِأَمْرِ اللَّهِ؛ فَتُسَاقُ إِلَيْهِ الْأَقْسَامُ، وَيُفْتَحُ عَلَيْهِ بَابُ الْإِنْعَامِ، [١٢/ب] وَيَكُونُ - بِدَوَامِ مِلَاحَظَتِهِ لِفِعْلِ اللَّهِ، وَتَرَصُّدِهِ مَا يَحْدُثُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ - مُكَاشِفًا، لَهُ تَجَلِّيَّاتٍ مِنْ اللَّهِ الْكَرِيمِ بِطَرِيقِ الْأَفْعَالِ، وَالتَّجَلِّيِ بِطَرِيقِ الْأَفْعَالِ رُتَبَةً فِي الْقُرْبِ، وَمِنْهُ يَتَرَقَّى بِطَرِيقِ الصِّفَاتِ، وَمِنْ ذَلِكَ يَتَرَقَّى إِلَى تَجَلِّيِ الذَّاتِ.

وَالْإِشَارَةُ فِي هَذِهِ التَّجَلِّيَّاتِ إِلَى رُتَبٍ فِي الْيَقِينِ، وَمَقَامَاتٍ فِي التَّوْحِيدِ، شَيْءٌ فَوْقَ شَيْءٍ، وَشَيْءٌ أَضْنَى مِنْ شَيْءٍ.

فَالْتَّجَلِّيِ بِطَرِيقِ الْأَفْعَالِ يُحْدِثُ صَفَوَ الزَّمَنِ وَالتَّسْلِيمَ، وَالتَّجَلِّيِ بِطَرِيقِ الصِّفَاتِ يُكْسِبُ الْهَيْبَةَ وَالْأُنْسَ، وَالتَّجَلِّيِ بِالذَّاتِ يُكْسِبُ الْفَنَاءَ وَالْبَقَاءَ.

وَقَدْ يُسَمَّى تَرْكُ الْإِخْتِيَارِ وَالْوُقُوفُ مَعَ فِعْلِ اللَّهِ: فَنَاءً، يَغْتَوْنَ بِهِ الْإِرَادَةَ وَالْهَوَى، وَالْإِرَادَةُ أُلُفُّ أَقْسَامِ الْهَوَى، وَهَذَا الْفَنَاءُ هُوَ الْفَنَاءُ الظَّاهِرُ، فَأَمَّا الْفَنَاءُ الْبَاطِنُ فَهُوَ: مَحْوُ آثَارِ الْوُجُودِ عِنْدَ لَمْعَانِ نُورِ الشُّهُودِ، يَكُونُ فِي تَجَلِّيِ الذَّاتِ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَقْسَامِ الْيَقِينِ فِي الدُّنْيَا، فَأَمَّا تَجَلِّيِ حُكْمِ الذَّاتِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ الْمَقَامُ الَّذِي حَظِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَمُنِعَ عَنْهُ مُوسَى بِ ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فَلْيُعْلَمَ أَنَّ قَوْلَنَا فِي التَّجَلِّيِ إِشَارَةً إِلَى رُتَبِ الْحَظِّ مِنَ الْيَقِينِ وَرُؤْيَةِ الْبَصِيرَةِ، فَإِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى مَبَادِيءِ أَقْسَامِ التَّجَلِّيِ، وَهُوَ مُطَالَعَةُ [١٣/ب] الْفِعْلِ الْإِلَهِيِّ مُجَرَّدًا عَنْ فِعْلِ مَا سِوَى اللَّهِ، يَكُونُ تَنَاوُلُهُ الْأَقْسَامَ مِنَ الْفُتُوحِ.

فصل

سُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسَيْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ عِلْمِ الْحَالِ؟ قَالَ: هُوَ تَرْكُ التَّدْبِيرِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي وَاحِدٍ لَكَانَ مِنْ أَوْتَادِ الْأَرْضِ. وَمِنْ أَهْلِ الْفُتُوحِ مَنْ يَأْخُذُ غَيْرَ مُتَطَلِّعٍ إِلَى تَقْدُمِ الْعِلْمِ حَيْثُ تَجَرَّدَ لَهُ الْفِعْلُ، وَمَنْ لَا يَنْتَظِرُ تَقْدِيمَ الْعِلْمِ فَوْقَ مَنْ يَنْتَظِرُ تَقْدِيمَ الْعِلْمِ؛ لِتِمَامِ صِحَّتِهِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَانْسِلَاجِهِ مِنْ إِرَادَتِهِ وَعِلْمِ حَالِهِ فِي تَرْكِ الْإِخْتِيَارِ.

قَالَ الْوَاسِطِيُّ: الْإِفْتِقَارُ إِلَى اللَّهِ أَعْلَى دَرَجَةِ الْمُرِيدِينَ، وَالِاسْتِغْنَاءُ بِاللَّهِ أَعْلَى دَرَجَةِ الصَّادِقِينَ.

فصل

الْعَبْدُ إِذَا صَحَّ حَالُهُ مَعَ اللَّهِ، وَأَفْنَى هَوَاهُ مُتَطَلِّباً رِضَا اللَّهَ، يَرْفَعُ اللَّهُ عَنْ بَاطِنِهِ هُمُومَ الدُّنْيَا، وَيَجْعَلُ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الرِّفْقِ، وَكُلَّ الْهَمُومِ الْمُتَسَلِّطَةِ عَلَى بَعْضِ الْفُقَرَاءِ؛ لَكُونَ قُلُوبِهِمْ مَا اسْتَكَمَلَتِ الشُّغْلَ بِاللَّهِ، وَالِاهْتِمَامَ بِرِعَايَةِ حَقَائِقِ الْعُبُودِيَّةِ.

فَعَلَى قَدْرِ مَا خَلَتْ مِنْ هَمِّ اللَّهِ مَا عُذِّبَتْ بِهِمُومُ الدُّنْيَا وَوَقَفَتْ وَارْتَفَعَتْ.

فصل

الْمَعْلُومُ إِذَا أَقَامَهُ الْحَقُّ لِلنَّظَرِ إِلَى اللَّهِ، الْكَامِلِ تَوْحِيدُهُ، يَكُونُ نِعْمَةً هَنِئِيَّةً.

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الشَّيْخِ أَبِي الشُّعُودِ، وَكَانَ مِنْ أَرْبَابِ الْأَحْوَالِ السَّيِّئَةِ وَالْوَاقِفِينَ فِي الْأَشْيَاءِ مَعَ فِعْلِ اللَّهِ، مُتَمَكِّنًا فِي حَالِهِ، تَارِكًا لِإِخْتِيَارِهِ، لَعَلَّهُ سَبَقَ [١٣/ب] كَثِيرًا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي تَحْقِيقِ تَرْكِ الْإِخْتِيَارِ، رَأَيْنَا مِنْهُ وَشَاهَدْنَا أَحْوَالَ صَحِيحَةً عَنْ قُوَّةٍ وَتَمَكِّينٍ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَرِيدُ أَنْ أُعَيِّنَ لَكَ شَيْئًا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ

الْخُبْرِ أَحْمِلُهُ إِلَيْكَ، وَلَكِنِّي قُلْتُ: الصُّوفِيَّةُ يَقُولُونَ: الْمَعْلُومُ شُؤْمٌ، قَالَ الشَّيْخُ: نَحْنُ مَا نَقُولُ: الْمَعْلُومُ شُؤْمٌ، فَإِنَّ الْحَقَّ يَصْنَعُ لَنَا، وَفِعْلُهُ نَرَى، وَكُلُّ مَا يَقْسَمُ لَنَا نَرَاهُ مُبَارَكًا، وَلَا نَرَاهُ مَشْهُومًا.

فصل

[في فضيلةِ عِلْمِ الْحَقَائِقِ]

قَالَ شَيْخُنَا: النَّادِبُ بِآدَابِ الرُّوحَانِيِّينَ: حَبَسُ الشُّفُوسِ عَنْ تَقَاضِي جِبَلَاتِهَا، وَقَمْعُهَا بِصَرِيحِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ إِلَّا لِمَنْ عَلِمَ وَقُرُبَ، وَنَظَرَ إِلَى الْحُضُورِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، فَيَتَحَفَّظُ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ.

وَقَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ عَالِمًا بِاللَّهِ، ذَا يَقِينٍ كَامِلٍ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ. وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَ مِنْ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ بِحَقَائِقِ الْيَقِينِ وَدَقَائِقِ الْمَعْرِفَةِ، [وَقَدْ كَانَ عُلَمَاءُ التَّابِعِينَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَقْوَمُ بِعِلْمِ الْفَتَوَى وَالْأَحْكَامِ مِنْ بَعْضِهِمْ، رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ يَقُولُ: سَلُوا سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ. فَكَانُوا يَرُدُّونَ النَّاسَ إِلَيْهِمْ فِي عِلْمِ الْفَتَوَى وَالْأَحْكَامِ، وَيُعَلِّمُونَهُمْ حَقَائِقَ الْيَقِينِ وَدَقَائِقَ الْمَعْرِفَةِ]؛ وَكَانُوا أَقْوَمَ بِذَلِكَ مِنَ التَّابِعِينَ، صَادَقْتَهُمْ طَرَاوَةُ الْوَحْيِ الْمَنْزَلِ، وَغَمَرَهُمْ غَزِيرُ الْعِلْمِ: الْمُجْمَلُ وَالْمُفَصَّلُ، فَتَلَقَّى طَائِفَةً مِنْهُمْ مَجْمَلُهُ دُونَ مُفَصَّلِهِ. وَالْمَجْمَلُ أَصْلُ الْعِلْمِ وَمُطْلَقُهُ، الْمُكْتَسَبُ بِطَهَارَةِ الْقُلُوبِ، وَقُوَّةِ الْغَرِيزَةِ، وَكَمَالِ الْإِسْتِعْدَادِ، وَهُوَ خَاصٌّ بِالْخَوَاصِّ.

فصل

[في إجابة الدعوةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨] فَاجَابَةُ الصُّوفِيَّةِ إِلَى الدَّعْوَةِ إجابةُ الْمُحِبِّ لِلْمَحْبُوبِ عَلَى اللَّذَازَةِ وَذَهَابِ

العسر، وإجابة غيرهم على المكابدة والمجاهدة، وهذه [١/١٤] الإجابة يظهر مع الساعات أثرها في القيام بحقائق الاستقامة والعبودية. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ٧].

قال بعضهم: ﴿أَعْطَى﴾ الدارين ولم ير شيئاً، ﴿وَاتَّقَى﴾ اللغو والشبهات، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾: أقام على طلب الزلفى. قيل: نزلت الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ويلوح في الآية وجه آخر: وهو: ﴿أَعْطَى﴾ بالمواظبة على الطاعة، ﴿وَاتَّقَى﴾ الوسواس والهواجس، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾: لازم الباطن بتصفية موارد الشهوات عن مزاحمة لوث الوجود، ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾: نفتح عليه باب السهولة في العمل والعيش والأنس.

فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة إلى الله ظاهراً وباطناً؛ كان حظهم من العلم أوفر، ونصيبهم في المعرفة أكمل، فكانت أعمالهم أزكى وأفضل، فكان اليقين أفضل العلم، لأنه أدعى إلى العمل، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية، وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية، وكمال الحظ من اليقين والعلم بالله: للصوفية والعلماء الزاهدين، فبان بذلك فضلهم وفضل علمهم. انتهى.

فصل

[في تواضع أهل التصوف]

الصوفي العالم الزاهد لا يميز نفسه بشيء دون المسلمين، ولا يرى نفسه في مقام تمييز يميزها بمجلس مخصوص مميّز، [١٤/ب] ولو تقدّم وترفع عليه غيره [لا] يتنقص من ذلك، ويرى النفس وظهورها وأن هذا داء، وأنه

[إذا] استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وانعصارها صار ذلك ذنب حاله، ويرفع في الحال داءه إلى الله، ويشكور إليه ظهور نفسه، ويحسن الإنابة، [ويقطع] دابر ظهور النفس، ويرفع القلب إلى الله مستغيثاً من النفس، ويشغله اشتغاله بروية داء النفس في طلب دوائها عن المنكر فيمن قعد فوقه، وربما أقبل عليه بمزيد التواضع والانكسار، تكفيراً لذنبه الموجود، وتداوياً لدائه الحاصل.

وهذا من أوائل علوم الصوفية، فما ظنك بنفائس علومهم وشريف أحوالهم؟ انتهى.

فصل

[في مجانية الصوفية للغش والحسد]

قال أنس بن مالك: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ، إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتَمْشِيَ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فافْعَلْ، وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيَانِي، وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ»^(١)، وَهَذَا أَتَمُّ شَرَفًا وَأَكْمَلُ فَضْلًا، أَخْبَرَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَقِّ مَنْ أَحْيَا سُنَّتَهُ.

والصوفية هم الذين أحيوا السنة. وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم، وبذلك ظهر جوهرهم، [١٥/١] وبأن فضلهم، وإنما قدروا على إحياء السنة، ونهضوا بواجب حقها، لزهدهم في الدنيا، وتركها على أربابها وطلابها، لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا والرفعة عند الناس.

والصوفية زهدوا في ذلك كله، كما قال بعضهم: طريقتنا هذه لا تصلح

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع»، كتاب العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، (رقم ٢٦٧٨)، بسند ضعيف.

إلا لأقوام كُنِسَتْ بأرواحِهِمُ الْمَزَايِلُ . إشارة إلى غَايَةِ التَّوَاضُّعِ ، وأن لا يَرَى نَفْسَهُ يَتَمَيَّزُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِحَقَارَتِهِ عِنْدَ نَفْسِهِ ، وَعِنْدَ هَذَا يَسُدُّ بَابَ الْغِيْشِ وَالْغِلِّ .

وقيلَ : الْمَزَايِلُ : إشارة إلى الثُّفُوسِ ، لأنها مأوئ كلِّ رَجَسٍ وَنَجَسٍ ، وَكُنُسُهَا بنورِ الرُّوحِ الْوَاصِلِ إِلَيْهَا ؛ لِأَنَّ الصُّوفِيَّةَ أرواحُهُمْ فِي مَجَالِ الْقُرْبِ ، وَنورُهَا سَرَى إِلَى الثُّفُوسِ ، وبوصلِ نورِ الرُّوحِ إِلَى النَّفْسِ تَطْمِثُ الثُّفُوسَ ، وَيَذْهَبُ عَنْهَا الْمَذْمُومُ مِنَ الْغِلِّ وَالْغِيْشِ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ ، فَكَأَنَّمَا تُكْنَسُ .

فصل

قوله تعالى في وصف أهل الجنة : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] .

قال أبو جعفر^(١) : كَيْفَ يَبْقَى الْغِلُّ فِي قُلُوبٍ اتَّخَلَّفَتْ بِاللَّهِ ، وَاتَّفَقَتْ مَحَبَّةً لِلَّهِ ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَى مَوَدَّةٍ ، وَأُنِسَتْ بِذِكْرِهِ ؟ إِنَّ تِلْكَ قُلُوبٌ صَافِيَةٌ مِنْ هَوَاجِسِ الثُّفُوسِ وَظُلُمَاتِ الطَّبَائِعِ ، بَلْ كُحِلَتْ بِنُورِ التَّوْفِيقِ ، فَصَارَتْ إِخْوَانًا .

فصل

[في أن الصوفية هم أهل الاتِّباع]

الْخَلْقُ حِجَابُهُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِأَحْيَاءِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا وَفِعْلًا وَحَالًا : صِفَاتُ نَفُوسِهِمْ ، فَإِذَا تَبَدَّلَتْ نُعُوتُ الثُّفُوسِ [١٥/ب] ارْتَفَعَ الْحِجَابُ ،

(١) أبو جعفر : محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، سَمِيَ بِأَقْرَأَ لِأَنَّهُ بَقَرَ الْعِلْمَ أَي : شَقَّهُ ، فَعَرَفَ أَصْلَهُ وَحَقِيقَتَهُ ، كَانَ يَقُولُ : مَا مِنْ عِبَادَةٍ أَفْضَلَ مِنْ عَفَّةٍ بَطْنٍ أَوْ فَرْجٍ ، تَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سِتَّةَ سَبْعٍ عَشْرَةَ وَمِثَّةً . انظر : «الطبقات الكبرى» للشعراني (١ : ٩٠) .

وَصَحَّتِ الْمُتَابَعَةُ، وَوَقَعَتِ الْمُرَافَقَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَجَبَتْ
الْمَحَبَّةُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ.

وَالصُّوفِيَّةُ — مِنْ بَيْنِ طَوَائِفِ الْإِسْلَامِ — ظَفِرُوا بِحُسْنِ الْمُتَابَعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ
اتَّبَعُوا أَقْوَالَ، فَقَامُوا بِمَا أَمَرَهُمْ، وَوَقَفُوا عَمَّا نَهَاهُمْ، ثُمَّ اتَّبَعُوهُ فِي أَعْمَالِهِ مِنْ
الْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّهَجُّدِ وَالتَّوَافِلِ: مِنَ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ،
وَرَزَقُوا — بِبِرْكَةِ الْمُتَابَعَةِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ — التَّخَلُّقَ بِأَخْلَاقِهِ: مِنَ الْحَيَاءِ
وَالْحِلْمِ، وَالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ، وَالرَّأْفَةِ وَالشَّفَقَةِ، وَالْمُدَارَاةِ وَالنَّصِيحَةِ وَالتَّوَاضُّعِ،
وَرَزَقُوا قِسْطاً مِنْ أَحْوَالِهِ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالسَّكِينَةِ، وَالْهَيْبَةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَالرِّضَا
وَالصَّبْرِ، وَالزُّهْدِ وَالتَّوَكُّلِ؛ فَاسْتَوْفَوْا جَمِيعَ أَقْسَامِ الْمُتَابَعَةِ، وَأَخْيَرُوا سُنَّتَهُ
بِأَقْصَى الْغَايَاتِ.

[قِيلَ لِعَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ^(١): مَنِ الصُّوفِيَّةُ عِنْدَكَ؟ قَالَ]: الْقَائِمُونَ
بِعُقُولِهِمْ عَلَى هِمَمِهِمْ، وَالْعَاكِفُونَ عَلَيْهَا بِقُلُوبِهِمْ، وَالْمُعْتَصِمُونَ بِسَيِّدِهِمْ مِنْ
شَرِّ نَفْسِهِمْ.

فصل

[فِي مَاهِيَةِ التَّصَوُّفِ وَعِلَامَاتِ الصُّوفِيَّاتِ]

الصُّوفِيُّ مُتَّهِمٌ لِنَفْسِهِ، مُسْتَقِيلٌ لِعِلْمِهِ، غَيْرُ رَاكِنٍ إِلَى مَعْلُومِهِ، قَائِمٌ
بِمَرَادِ رَبِّهِ لَا بِمَرَادِ نَفْسِهِ.

(١) عبد الواحد بن زيد: أدرك الحسن البصري وغيره. كان يقول: مثل المؤمن مثل الولد
في الرحم: لا يحب الخروج، فإذا خرج لم يحب أن يرجع. قيل: إنه صلى الغداة
بوضوء العشاء أربعين سنة. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٣٩).

قَالَ ذُو الثُّونِ: الصُّوفِيُّ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ^(١) طَلَبُ، وَلَا يُزْعِجُهُ سَلَبُ. وَقَالَ
أَيْضاً: الصُّوفِيَّةُ آثَرُوا اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَأَثَرَهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَكَانَ مِنْ
إِثَارِهِمْ أَنْ آثَرُوا عِلْمَ اللَّهِ عَلَى عِلْمِ نَفْسِهِمْ، وَإِرَادَةَ اللَّهِ عَلَى إِرَادَةِ نَفْسِهِمْ.

وَالصُّوفِيُّ هُوَ الْمُسْتَيِّنُ الْأَحْسَنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بِصِدْقِ الْإِلْتِجَاءِ بِهِ،
وَحُسْنِ الْإِنَابَةِ، وَحِظِّ قُرْبِهِ مِنْ مُحَادَثَتِهِ وَمُكَالَمَتِهِ [١/١٦]. قَالَ رُوَيْسٌ^(٢):
التَّصَوُّفُ: اسْتِرْسَالُ النَّفْسِ [مَعَ اللَّهِ تَعَالَى] عَلَى مَا يُرِيدُ. وَقَالَ عَمْرُو بْنُ
عُثْمَانَ الْمَكِّي^(٣): التَّصَوُّفُ: أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مُسْتَغَلًّا بِمَا هُوَ أَوْلَى
فِي الْوَقْتِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوَّلُ التَّصَوُّفِ عِلْمُ، وَأَوْسَطُهُ عَمَلٌ، وَآخِرُهُ مَوْهَبَةٌ
مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقِيلَ: التَّصَوُّفُ: تَرْكُ التَّصَرُّفِ، وَبِذَلِ الرُّوحِ. وَقَالَ الْجُنَيْدُ: الصُّوفِيُّ
كَالْأَرْضِ: يُطْرَحُ عَلَيْهَا كُلُّ قَبِيحٍ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كُلُّ مَلِيحٍ، وَكَالْأَرْضِ يَطْوُهَا الْبَرُّ
وَالْفَاجِرُ، وَكَالسَّحَابِ يُظَلُّ كُلُّ شَيْءٍ، وَكَالْمَطَرِ يَسْقِي. وَنَذَكَرُ ضَائِبَةً؛ فَتَقُولُ:

(١) فِي «الْعَوَارِفِ»: يُتَعَبُ.

(٢) رُوَيْسٌ: بَنُ أَحْمَدَ بْنِ يَزِيدَ الْبَغْدَادِيِّ، وَيَكْنَى: أَبَا مُحَمَّدٍ، وَقَدْ حَدَّثَ عَنْ لَيْثِ بْنِ سَعْدٍ
وغيره، كَانَ فَقِيهًا عَلَى مَذْهَبِ دَاوُدَ الظَّاهِرِيِّ، وَكَانَ مُقَرَّبًا عَلَى إِدْرِيسَ بْنِ
عَبْدِ الْكَرِيمِ الْحَدَّادِ. تَوَفَّى سَنَةَ ٣٠٣ هـ، وَكَانَ يَقُولُ: مِنْ حَكَمِ الْحَكِيمِ أَنْ يَوْسَعَ عَلَى
إِخْوَانِهِ فِي الْأَحْكَامِ، وَيَضَيِّقَ عَلَى نَفْسِهِ فِيهَا؛ فَإِنَّ التَّوَسُّعَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُ الْعِلْمِ،
وَالتَّضْيِيقَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ حَكَمِ الْوَرَعِ. انْظُرْ تَرْجُمَتَهُ فِي: «طَبَقَاتِ الصُّوفِيَّةِ» لِلْسَّلْمِيِّ
ص ١٨٠، «حَلِيَّةِ الْأَوْلِيَاءِ» لِأَبِي نَعِيمٍ (١٠: ٢٩٦).

(٣) عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ الْمَكِّي: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، صَاحِبُ الْجُنَيْدِ، وَلَقِيَ النَّاجِيَّ وَأَبَا سَعِيدِ
الْخِرَازِ وَغَيْرَهُمَا، كَانَ شَيْخَ الْقَوْمِ فِي وَقْتِهِ، وَإِمَامَ الطَّائِفَةِ فِي الْأَصُولِ وَالطَّرِيقَةِ، وَلَهُ
كَلَامٌ حَسَنٌ، رَوَى عَنِ الْبَخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، وَتَوَفَّى سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَمِثْنِينَ. انْظُرْ:
«الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى» لِلشَّعْرَانِيِّ (١: ١٩٨).

الصُّوفِيُّ يَكُونُ دَائِمَ التَّصْفِيَةِ، لَا يَزَالُ يُصَفِّي الْأَوْقَاتِ عَنْ شَوْبِ الْأَكْدَارِ؛
بتصفية القلبِ عَنْ شَوْبِ النَّفْسِ، وَيُعِينُهُ عَلَى هَذِهِ التَّصْفِيَةِ دَوَامُ افْتِقَارِهِ إِلَى
مَوْلَاهُ، فِدَوَامُ الْافْتِقَارِ يَنْفُطِنُ لِلْكَدَرِ، وَكَلَّمَا تَحَرَّكَتِ النَّفْسُ وَظَهَرَتْ صِفَاتُهَا،
أَدْرَكَهَا بِبَصِيرَتِهِ النَّافِذَةِ، وَفَرَّ مِنْهَا إِلَى رَبِّهِ، فِدَوَامُ تَصْفِيَتِهِ: جَمْعِيَّةٌ،
[وَبِحَرَكَةِ نَفْسِهِ:] تَفْرِقَتُهُ وَكَدَرُهُ، فَهُوَ قَائِمٌ بِرَبِّهِ عَلَى قَلْبِهِ، وَقَائِمٌ بِقَلْبِهِ عَلَى
نَفْسِهِ، وَهَذِهِ الْقَوَامِيَّةُ عَلَى النَّفْسِ هِيَ التَّحَقُّقُ بِالتَّصَوُّفِ.

وَلَا بُدَّ لِلصُّوفِيِّ مِنْ دَوَامِ الْحَرَكَةِ بِدَوَامِ الْافْتِقَارِ، وَدَوَامِ الْفِرَارِ، وَحُسْنِ
التَّفَقُّدِ لِمَوَاقِعِ إصَابَاتِ الشُّفُوسِ. وَمَنْ وَقَفَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ يَجِدُ فِي
الصُّوفِيِّ جَمِيعَ الْمُتَفَرِّقِ فِي الْإِشَارَاتِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: صِدْقُ الْإِخْلَاصِ: نِسْيَانُ
رُؤْيَا الْخَلْقِ، بِدَوَامِ النَّظَرِ [ب/١٦] إِلَى الْحَقِّ. فَالْمَلَامَتِي وَإِنْ كَانَ مُتَمَسِّكاً
بَعُورَةِ الْإِخْلَاصِ، مُسْتَفْرِشاً بِسَاطِ الصَّدْقِ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ بَقِيَّةُ رُؤْيَا الْخَلْقِ
وَالصَّدْقِ. وَالصُّوفِيُّ صَفَا عَنْ هَذِهِ الْبَقِيَّةِ فِي طَرَفِي الْعَمَلِ وَالتَّرَكِّ لِلْخَلْقِ،
وَعَزَلَهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ، وَرَأَاهُمْ بَعِينَ الْفَنَاءِ وَالزَّوَالِ، وَلَا حَ لَهُ نَاصِيَةُ التَّوْحِيدِ،
وَعَايَنَ سِرَّهُ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [النقص: ٨٨].

الصُّوفِيُّ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوْضِعَهَا، وَيُدَبِّرُ الْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالَ كُلَّهَا بِالْعِلْمِ،
يَقِيمُ الْخَلْقَ مَقَامَهُمْ، وَيَقِيمُ الْحَقَّ مَقَامَهُ، وَيَسْتُرُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَرَ، وَيُظْهِرُ مَا
يَنْبَغِي أَنْ يُظْهِرَ، وَيَأْتِي بِالْأُمُورِ فِي مَوْضِعِهَا، بِحَضُورِ عَقْلٍ، وَصِحَّةِ تَوْحِيدِ،
وَكَمَالِ مَعْرِفَةٍ، وَرِعَايَةِ صَدْقٍ وَإِخْلَاصٍ.

فصل

[فِي أَنَّ الظَّاهِرَ دَلِيلُ الْبَاطِنِ]

الشَّرِيعَةُ: حَقُّ الْعِبُودِيَّةِ، وَالْحَقِيقَةُ: حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ، وَمَنْ صَارَ مِنْ
أَهْلِ الْحَقِيقَةِ تَقَيَّدَ بِحَقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ وَحَقِيقَةِ الْعُبُودِيَّةِ، وَصَارَ مُطَالِباً بِأُمُورِ

وزيادات لا يُطالبُ بها مَنْ لم يصلِ إلى ذلك؛ لا أنه يخلعُ عن عُنُقِهِ رُتَبَةَ التكليف! ويخامرُ باطنَهُ الزَّيغُ والتَّحريفُ!

عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه يقول: إِنَّ أناساً كانوا يأخذونَ بالوحيِ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنَّ الوحيَ قد انقطعَ، وإنَّما نأخذُكمُ الآنَ بما ظهرَ مِن أعمالِكُم، فَمَنْ أظهِرَ لنا خيراً أمَّناً وقَرَبَناهُ، وليسَ لنا مِن سَريرَتِهِ شيءٌ، اللهُ يُحاسِبُهُ في سَريرَتِهِ، وَمَنْ أظهِرَ لنا سِوَى ذلكَ لَمْ نَأْمَنهُ [١/١٧] وإنَّ قالَ: سريرتي حسنة.

فصلٌ

[في رُتَبَةِ المَشِيخَةِ]

وَرَدَ عن رسولِ اللهِ ﷺ: «والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده، لئن شِئْتُ لأقسِمَنَّ لَكُمْ، إِنَّ أَحَبَّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهُ إلى عِبَادِهِ، وَيُحِبُّونَ عِبَادَ اللهِ إلى اللهِ، وَيَمْشُونَ على الأَرْضِ بالنَّصِيحَةِ»^(١).

وهذا الذي ذكرَهُ النَّبِيُّ ﷺ هو: رُتَبَةُ المَشِيخَةِ والدَّعْوَةُ إلى اللهِ؛ لأنَّ الشَّيْخَ يُحِبُّ اللهُ إلى عِبَادِهِ حَقِيقَةً، وَيُحِبُّ عِبَادَ اللهِ إلى اللهِ شَرِيعَةً. وَرُتَبَةُ المَشِيخَةِ هِيَ مِن أَعْلَى الرُّتَبِ في طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ، وَنِيَابَةُ النُّبُوَّةِ في الدُّعَاءِ إلى اللهِ.

يَسْلُكُ الشَّيْخُ بالمَرِيدِ طَرِيقَ التَّزَكِّيَةِ والتَّخْلِيةِ، وإذا تَزَكَّتِ النَّفْسُ انجَلَتْ مِرَاةُ القَلْبِ، وانعكسَ فيه أنوارُ العَظَمَةِ الإِلَهِيَّةِ، ولاحَ فيه جَمالُ التَّوْحِيدِ، وانجذبتْ أحداقُ البَصِيرَةِ إلى مُطالَعَةِ أنوارِ جَلالِ القَدَمِ، ورؤيةِ الكَمالِ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الأولياء» (رقم ٣٦)، وأبو الشيخ في «كتاب التوبيخ»

(رقم ١٤) من حديث الحسن البصري مرسلاً.

الآزلي، فأحبَّ العبدُ ربَّه لا محالة، وذلك ميراثُ التزكية. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشعر: ٩]، وفلاحُها: بالظفرِ بمعرفةِ الله.

وأيضاً، فإنَّ مرآةَ القلبِ إذا انجَلَّتْ لاحتَ فيها الدُّنيا بقبُحِها وحقيقتِها وماهِيَّتِها، ولاحتَ فيها الآخرةُ ونفَاسَتُها وغايَتُها؛ فينكشفُ للسَّريرةِ حقيقةُ الدَّارينِ، وحاصلُ المَترَليْنِ، فيحبُّ العبدُ الباقي ويَزهدُ في الفاني، فتظهرُ فائدةُ التزكية، وجَدوى المَسيخَةِ والتَّريبةِ، فعلى المشايخِ وقارُ الله، فهمُ أَهلُوا للاقتداءِ بِهِمْ، وجُعِلُوا [١٧/ب] أئمةَ المُتقين.

فصل

[في دوام الافتقار إلى الله تعالى]

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْاِفْتِقَارِ إِلَى مَوْلَاهُ حَتَّى يَقُولَ: «لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ، أَكِلَانِي كِلَاءَةَ الْوَلِيدِ»^(١).

وَمِنْ أَشْرَفِ مَا ظَفَرَ بِهِ الصُّوفِيُّ مِنْ مَتَابَعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: دَوَامُ الْاِفْتِقَارِ وَالِاتِّجَاءِ، وَلَا يَتَحَقَّقُ بِهَذَا الْوَصْفِ مِنْ صِدْقِ الْاِفْتِقَارِ إِلَّا عَبْدٌ كَوَشَفَ بَاطِنُهُ بِصَفَاءِ الْمَعْرِفَةِ، وَأَشْرَقَ صَدْرُهُ بِنُورِ الْيَقِينِ، وَخَلَصَ قَلْبُهُ إِلَى بَسَاطَةِ الْقُرْبِ، وَخَلَا سِرُّهُ بِلَذِيذِ الْمُسَامَرَةِ؛ فَبَقِيَتْ نَفْسُهُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أُسِيرَةً مَأْمُورَةً، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ بَرَاهَا مَاوِي كُلِّ شَرٍّ، وَهِيَ بِمَثَابَةِ النَّارِ: لَوْ بَقِيَتْ مِنْهَا شَرَارَةٌ أَحْرَقَتْ عَالَمًا، وَهِيَ وَشِيكَةُ الرُّجُوعِ، سَرِيعَةُ الْاِنْقِلَابِ وَالْاِنْفِلَاتِ، فَاللَّهُ تَعَالَى لِكَمَالِ لُطْفِهِ عَرَفَهَا الصُّوفِيَّةَ وَكَشَفَهَا لَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَعْنَى مَا كَشَفَهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهوَ دَائِمُ الْاِسْتِغَاثَةِ إِلَى مَوْلَاهُ مِنْ شَرِّهَا، فَكَأَنَّهَا جُعِلَتْ سَوَطًا

(١) رواه البزار في «المسند» (رقم ٣١٩٠ مع كشف الأستار)، وفي إسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي: متروك. قاله البيهقي في «المجمع» (١٠: ١٨١).

للعبد، تَسُوْفُه معرفته بِشْرُها مَعَ اللَّحْظَاتِ إِلَى جَنَابِ الْإِلْتِجَاءِ، وَصِدْقِ الْإِفْتِقَارِ وَالِدُّعَاءِ، فَلَا يَخْلُو الصُّوْفِيُّ عَنْ مُطَالَعَتِهَا أَدْنَى سَاعَةٍ، كَمَا لَا يَخْلُو عَنْ رَبِّهِ أَدْنَى سَاعَةٍ، وَرَبِطُ مَعْرِفَتِهَا بِمَعْرِفَتِهِ، كَرَبِطُ مَعْرِفَةِ اللَّيْلِ بِمَعْرِفَةِ النَّهَارِ.

وَمَنْ الَّذِي يَقُومُ بِإِحْيَاءِ هَذِهِ السُّنَّةِ مِنْ سُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ الصُّوْفِيِّ الْعَالِمِ بِاللَّهِ [١/١٨] الزَّاهِدِ فِي الدُّنْيَا، الْمُتَمَسِّكِ مِنَ التَّقْوَى بِأَوْثِقِ الْعُرَى؟! وَمَنْ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَى فَائِدَةِ هَذَا الْحَالِ غَيْرُ الصُّوْفِيِّ؟! قَدَوَامُ افْتِقَارِهِ إِلَى رَبِّهِ تَمَسُّكُ بِجَنَابِ الْحَقِّ وَلِيَاذُّ بِهِ، وَفِي هَذَا اللَّيَازِ اسْتِغْرَاقُ الرُّوحِ وَاسْتِثْبَاعُهُ الْقَلْبَ إِلَى مَحَلِّ الدُّعَاءِ، وَفِي انْجَذَابِ الْقَلْبِ إِلَى مَحَلِّ الدُّعَاءِ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْكَوْنِ فِيهِ نُبُوُ النَّفْسِ عَنْ مُسْتَقَرِّهَا مِنَ الْأَقْسَامِ الْعَاجِلَةِ، وَتُزُولُهَا إِلَيْهَا فِي مَدَرَجِ الْعِلْمِ، مُحْفُوفَةً بِحِرَاسَةِ اللَّهِ وَرِعَايَتِهِ، وَالنَّفْسُ الْمُدَبَّرَةُ بِهَذَا التَّدْبِيرِ مِنْ حُسْنِ تَدْبِيرِ اللَّهِ، مَأْمُونَةٌ الْغَائِلَةِ مِنَ الْغِلِّ وَالْغِشِّ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَسَائِرِ الْمَذْمُومَاتِ، فَهَذَا حَالُ الصُّوْفِيِّ.

فصل

[الصُّوْفِيَّةُ صِنْفَانِ: مُرَادُونَ، وَمُرِيدُونَ]

وَالْمَحْبُوبُ الْمُرَادُ يُبَادِيهِ الْحَقُّ بِمِنْحِهِ وَمَوَاهِبِهِ، مِنْ غَيْرِ سَابِقَةٍ كَسَبَ مِنْهُ، تَسْبِقُ كَشُوفَهُ اجْتِهَادَهُ، وَفِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَخَذَ بَطَانَةٌ مِنَ الصُّوْفِيَّةِ، وَرَفَعَتِ الْحُجُبَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَبَادَاهُمْ سَطُوعُ نَوْرِ الْيَقِينِ؛ فَأَثَارَ نَازِلِ الْحَالِ فِيهِمْ شَهْوَةُ الْجَهْدِ وَالْأَعْمَالِ، فَأَقْبَلُوا عَلَى الْأَعْمَالِ بِاللَّذَّةِ، وَالْعَيْشِ فِيهَا قُرَّةَ أَعْيُنِهِمْ، فَسَهَّلَ الْكَشْفُ عَلَيْهِمُ الْجَهْدَ.

قال أبو سعيد الخزاز^(١): المرادون هم أهل الخاصة تولاهم الله، وأكمل لهم النعمة، وهياً لهم الكرامة، فأسقط عنهم حركات الطلب، فصارت [١٨/ب] حركاتهم في العمل والخدمة على الألف والذكر، والتنعم بمناجاته، والانفراد بقربه، والمراد محمول في حاله، معان على حركاته وسعيه في الخدمة، مكفي مصون عن الشواهد والنواظر.

والمريدون طولبوا بالاجتهاد أولاً قبل الكشوف. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] يدرجهم الله في مدارج الكسب، بأنواع الرياضات والمجاهدات، وسهر الدباجير وظم الهواجر، تتأجج فيهم نيران الطلب، وتنحجب دونهم لوامع الأرب، يتقلبون في رمضاء الإرادة، ويتخلفون عن كل مألوف وعادة، وهي الإنابة التي شرطها الله لهم، وجعل الهداية مقرونة بها.

وهذه الهداية أيضاً هداية خاصة؛ لأنها هداية الله إليه، غير الهداية العامة، التي هي: التهدي إلى أمره ونهيه بمقتضى المعرفة الأولى، وهذا حال السالك المحب المريد، فكانت الإنابة عين الهداية العامة، فأثمرت هداية خاصة، واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات: من مضيق العسر إلى فضاء اليسر، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى رَوْح الأحوال، فسبق اجتهادهم كشوفهم، والمرادون يسبق كشوفهم اجتهادهم.

(١) أبو سعيد: أحمد بن عيسى الخزاز، من أهل بغداد، صاحب ذا النون المصري، وسرياً السقطي، وبشراً الحافي، وغيرهم، وهو من أئمة القوم وجلة المشايخ، قيل: إنه أول من تكلم في الفناء والبقاء، توفي رضي الله عنه سنة تسع وسبعين وميتين. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٢٠٣).

فصل

[حقيقة التصوف والإرادة]

قال الجنيد: ما أخذنا التصوف من القليل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات.

وقال ابن خفيف^(١): الإرادة: سُمُو القلب بطلب المراد، وحقيقتها [١٩/أ] استدامة الجِدِّ وترك الرَّاحَةِ. وقال أبو عثمان^(٢): المرید: الذي مات قلبه عن كل شيء دون الله، فيريد الله وحده، ويريد قربة شوقاً، ويشتاق إليه حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه شوقاً إلى ربه. وقال الجنيد: التصوف: أن يكون مع الله بلا علاقة. وقال معروف الكرخي^(٣): التصوف: الأخذ

(١) ابن خفيف: هو أبو عبد الله محمد بن خفيف، المقيم بشيراز، كانت أمه نيسابورية، وكان شيخ المشايخ في وقته، صاحب رويماً، والجريسي، وأبا العباس بن عطاء وغيرهم، وتوفي رحمه الله سنة ٣٧١هـ، كان يقول: الإيمان: تصديق القلب بما أعلمه الحق من الغيوب، ويقول: الخوف: اضطراب القلوب بما علمت من سطوة المعبود، انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٤٦٢، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ٣٨٥).

(٢) أبو عثمان المغربي: هو سعيد بن سلام، من القبروان من قرية يقال لها: «كره كنت» على ساحل البحر في جزيرة صقلية، صاحب أبا علي الكاتب، وأبا عمرو الزجاجي، وأبا يعقوب النهرجوري، لم يُر مثله في علو الحال، وصون الوقت، وصحة الحكم بالفراصة، ورد نيسابور، ومات بها سنة ٣٧٣هـ، كان يقول: العاصي خير من المدعي، لأن العاصي يطلب توبته، أما المدعي يتخبط في حبال دعواه، انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٤٧٩، «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ١٠٤).

(٣) معروف الكرخي: هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي. ويقال: معروف بن الفيروزان، وقيل: ابن علي. من جلة المشايخ المشهورين والمذكورين بالورع =

بالحقائق، واليأس ممّا في أيدي الخلائق. وقال الشُّبلي^(١): حقيقة الفقر: أن لا يستغني بشيء دون الحق. وقال القُرْمِسِيني^(٢): الفقير: الذي لا يكون له إلى الله حاجة، يعني: أنه مشغول بوظائف عبوديته، تامّ الثقة بربه، عالم بحسن كلاءته، لا يُخَوِّجُه إلى رفع الحاجة؛ لعلمه بعلم الله بحاله، فيرى السؤال في ذلك نقصاناً.

الصُّوفي يترك الأشياء لا للأعراض الموعودة، بل للأحوال الموجودة، فإنّه ابن وقته. والإرادة والاختيار علّة في حال الصُّوفي؛ لأنّه قائم في الأشياء بإرادة الله لا بإرادة نفسه، فلا يرى فضيلة في صورة فقر ولا في صورة غنى، وإنّما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه، ويدخله عليه، ويعلم الإذن من

= والتقوى، كان أستاذ السري السقطي. وصحب داود الطائي، وقبره ببغداد، أسلم معروف على يد علي بن موسى الرضا، الذي توفي سنة ٢٠٣هـ مسموماً، وكان معروف بعد إسلامه يحجبه، فازدحم الشيعة يوماً على باب علي بن موسى، فكسروا أضلع معروف فمات. انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٨٣، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨: ٣٦٠).

(١) الشُّبلي: هو أبو بكر الشُّبلي، وهو: دلف بن جحدر، ويقال: ابن جعفر، ويقال: اسمه جعفر بن يونس، والأول أشهر، خراساني الأصل، بغدادي المنشأ والمولد، تاب في مجلس خير النشاج، صاحب الجنيد ومن في عصره من المشايخ، وصار أوحده وقته حالاً وعلماً، وكان عالماً فقيهاً على مذهب مالك. توفي رحمه الله سنة ٣٣٤هـ، ودفن في مقبرة الخيزران، انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٣٣٧، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ٣٦٦).

(٢) القُرْمِسِيني: هو مظفر القُرْمِسِيني، نسبة إلى قُرْمِسِين، بلدة ببجبال العراق، على ثلاثين فرسخاً من همذان، عند ديتور (قاله السمعاني في «الأنساب» ١٠: ١١٠). من كبار المشايخ وأجلتهم، ومن الفقراء الصادقين، صاحب عبد الله الخراز ومن فوقه، وله كلام حسن. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٢٤٤).

اللَّهِ فِي الدُّخُولِ فِي الشَّيْءِ، وَقَدْ يَدْخُلُ فِي صَوْرَةِ سَعَةِ مَبَايِنَةِ لِلْفَقْرِ بِإِذْنِ مَنْ
اللَّهُ، وَيَرَى الْفَضِيلَةَ حَيْثُ فِي السَّعَةِ لِمَكَانِ الْإِذْنِ، وَلَا يُفْسَحُ فِي السَّعَةِ
وَالدُّخُولِ فِيهَا لِلصَّادِقِينَ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِمْ عِلْمَ الْإِذْنِ، وَفِي هَذَا مَزَلَّةُ الْقَدَمِ،
وَبَابُ دَعْوَى [١٩/ب] لِلْمَدْعِينَ.

وَمَا مِنْ حَالٍ يَتَحَقَّقُ بِهِ صَاحِبُ الْحَالِ إِلَّا وَقَدْ عَكَّسَهُ رَاكِبُ الْمُحَالِ.

فصل

[فِي صُحْبَةِ الشَّيْخِ]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاكِبًا عَنْ رَبِّهِ: «إِذَا كَانَ الْغَالِبُ عَلَى عَبْدِي الْإِسْتِغَالُ
بِي جَعَلْتُ هِمَّتَهُ وَلَذَّتْهُ فِي ذِكْرِي، فَإِذَا جَعَلْتُ هِمَّتَهُ وَلَذَّتْهُ فِي ذِكْرِي عَشِيتُنِي
وَعَشِيقَتُهُ، وَرَفَعْتُ الْحِجَابَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، لَا يَسْهُو إِذَا سَهَا النَّاسُ، أُولَئِكَ
كَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ، أُولَئِكَ الْأَبْطَالُ حَقًّا، أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أُرِدْتُ بِأَهْلِ
الْأَرْضِ عِقَابًا أَوْ عَذَابًا ذَكَرْتُهُمْ فَصَرَفْتُ بِهِمْ عَنْهُمْ»^(١).

الْمُرِيدُ الصَّادِقُ إِذَا دَخَلَ تَحْتَ حُكْمِ الشَّيْخِ وَصُحْبَتِهِ، وَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِ،
سَرَى مِنْ بَاطِنِ الشَّيْخِ حَالًا إِلَى بَاطِنِ الْمُرِيدِ، كَسَرَجٍ يَقْتَسِمُ مِنْ سِرَاجٍ، فَكَلَامُ
الشَّيْخِ يُلْقَحُ بِبَاطِنِ الْمُرِيدِ، وَيَكُونُ مَقَالُ الشَّيْخِ مُسْتَوْدَعَ نَفَائِسِ الْحَالِ، وَتُنْقَلُ
الْحَالُ إِلَى الْمُرِيدِ بِوَسْطَةِ الصُّحْبَةِ وَسَمَاعِ الْمَقَالِ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا لِمُرِيدٍ
حَصَرَ نَفْسَهُ مَعَ الشَّيْخِ، وَانْسَلَخَ بَيْنَ إِرَادَةِ نَفْسِهِ، وَفَنِي فِي الشَّيْخِ بِتَرْكِ

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية»، ترجمة عبد الواحد بن زيد (٦: ١٦٥)، من رواية محمد
ابن الفضل، وعبد الواحد بن زيد عن الحسن مرسلاً. قال أبو نعيم عقيبته: وهذا
الحديث خارج من جملة الأحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن؛ لمكان محمد بن
الفضل، وعبد الواحد وما يرجعان إليه من الضعف. انتهى. فالحديث منكراً باطلاً.

اختيار نفسه .

فبالتألف الإلهي يصير بين الصاحب والمصسوب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحانية والظاهرة الفطرية، ثم لا يزال المريد مع الشيخ كذلك متاذباً بترك الاختيار، حتى يرتقي: من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله، ويقهّم [١/٢٠] من الله ما كان يفهم من الشيخ .

ومبدأ هذا الخبر كله: الصّحبة والملازمة للشيخ، فالشيخ للمريد صورة، يستشف المريد من وراء هذه الصورة المعطيات الإلهية، والمراضية النبوية، ويعتقد المريد أن الشيخ باب فتحة الله إلى جناب كرمه، منه يدخل، وإليه يرجع، ويُنزّل بالشيخ سوانحه ومهائمه الدينية والدنيوية، ويعتقد أن الشيخ يُنزّل بالله الكريم كما يُنزّل المريد به، ويرجع في ذلك إلى الله كما يرجع المريد إليه .

وللشيخ باب مفتوح من السكّالمة والمُحادثة في التّروم واليقظة، فلا يتصرّف في الرّيد بهواه، فهو أمانة الله عنده، ويستغيث إلى الله بحوائج المريد، كما يستغيث بحوائج نفسه، ومهمّات دينه ودُنياه . واستقلال المريد بنفسه: أن يفتح له باب الفهم من الله، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهمّات بالله، والفهم من الله بتعريفاته وتنبيهاته لعبده السائل المحتاج، فقد بلغ أوّان فطامه .

فصل

[منه]

المريد الصادق، المُلتَهَبُ باطنه بنار الإرادة في بدء أمره وحيدة إرادته، كالملسوع الحريص على من يُرقبه ويداويه، فإذا صادف شيخاً انبعث من باطن

الشيخ صدق العناية، وينبعث من باطن المريد صدق المحبة بتألف القلوب
وتشام الأرواح، وظهور [٢٠/ب] سر السابغة فيهما باجتماعيهما [لله و] في الله
[و] بالله.

فصل

[في مقاصد السفر]

ومن جملة مقاصدهم في البداية: لقاء المشايخ والإخوان الصادقين؛
فللمريدین بقاء كل صادق مزيد، وقد ينفعه لحظ الرجال، كما ينفعه لفظ
الرجال، ونورانية القول على قدر نورانية القلب، ونورانية القلب بحسب
الاستقامة والقيام بواجب حق الربوبية وحقيقتها.

ونظر العلماء الراسخين في العلم، والرجال البالغين، تريق نافع، ينظر
أحدهم إلى الرجل الصادق واستناله لمواهب الله الخاصة؛ فيقع في قلبه
محبة الصادق المريد، وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة، وهم من جنود الله،
فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنية، ويهبون آثاراً مرضية، وقد كان شيخنا
[رحمه الله يطوف] في مسجد الخيف بمنى، ويتصفح وجوه الناس، فقل له
في ذلك فقال: لله عباد إذا نظروا إلى الشخص اكسبوه سعادة، فانا أتطلب
ذلك. انتهى.

فصدق الصادق يتم على حسن الحال، ويرزق صاحبه من الخلق حسن
الإقبال، وقلما يكون صادق متمسك بعروة الإخلاص، ذو قلب عامر، إلا
ويرزق قبول الخلق، فمن رزق صحبة من يندبه إلى مثل هذه الأحوال السنية،
والعزائم القوية [٢١/ا]، تحرّم عليه المفارقة واختيار السفر.

ثم إذا أحكم أمره في الابتداء بلزوم الصحبة والاقتداء، وارتوى من

الأحوال، وبلغ مَبْلَغَ الرُّجَالِ، وانبَجَسَ مِنْ قَلْبِهِ عَيُونُ مَاءِ الْحَيَاةِ، وصَارَتْ
نَفْسُهُ مَكْتَسِبَةً لِلسَّعَادَاتِ، تَسْتَشِيقُ نَفْسَ الرَّحْمَنِ مِنْ صُدُورِ الصَّادِقِينَ مِنْ
الإخوانِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَشَاسِعِ الْبُلْدَانِ؛ يَشْرَبُ إِلَى التَّأَلُّفِ، وَيَنْبِيعُ إِلَى
التَّطَوُّافِ فِي الْآفَاقِ، يُسِيرُهُ اللَّهُ فِي الْبِلَادِ لِفَائِدَةِ الْعِبَادِ، وَيَسْتَخْرِجُ بِمَغْنَاطِيهِ
حَالِهِ خَبَاءَ أَهْلِ الصُّدُقِ، وَالْمُتَطَلِّعِينَ إِلَى مَنْ يُخْبِرُ عَنِ الْحَقِّ، [وَيُبَذِّرُ] فِي
أَرْضِي الْقُلُوبِ نَوْرَ الْفَلَاحِ، وَيَكْثُرُ بِبَرَكَتِهِ وَنَفْسِهِ وَصُحْبَتِهِ أَهْلُ الصَّلَاحِ.

فصل

[فِي أَدَبِ الْمُطَالَعَةِ]

يَحْتَاجُ الْمُطَالَعُ لِلْعُلُومِ وَالْأَخْبَارِ، وَسِيرِ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَحِكَايَاتِهِمْ،
وَأَنْوَاعِ الْحِكَمِ الَّتِي يَكُونُ [فِيهَا] نَجَاتُهُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَالْأَمْثَالِ، أَنْ يَكُونَ
فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَتَادِبًا بِأَدَبِ حُسْنِ الْاسْتِمَاعِ؛ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ ذَلِكَ. وَكَمَا أَنَّ الْقَلْبَ
اسْتَعَدَّ لِحُسْنِ الْاسْتِمَاعِ بِالزَّهَادَةِ وَالتَّقْوَى، حَتَّى أَخَذَ مِنْ كُلِّ مَا سَمِعَهُ أَحْسَنَهُ،
فِيكَونُ آخِذًا بِالْمُطَالَعَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ. وَمَنْ الْأَدَبِ فِي الْمُطَالَعَةِ: أَنْ لَا
تَكُونَ بَدَاعِيَّةَ نَفْسٍ، وَقَلَّةَ صَبْرٍهَا عَلَى الذِّكْرِ وَالتَّلَاوَةِ وَالْعَمَلِ، فَيَسْتَرِيحُ
بِالْمُطَالَعَةِ كَمَا يَتَرَوَّحُ بِمَجَالَسَةِ النَّاسِ وَمُكَالَمَتِهِمْ. فَلْيَتَفَقَّدِ الْمُتَفَقِّطُ حَالَ نَفْسِهِ
فِي ذَلِكَ، وَلَا يَسْتَحْلِ [ب/٢١] مُطَالَعَةَ الْكُتُبِ إِلَى حَدٍّ مَأْخُذٍ ذَلِكَ مِنْ وَقْتِهِ،
وَيُرَاعِ الْإِفْرَاطَ فِيهِ، وَلَا يَبَادِرُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ التَّثَبُّتِ وَالْإِنَابَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى، وَطَلَبِ التَّيْيِيدِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فِيهِ، فَإِنَّهُ قَدْ يُرْزَقُ بِالْمُطَالَعَةِ مَا يَكُونُ
مَزِيدًا لِحَالِهِ، وَلَوْ قَدَّمَ الاسْتِخَارَةَ لَذَلِكَ لَكَانَ حَسَنًا، فَإِنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ عَلَيْهِ بَابَ
الْفَهْمِ وَالتَّفْهِيمِ، مُوهِبَةً مِنَ اللَّهِ، زِيَادَةً عَلَى مَا يَتَبَيَّنُ لَهُ مِنْ صُورَةِ الْعِلْمِ.

فَلِلْعِلْمِ صُورَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَسِرٌّ بَاطِنٌ، وَهُوَ: الْفَهْمُ، وَاللَّهُ نَبَّهَ عَلَى شَرَفِ
الْفَهْمِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا أَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] إِشَارَةً

إلى الفهم بمزيد اختصاص، وتميزاً عن الحكيم والعلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٢٢].

فإذا كان المسمِعُ هو الله، فتارةً يُسمِعُ باللسان، وتارةً بما يرزُقُ من مطالعة الكتب من التبيان، فصار ما يُفتح بمطالعة الكتب على معنى ما يرزُقُ من مسموع ببركة حسن الاستماع.

وليتفقد العبد حاله في ذلك، ويتعلم علمه وآدابه، فإنه باب كبير من أبواب الخير، وعمل صالح من أعمال المشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين المتبتلين لإستفتاح أبواب الرحمة، والمزيد من كل شيء ينفع لسلوك الآخرة. وبالله التوفيق.

فصل

[في طلب العلم الباطن]

قال رسول الله ﷺ: «اطلب العلم ولو إلى الصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١) قيل: هو طلب العلم الباطن [١/٢٢]، وهو: ما يزاد العبد به يقيناً. وهذا هو الذي يكتسب بالصُّحبة ومُجالسة الصالحين من العلماء الموقنين، والزهاد المقربين، الذين جعلهم الله من جنوده، يسوق الطالبين إليهم، ويقرّبهم بطريقهم، ويرشدّهم بهم؛ فهم وراث علم النبي ﷺ، ومنهم يتعلم علم اليقين. وقيل: طلب الإخلاص، ومعرفة آفات الشُّفوس، وما يُفسد الأعمال، ثم المشايخ من الصوفية والعلماء الزاهدين في الدنيا،

(١) رواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢: ١٥٦). وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١: ٣٠ رقم ٢٢)، والخطيب في «التاريخ» (٩: ٣٦٤)، وشطره الأول موضوع، وأما الشطر الأخير فهو صحيح إن شاء الله.

المُسْتَمِرُونَ عَنْ سَاقِ الْجِدِّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الْمُفْتَرَضِ حَتَّى عَرَفُوهُ، وَأَقَامُوا الْأَمْرَ
وَالنَّهْيَ، وَخَرَجُوا عَنْ عَهْدَةِ ذَلِكَ بِحُسْنِ تَوْفِيقِ اللَّهِ.

فَلَمَّا اسْتَقَامُوا فِي ذَلِكَ مُتَابِعِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ
بِالاسْتِقَامَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ [مود: ١١٢] فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِم
أَبْوَابَ الْعُلُومِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا. قَالَ الْإِمَامُ جَعْفَرُ الصَّادِقُ ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾: افْتَقِرْ إِلَى اللَّهِ بِهَمَّةِ الْعَزْمِ، فَكَمَا أَنَّ النَّبِيَّ
ﷺ بَعْدَ مَقْدَمَاتِ الْمُشَاهَدَةِ؛ خُوِطِبَ بِهَذَا الْخِطَابِ، وَطُوْلِبَ بِحَقَائِقِ
الاسْتِقَامَةِ؛ فَعُلَمَاءُ الْآخِرَةِ الزَّاهِدُونَ، وَمَشَائِخُ الصُّوفِيَّةِ الْمُقَرَّبُونَ، مَنَحَهُمُ اللَّهُ
مِنْ ذَلِكَ بِقِسْطٍ وَنَصِيبٍ، ثُمَّ أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ طَلَبَ التَّهَوُّضِ بِوَاجِبِ حَقِّ الاسْتِقَامَةِ.
وَرُوِيَ: الاسْتِقَامَةُ أَفْضَلُ مَطْلُوبٍ، وَأَشْرَفُ مَأْمُولٍ. فَسَبِيلُ الصَّادِقِ مُطَالَبَةُ
النَّفْسِ بِالاسْتِقَامَةِ، فَهِيَ كُلُّ الْكِرَامَةِ.

وَيُنَبِّشُكَ عَنْ شَرَفِ عِلْمِ الصُّوفِيَّةِ وَزَهَادَةِ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْعُلُومَ كُلَّهَا لَا
يَتَعَذَّرُ تَحْصِيلُهَا مَعَ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، وَالْإِخْلَالِ بِحَقَائِقِ التَّقْوَى [٢٢/ب]، وَرَبَّمَا
كَانَ مَحَبَّةُ الدُّنْيَا مَعِينًا عَلَى اكْتِسَابِهَا؛ لِأَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِهَا شَاقٌّ عَلَى النَّفْسِ،
فَجُبِلَتِ النَّفْسُ عَلَى مَحَبَّةِ الْجَاهِ وَالرِّيَاسَةِ وَالرَّفْعَةِ، حَتَّى إِذَا اسْتَشْعَرَتْ

(١) جعفر بن محمد: هو جعفر بن محمد الصادق، الإمام: جعفر بن محمد الباقر بن
علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وأمه: فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي
بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين. كان إماماً نبيلاً، أخذ الحديث عن أبيه وجده،
وله كرامات كثيرة، ومكاشفات شهيرة. ومن كلامه: لا يتم المعروف إلا بثلاث: أن
تصغره في عينيك، ونستره، وتعجله. وقال: إذا أقبلت الدنيا على إنسان أعطته
محاسن غيره، وإذا أدبرت سلبته محاسن نفسه. توفي رحمه الله سنة ١٤٨ هـ،
وقيل: ١٤٦ هـ. انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٣: ١٩٢)، «الطبقات الكبرى»
للشعراني (١: ٢٨).

حصول ذلك بحصول العلم، أجابت إلى تحمُّل الكُلفِ وسهر الليل، والصبر على الغربة والأسفار، وترك الملاذِّ والشَّهوات. وعلوم هؤلاء القوم مُتَعَسِّرَةٌ لا تحصل مع محبة الدنيا، ولا تنكشف إلا بمُجَانِبَةِ الهوى، ولا تُدرَسُ إلا في مدرسة التقوى. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]: جعل العلم ميراث التقوى، وغير علوم هؤلاء متيسرة من غير ذلك بلا شك.

فعلِمَ فضل الآخرة حيث لم يكشف الثَّباب إلا لأولي الألباب، وأولو الألباب حقيقة هم: الزاهدون في الدنيا. ولاخ لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى أنصبة المعارف، ومقامات القرب، إلا بالزهد والتقوى.

قال شيخنا: فبصفاء التقوى وكمال الزهادة يصير العبد راسخاً في العلم. والمتَّقِي حقَّ التقوى، والزاهد حقَّ الزهادة في الدنيا: مَنْ صَفَا بَاطِنُهُ، وَأَنْجَلَتْ مَرَاةَ قَلْبِهِ، وَوَقَعَتْ لَهُ مُحَاذَاةُ شَيْءٍ مِنَ اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ، فَادْرَكَ بِصِفَاءِ الْبَاطِنِ أُمّهَاتِ الْعُلُومِ وَأَصُولَهَا، فَيَعْلَمُ مَتَهَى أَقْدَامِ الْعُلَمَاءِ فِي عُلُومِهِمْ، وَفَائِدَةَ كُلِّ.

والعلوم الجزئية مُتَجَزِّئَةٌ في النفوس بالتعليم والمُمارَسَةِ، ولا يُغْنِيهِ عِلْمُهُ أَنْ يُرَاجَعَ فِي الْجُزْئِيِّ أَهْلُهُ الَّذِينَ هُمْ أَوْعِيَّتُهُ، فَنَفُوسُ هَؤُلَاءِ امْتَلَأَتْ مِنَ الْجُزْئِيِّ، وَاشْتَغَلَتْ بِهِ، وَانْقَطَعَتْ بِهِ عَنِ الْكُلِّيِّ، وَنَفُوسُ الْعُلَمَاءِ [١/٢٣] الزاهدين بعد الأخذ ممَّا لا بُدَّ مِنْهُ فِي أَصْلِ الدِّينِ وَأَسَاسِهِ مِنَ الشَّرْعِ، أَقْبَلُوا عَلَى اللَّهِ، وَانْقَطَعُوا إِلَيْهِ، وَخَلَصَتْ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى مَقَامِ الْقُرْبِ مِنْهُ، فَأَفَاضَتْ أَرْوَاحُهُمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ [أنواراً] تَهَيَّأتَ بِهَا قُلُوبُهُمْ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ، فَأَرْوَاحُهُمْ ارْتَفَعَتْ عَنْ حَدِّ إِدْرَاكِ الْعُلُومِ، بِعَكُوفِهَا عَلَى الْعَالَمِ الْأَزَلِيِّ، وَتَجَرَّدَتْ عَنْ وَجُودِ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ وَعَاءً لِلْعِلْمِ، وَقُلُوبُهُمْ بِنِسْبَةِ وَجْهِهَا الَّذِي يَلِي النُّفُوسَ، صَارَتْ أَوْعِيَّةً وَجُودِيَّةً، فَتَأَلَّفَتِ الْعُلُومَ، وَتَأَلَّفَتْهَا الْعُلُومُ؛ بِمُنَاسَبَةِ انفصالِ

العلوم باتصالها باللوح المحفوظ .

والمعني بالانفصال: انتقاشها في اللوح لا غير . وانفصال القلوب عن مقام الأرواح: بوجود انجذابها إلى النفوس، فصار بين المنفصلين نسبة: اشتراك موجب للتألف، فحصلت العلوم بذلك، فصار العالم الرباني راسخاً في العلم .

فصل

[في حسن الاستماع]

أساس كل خير حسن الاستماع؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فمن تملكته الوسوس، وغلب على باطنه حديث النفس، لا يقدر على حسن الاستماع .

فالصوفي وأهل القرب لما علموا أن كلام الله رسالته إلى عباده ومخاطباته إياهم؛ رأوا كل آية من كلام الله [٢٣/ب] بخرأ من أبحر العلم، بما يتضمن من ظاهر العلم وباطنه، وجلية وخفية، ورأوا كلام رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى - من عند الله، يتعين الاستماع [إليه]، ورأوا أن حسن الاستماع: قرع باب الملكوت، واستنزال بركة الرغبوت والرهبوت، ورأوا أن الوسوس دواخن نائرة من نار النفس الأمارة بالسوء، وقتام^(١) يتراكم من نفث الشيطان، وأن الحظوظ العاجلة، والأقسام الدنيوية التي هي مناط الهوى، ومثار الردى، بمثابة الخطب الذي به تزداد النار تأججاً، ويزداد القلب به تحرجاً، فرفضوا الدنيا، وزهدوا فيها .

(١) القتام: الغبار الأسود .

فَلَمَّا انْقَطَعَتْ مِنْ نَارِ النَّفْسِ احْطَابُهَا، وَفَتَرَتْ نِيرَانُهَا، وَقَلَّ دُخَانُهَا،
شَهِدَتْ بِوَاطِنِهِمْ وَقُلُوبُهُمْ مَصَادِرَ الْعُلُومِ وَمَوَارِدَهَا فِيهَا بِصَفَاءِ الْفُهُومِ، فَلَمَّا
شَهِدُوا: اسْتَمَعُوا. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ
وَهُوَ سَمِيرٌ﴾ (ق: ٣٧).

قَالَ الشُّبْلِي: مَوْعِظَةُ الْقُرْآنِ [تَسْأَلُ] لِمَنْ كَانَ قَلْبُهُ حَاضِرًا مَعَ اللَّهِ، لَا
يَغْفُلُ عَنْهُ طَرَفَةٌ عَيْنٍ. قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ^(١): قَلْبٌ قَدْ احْتَشَى بِأَشْغَالِ الدُّنْيَا،
حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ؛ لَمْ يَذَرِ صَاحِبُهُ كَيْفَ يَصْنَعُ مِنْ شُغْلِ قَلْبِهِ
بِالدُّنْيَا، وَقَلْبٌ قَدْ احْتَشَى بِأَسْوَالِ الْآخِرَةِ [١/٢٤] حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ
الدُّنْيَا، لَمْ يَذَرِ صَاحِبُهُ، لِذَهَابِ قَلْبِهِ فِي الْآخِرَةِ. فَانْظُرْ كَمْ بَيْنَ بَرَكَةِ الْإِفْهَامِ
الْبَاقِيَةِ، وَشُؤْمِ هَذِهِ الْأَشْغَالِ الْفَانِيَةِ، الَّتِي أَقْعَدَتْكَ عَنِ الطَّاعَةِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾: سَلِيمٌ مِنَ الْأَعْرَاضِ، لَا يَخْطُرُ فِيهِ إِلَّا
شُهُودُ الرَّبِّ، وَأَنْشُدْ:

أَنْمَى إِلَيْكَ قُلُوبًا طَالَمَا هَطَلَتْ سَحَابُ الْوَحْيِ فِيهَا أَبْحَرَ الْحِكَمِ

قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: قَلْبٌ لَاحِظُ الْحَقِّ بَعَيْنِ الثَّمَعِطِيمِ؛ فَذَابَ لَهُ وَانْقَطَعَ إِلَيْهِ
عَمَّا سِوَاهُ، فَالْقَلْبُ إِذَا ذَاقَ طَعْمَ الْعِبَادَةِ، عُتِقَ مِنْ رِقِّ الشَّهْوَةِ. قَالَ سَهْلٌ:
الْقَلْبُ رَقِيقٌ تَوَثَّرُ فِيهِ الْخَطَرَاتُ الْمَذْمُومَةُ، وَأَثَرُ الْقَلِيلِ عَلَيْهِ كَثِيرٌ، فَالْقَلْبُ عَمَّالٌ
لَا يَقْتَرُ، وَالنَّفْسُ يَقْظَانَةٌ لَا تَرْقُدُ، فَإِنْ كَانَ مُسْتَبِعًا إِلَى اللَّهِ، وَإِلَّا فَهُوَ مُسْتَمِعٌ
مِنَ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ. فَكُلُّ شَيْءٍ يَسُدُّ بَابَ حُسْنِ الْإِسْتِمَاعِ فَمِنْ حَرَكَةٍ

(١) يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: هُوَ ابْنُ جَعْفَرِ الرَّازِي الْوَاعِظِ، كَانَ يَتَكَلَّمُ فِي عِلْمِ الرَّجَاءِ، وَأَحْسَنَ
فِيهِ الْكَلَامَ، خَرَجَ إِلَى بَلْخِ وَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى نِسَابُورَ وَمَاتَ بِهَا سَنَةَ
٢٥٨هـ. انْظُرْ: «الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى» لِلشُّرْمَانِيِّ (١: ٦٩).

النَّفْسِ، وفي حَرَكَتِهَا يَتَطَرَّقُ الشَّيْطَانُ إِلَى الْوَسْوَسةِ .

وَقَلْبُ الصُّوفِيِّ نَازِلُهُ حَلَاوَةُ الْحُبِّ الصَّافِي، وَالْحُبُّ الصَّافِي: تَعَلُّقُ
الرُّوحِ بِالْحَضْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَمِنْ قُوَّةِ انْجِدَابِ الرُّوحِ إِلَى الْحَضْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِدَاعِيَةِ
الْحُبِّ؛ يَسْتَبِيعُ الْقَلْبُ النَّفْسَ، وَحَلَاوَةُ الْحُبِّ لِلْحَضْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ تَغْلِبُ حَلَاوَةَ
الْهَوَى؛ لِأَنَّ حَلَاوَةَ الْهَوَى كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتَثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ
قَرَارٍ؛ لِكُونِهَا لَا تَرْقَى عَنْ حَدِّ النَّفْسِ، وَحَلَاوَةُ الْحُبِّ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا
[٢٤/ب] ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهَا مُتَأَصِّلَةٌ فِي الرُّوحِ، فَرْعُهَا عِنْدَ اللَّهِ
وَعُرْوَتُهَا ضَارِبَةٌ فِي أَرْضِ النَّفْسِ، فَإِذَا سَمِعَ الْكَلِمَةَ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنْ كَلَامِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُبَشِّرُ بِهَا الرُّوحُ وَالْقَلْبُ وَالنَّفْسُ، وَيَقْدِيهَا بِكُلِّيَّتِهِ وَيَقُولُ:

[بسيط]

أَشْمُ مِنْكَ نَسِيمًا لَسْتُ أَنْكَرُهُ أَظُنُّ مِيَاءَ جَرَّتْ فِيكَ أَرْدَانًا
فَتَعَمُّهُ الْكَلِمَةُ وَتَشْمَلُهُ، وَتَصِيرُ كُلُّ شَعْرَةٍ مِنْهُ سَمْعًا، وَكُلُّ ذَرَّةٍ مِنْهُ بَصْرًا،
فَيَسْمَعُ الْكُلَّ بِالْكُلِّ، وَيُبْصِرُ الْكُلَّ بِالْكُلِّ:

[خفيف]

إِنْ تَأَمَّلْتُمْ فِكْلِي عُيُونٌ أَوْ تَذَكَّرْتُمْ فِكْلِي قُلُوبٌ

فصل

[فِي الِاسْتِجَابَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ]

قَالَ بَعْضُهُمْ: اللَّبُّ وَالْعَقْلُ مِثْلُ جُزْءٍ، تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ مِنْهَا فِي النَّبِيِّ ﷺ،
وَجُزْءٌ فِي سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قَالَ الْجُنَيْدُ: تَسْمُوا أَرْوَاحَ مَا دَعَاهُمْ؛ فَاسْرِعُوا إِلَى مَحْوِ الْعَلَائِقِ
الْمُشْغَلَةِ، وَهَجَمُوا بِالنَّفْسِ عَلَى مَعَانِقَةِ الْحَذَرِ، وَتَجَرَّعُوا مَرَارَ الْمَكَايِدَةِ،

وَصَدَقُوا اللَّهَ فِي الْمُعَامَلَةِ، وَأَحْسَنُوا الْأَدَبَ فِيمَا تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ، وَعَرَفُوا قَدَرَ مَا يَطْلُبُونَ، وَسَجَنُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ التَّقَلُّبِ إِلَى مَذْكُورِ سِوَى وَلِيِّهِمْ، فَحَيَّوْا حَيَاةَ الْأَبَدِ بِالْحَيِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ.

فَحَيَاةُ الثُّفُوسِ بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ بِمُشَاهَدَةِ الْعُيُوبِ، وَهُوَ الْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ بِرُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ، فَالاستجابةُ عَلَى قَدْرِ [١/٢٥] السَّمَاعِ، وَالسَّمَاعُ عَلَى قَدْرِ الْفَهْمِ، وَالْفَهْمُ عَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ بِقَدْرِ الْكَلَامِ، وَالْمَعْرِفَةُ بِالْكَلَامِ عَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ بِالْمُتَكَلِّمِ.

وَوَجُوهُ الْفَهْمِ لَا تَنْحَصِرُ؛ لِأَنَّ وَجُوهَ الْكَلَامِ لَا تَنْحَصِرُ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩].

فصل

[فِي الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى]

قَالَ أَبُو الذَّرْدَاءِ: لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَرَى الْقُرْآنَ وَجُوهًا كَثِيرَةً.

فَمَا أَعْجَبَ قَوْلَ ابْنِ مَسْعُودٍ: مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَلَهَا قَوْمٌ سَيَعْمَلُونَ بِهَا. وَهَذَا مُخَرَّضٌ لِكُلِّ طَالِبٍ صَاحِبٍ [هِمَّةٍ]: أَنْ يُصَفِّيَ مَوَارِدَ الْكَلَامِ، وَيَنْفَهَمَ دَقِيقَ مَعَانِي وَغَوَامِضِ أَسْرَارِهِ مِنْ قَلْبِهِ.

فَلِلصُوفِيِّ — بِكَمَالِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَتَجْرِيدِ الْقَلْبِ عَمَّا سِوَى اللَّهِ — مَطْلَعٌ مِنْ كُلِّ آيَةٍ، وَلَهُ بِكُلِّ مَرَّةٍ فِي التَّلَاوَةِ مَطْلَعٌ جَدِيدٌ، فَفَهْمُهُمْ يَدْعُو إِلَى الْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ يَدْعُو إِلَى الْعَمَلِ، وَعَمَلُهُمْ يَجْلِبُ صَفَاءَ الْفَهْمِ وَدَقِيقَ النَّظَرِ فِي مَعَانِي الْخِطَابِ.

فَمِنْ الْفَهْمِ عِلْمٌ، وَمِنْ الْعَمَلِ عِلْمٌ، وَالْعِلْمُ وَالْعَمَلُ يَتَنَاقَبَانِ فِيهِ، وَهَذَا الْعَمَلُ الْمَذْكُورُ أَنْفَاءً [إِنَّمَا هُوَ] عَمَلُ الْقُلُوبِ، [وَعَمَلُ الْقُلُوبِ] غَيْرُ عَمَلِ الْقَالِبِ،

وأعمالُ القلوبِ للُطْفِهَا وَصَفَانِهَا^(١) مُشَاكِلةٌ لِلْعُلُومِ؛ لِأَنَّهَا نَبَاتٌ وَطَوَيَاتٌ وَتَمْلُقاتٌ رُوحِيَّةٌ؛ وَتَأْدُبَاتٌ قَلْبِيَّةٌ وَمُسَامِرَاتٌ سَرِيَّةٌ، وَكَلِّمَا أَتَوْا بِعَمَلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ وَقَعَ لَهُمْ عِلْمٌ مِنَ الْعَمَلِ، وَاطَّلَعُوا عَلَى مَطْلَعٍ مِنْ فَهْمِ الْآيَةِ جَدِيدٍ، وَيَخَالِجُ سِرِّي أَنْ يَكُونَ الْمَطْلَعُ لَيْسَ بِالْوُقُوفِ بِصَفَاءِ الْفَهْمِ عَلَى دَقِيقِ الْمَعْنَى وَغَامُضِ السَّرِّ فِي الْآيَةِ، وَلَكِنَّ الْمَطْلَعِ: أَنْ يَطْلُعَ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ عَلَى شُهُودِ الْمُتَكَلِّمِ بِهَا؛ لِأَنَّهَا مُسْتَوْدَعٌ وَصَفٍ مِنْ أَوْصَافِهِ، وَنَعْتٍ مِنْ [٢٥/ب] نُعُوتِهِ، فَيَتَجَدَّدُ لَهُ التَّجَلِّيَّاتُ بِتَلَاوَةِ الْآيَاتِ وَسَمَاعِهَا، وَتَصِيرُ لَهُ مَرَائِي مُنْبِئَةٌ عَنْ عِظَمِ الْجَلَالِ.

فصل

[في الأربعينية]

لَيْسَ الْمَطْلُوبُ — مِنَ الْأَرْبَعِينَ — شَيْئاً مَخْصُوصاً لَا يَطْلُبُونَهُ فِي غَيْرِهَا، وَلَكِنْ لَمَّا طَرَقَتْهُمْ مَخَالَفاتُ حُكْمِ الْأَوْقَاتِ؛ أَحْبَبُوا تَقْيِيدَ الْوَقْتِ بِالْأَرْبَعِينَ؛ رَجَاءً أَنْ يَنْسَجِبَ حُكْمُ الْأَرْبَعِينَ عَلَى جَمِيعِ زَمَانِهِمْ، فَيَكُونُوا فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِمْ كَهَيْئَتِهِمْ فِي الْأَرْبَعِينَ، عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعِينَ خُصَّتْ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً؛ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»^(٢).

(١) فِي الْأَصْلِ الْمَخْطُوطُ: (وَصَلَفَتِهَا)، وَفِي مَطْبُوعَةِ دَبِي مِنْ «الْعَوَارِفِ» (١ : ٤١): (صَلَفَتِهَا)، وَفِي الْمَطْبُوعَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ (بَذِيلُ الْإِحْيَاءِ) ص ٥١: (صَدَاقَتِهَا)؛ وَأَثْبَتْنَاهَا: (صَفَانِهَا) لِمُنَاسِبَتِهَا لِلْمَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) أَخْرَجَهُ هُنَادٌ فِي «الزُّهْدِ» (رَقْمُ ٦٧٨)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٥ : ١٨٩)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ» (١٣ : ٢٣١) عَنْ مَكْحُولٍ مَرْسِلاً، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

فصل

[في فضل الأربعينية وثمرتها]

[العلوم اللدنية في قلوب المنقطين إلى الله تعالى^(١) ضرب من المكالمة، ومن انقطع إلى الله أربعين يوماً: مُخلصاً، مُتعاهداً نفسه بخفة المعدة؛ تفتح عليه العلوم اللدنية، كما أخبر رسول الله ﷺ بذلك. فالتبُّل لطاعة الله تعالى، والإقبال عليه، والانتزاع عن التوجه إلى أمر المعاش: بكل يوم يُخرج من حجاب، وهو معنى مودع فيه [و] على قدر زوال كل حجاب يتخذ منزلاً في القرب من الحضرة الإلهية التي هي مجمع العلوم ومصدرها، فإذا تمت الأربعون زالت الحجب وانصبت إليه العلوم انصباباً.

ثم العلوم والمعارف هي أعيان انقلبت [أنواراً] باتصال إكسير نور العظمة الإلهية بها، فانقلبت أعيان أحاديث النفس علوماً إلهامية، وتصدت أجرام حديث النفس لقبول [١/٢٦] أنوار العظمة، فلولا وجود النفس وحديثها ما ظهرت العلوم الإلهامية؛ لأن حديث النفس وعاء وجودي لقبول الأنوار، وما للقلب في ذاته لقبول العلم شيء.

فالعبد — بانقطاعه إلى الله واعتزال الناس — يقطع مسافات وجوده، ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم.

ففي كل يوم — بإخلاصه في العمل — يكشف طبقة من الطبقات الثرائية الجبلية المبعدة عن الله، إلى أن ينكشف — باستكمال الأربعين — في كل يوم طبقة من أطباق حجابيه. وآية صحة هذا العبد وتأثيره بالأربعين، ووفائه بشروط الإخلاص: أن يزهد بعد الأربعين في الدنيا، ويتجافى عن دار الغرور، ويُنِيب

(١) من «المعارف» (١: ٣٥٦).

إلى دارِ الخُلود؛ لأنَّ الزُّهْدَ في الدُّنْيَا مِنْ ضَرُورَةِ ظَهْوَ الحِكْمَةِ، وَمَنْ لَمْ يَزْهَدْ
فِي الدُّنْيَا مَا ظَفِرَ بِالحِكْمَةِ، وَمَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِالحِكْمَةِ بَعْدَ الأَرْبَعِينَ: تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَخْلَى
بِالشُّرُوطِ، وَلَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ مَا عَبَدَ اللَّهَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ
بِالإِخْلَاصِ كَمَا أَمَرَ بِالعَمَلِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الَّذِينَ﴾ [البينة: ٥].

وعن النبي ﷺ: «يَقُولُ الرَّبُّ للإِخْلَاصِ: انْطَلِقِي أَنْتِ وَأَهْلُكَ إِلَى
الْجَنَّةِ، وَيَقُولُ لِلشُّرْكِ: انْطَلِقِي أَنْتِ وَأَهْلُكَ إِلَى النَّارِ. وَيَقُولُ الرَّبُّ للإِخْلَاصِ:
سِرِّي مِنْ سِرِّي أَوْدَعْتُهِ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ مِنْ عِبَادِي»^(١).

فصل

[في فضائل الخُلوةِ وَمَنَافِعِهَا]

مِنْ النَّاسِ مَنْ [٢٦/ب] يَدْخُلُ الْخُلُوةَ عَلَى مُرَاقَبَةِ النَّفْسِ؛ إِذِ النَّفْسُ
بَطِيعُهَا كَارِهَةٌ لِلْخُلُوةِ، مَيَّالَةٌ إِلَى مُخَالَطَةِ الْخَلْقِ، فَإِذَا أَرَعَجَهَا عَنْ مَقَارِ
عَادَتِهَا، وَحَبَسَهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ؛ يَغْتَنِبُ كُلَّ مَرَارَةٍ تَدْخُلُ عَلَيْهَا حِلَاوَةٌ فِي
الْقَلْبِ.

قَالَ ذُو الشُّونِ: لَمْ أَرِ أَبْعَثَ عَلَى الإِخْلَاصِ مِنَ الْخُلُوةِ، وَمَنْ أَحَبَّ
الْخُلُوةَ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِعُمُودِ الإِخْلَاصِ، وَظَفِرَ بِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الصُّدُقِ.
وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: الْوَحْدَةُ مُنْبِئَةُ الصَّدِيقِينَ.

وَمَنْ النَّاسُ مَنْ تَنْبَعُ دَاعِيَةُ الْخُلُوةِ مِنْ بَاطِنِهِ، وَتَنْجَذِبُ النَّفْسُ إِلَى

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي كِتَابِ «الْكُنَى»، كَمَا فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» لِلْسَّيْرُوطِيِّ (٥: ١١٨) وَفِيهِ
مُحَمَّدُ بْنُ أَشْرَسَ، كَذَّابٌ.

ذلك، وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد، [فإنهم] إذا اخلصوا لله في خلواتهم؛ يفتح الله عليهم ما يؤنسهم في خلواتهم تعويضاً من الله إياهم عما تركوا لأجله. ثم خلوة القوم مستمرة، وإنما الأربعون واستكمالها له أثر في ظهور مبادئ بشائر الحق سبحانه، وسنوح مواهبه السنية.

القوم اختاروا الخلوة والوحدة لسلامة الدين، وتفقد أحوال النفس، وإخلاص العمل لله. أبو نعيم المغربي رحمه الله يقول: من اختار الخلوة على الصحبة، ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار إلا ذكر ربه، ومن جميع المرادات إلا مراد ربه، وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة وبلية.

وقال أبو بكر الوراق^(١): وجدت (٢٧/١) خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلّة، ووجدت شرهما في الكثرة والاختلاط.

والعبد إذا اخلص لله، وأحسن النية، وقعد في الخلوة أربعين يوماً أو أكثر: فممنهم من يباشر باطنه صفو اليقين، ويرفع الحجاب عن قلبه، ويصير كما قال قائلهم: «رأى قلبي ربي»، وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات، وكف الجوارح، وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر، وكل هذه مواهب من الله تعالى.

وقد يكشف بها قوم، وتغطي على قوم، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا؛ لأن هذه كلها تقوية لليقين، ومن منح صرف اليقين لا

(١) أبو بكر: محمد بن عمر الحكيم الوراق، أصله من ترمذ، وأقام ببلخ، لقي أحمد بن خضرويه وغيره، له التصانيف المشهورة في الآداب والمعاملات، من كلامه رضي الله عنه: خضوع الفاسقين أفضل من صولة المطيعين. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٢٠٢).

حاجة له إلى شيء من هذه، فكلُّ هذه الكراماتِ دونَ ما ذكرناه من تجوُّهِرِ الذكرِ في القلب، ووجودِ ذِكْرِ الذات، فإنَّ تلكَ الحكمةَ فيها تقويةُ المریدین، وتربيةُ السَّالکین، ليزدادوا بها يقيناً يُجذبونَ به إلى مُراعَمةِ الشُّفوس، والسُّلُوفِ عَنِ مِلَادِ الدُّنْيَا، وَيُسْتَنَهِضَ بِذَلِكَ سَاكِنُ عَزَمِهِم لِعِمَارَةِ الْأَوْقَاتِ بِالْقُرْبَاتِ؛ فَيُرَوِّحُونَ بِذَلِكَ، وَيُرَبِّتُونَ بِطَرِيقِهِ.

وَمَنْ كُوْشِفَ بِصِرْفِ الْيَقِينِ مِنْ ذَلِكَ؛ فَلِمَكَانٍ أَنْ نَفْسُهُ اسْرَعَ إِجَابَةً، وَأَسْهَلَ انْقِيَاداً، وَأَنْتُمْ اسْتِعْدَاداً، وَالْأَوَّلُونَ أَسْتَلِينَ مِنْهُمْ مَا اسْتَوْعَرَ، وَاسْتُكْشِفَ مِنْهُمْ مَا اسْتَرَ.

فصل

[في أعمالِ الخلوة]

لِيَعْلَمَ الصَّادِقُ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْخَلْوَةِ: التَّقَرُّبُ [٢٧/ب] إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، بِعِمَارَةِ الْأَوْقَاتِ، وَكَفِّ الْجَوَارِحِ عَنِ الْمَكْرُوهَاتِ، فَيُصْلِحُ لِقَوْمٍ مِنْ أَرْبَابِ الْخَلْوَةِ إِدَامَةَ الْأَوْرَادِ وَتَوَازُعَهَا عَلَى الْأَوْقَاتِ، وَيُصْلِحُ لِقَوْمٍ دَوَامَ الْمُرَاقَبَةِ، وَيُصْلِحُ لِقَوْمٍ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الذِّكْرِ إِلَى الْأَوْرَادِ، وَلِقَوْمٍ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْأَوْرَادِ إِلَى الذِّكْرِ، وَمَعْرِفَةَ مَقَادِيرِ ذَلِكَ يَعْلَمُهُ الشَّيْخُ الْمَصْحُوبُ، الْمَطَّلَعُ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَوْضَاعِ وَتَنَوُّعِهَا، مَعَ نُصَحِهِ لِلْأَمَّةِ وَشَفَقَتِهِ عَلَى الْكَافَّةِ، يَرِيدُ الْمُرِيدَ لِلَّهِ، لَا لِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُبْتَلَى بِهَوَى نَفْسِهِ، وَمُحِبٌّ لِلِاسْتِيبَاعِ، فَمَا يُفْسِدُهُ مِثْلُ هَذِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُهُ.

كَانَ يُقَالُ: مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً إِلَّا أَنْبَتَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ، وَزَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا، وَرَغَبَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَبَصَّرَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا^(١).

(١) كذا، وراجع حديث الأربعينية، ص ٧٦ من هذا الكتاب.

وقيل: لا تَطْمَعُ في المَنْزِلَةِ عِنْدَ اللَّهِ وأنت تريدُ المَنْزِلَةَ عِنْدَ النَّاسِ. وهذا بابٌ يَنْفَسِدُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْمَالِ إِذَا أَهْمِلَ، وَيَنْصَلِحُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْمَالِ إِذَا اُعْتَبِرَ.

ويكونُ في خُلُوتِهِ جَاعِلًا وَقْتَهُ شَيْئًا وَاحِدًا مَوْهُوبًا لِلَّهِ بِإِدَامَةِ فِعْلِ الرِّضَا، إما تِلَاوَةً أَوْ ذِكْرًا أَوْ صَلَاةً أَوْ مُرَاقَبَةً.

وَأَيُّ وَقْتٍ فَتَرَ عَنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ يَنَامُ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُعَيِّنَ أَعْدَادًا مِنَ الرُّكْعَاتِ، وَمِنَ التِّلَاوَةِ وَالذِّكْرِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ - بِحُكْمِ الْوَقْتِ - يَعْتَمِدُ أَخَفَّ مَا عَلَى قَلْبِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ، فَإِذَا فَتَرَ عَنْ ذَلِكَ يَنَامُ، وَإِنْ أَرَادَ بَقِيَّ فِي سُجُودٍ وَاحِدٍ أَوْ فِي [١/٢٨] رُكْعَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ فِي رُكْعَتَيْنِ أَوْ سَاعَتَيْنِ، وَيُلَازِمُ فِي خُلُوتِهِ دَوَامَ الرُّضْوَةِ.

فصل

[فِي مَن يَطْوِي لِلَّهِ تَعَالَى]

قِيلَ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: هَذَا الَّذِي يَأْكُلُ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ أَوْ أَكْثَرَ أَكْلَةً وَاحِدَةً: أَيْنَ يَذْهَبُ لَهَبُ الْجُوعِ؟ قَالَ: يُطْفِئُهُ النَّورُ.

وَقَدْ سَأَلْتُ بَعْضَ الصَّالِحِينَ عَنْ ذَلِكَ، فَذَكَرَ كَلَامًا بِعِبَارَةٍ تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِدُ فَرَحًا بِرَبِّهِ يَنْطَفِئُ مَعَهُ لَهَبُ الْجُوعِ، وَهَذَا فِي الْخَلْقِ وَاقِعٌ: أَنَّ الشَّخْصَ يَطْرُقُهُ فَرَحٌ وَقَدْ كَانَ جَائِعًا، فَيَذْهَبُ عَنْهُ الْجُوعُ. وَهَكَذَا فِي طَرِيقِ الْخَوْفِ يَقَعُ ذَلِكَ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَدَرَجَ نَفْسُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، لَا يُؤَثِّرُ ذَلِكَ فِي نَقْصَانِ عَقْلِهِ وَاضْطِرَابِ جِسْمِهِ إِذَا كَانَ فِي حِمَايَةِ الصِّدْقِ وَالْإِحْلَاصِ، وَإِنَّمَا يُخْشَى فِي ذَلِكَ وَفِي دَوَامِ الذِّكْرِ عَلَى مَنْ لَا يُخْلِصُ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَمَنْ يَطْوِي لِلَّهِ خَالِصًا، يُعَوِّضُهُ فَرَحًا فِي بَاطِنِهِ يُنْسِيهِ الطَّعَامَ، وَقَدْ لَا
يُنْسِي الطَّعَامَ وَلَكِنَّ امْتِلَاءَ قَلْبِهِ بِالْأَنْوَارِ يَقْوِي جَاذِبَ الرُّوحِ الرُّوحَانِي، فَيَجْذِبُهُ
إِلَى مُسْتَقَرِّهِ وَمَرْكَزِهِ مِنَ الْعَالَمِ الرُّوحَانِي، وَيَقْفُو^(١) بِذَلِكَ عَوَارِضَ الشَّهْوَةِ
النَّفْسَانِيَّةِ، وَمَا أَثَرُ جَاذِبِ الرُّوحِ - إِذَا تَخَلَّفَ عَنْهُ جَاذِبُ النَّفْسِ عِنْدَ كَمَالِ
طُمَأْنِينَتِهَا وَانْعِكَاسِ أَنْوَارِ الرُّوحِ عَلَيْهَا بِوَاسِطَةِ الْقَلْبِ الْمُسْتَنِيرِ - بِأَقْلٍ مِنْ
جَاذِبِ الْمَغْنَاطِيسِ لِلْحَدِيدِ!

فَإِذَا تَجَنَّسَتِ النَّفْسُ بِعَكْسِ نَوْرِ الرُّوحِ الْوَاصِلِ [٢٨/ب] إِلَيْهَا بِوَاسِطَةِ
الْقَلْبِ؛ يَصِيرُ فِي النَّفْسِ رُوحٌ اسْتَمَدَّهَا الْقَلْبُ مِنَ الرُّوحِ وَأَدَّاهَا إِلَى النَّفْسِ،
فَتَجْذِبُ الرُّوحُ النَّفْسَ بِجَنَسِيَّةِ الرُّوحِ الْحَادِثَةِ فِيهِ، فَتَزْدَرِي الْأَطِيعَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ
وَالشَّهَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةَ.

وَيَتَحَقَّقُ بِمَعْنَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي
وَيَسْقِينِي»^(٢).

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: لَا يَزْهَدُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الزُّهْدِ الَّذِي لَا مَثْنَوِيَّةَ^(٣) فِيهِ،
إِلَّا بِمُشَاهَدَةِ قُدْرَةِ الْمَلَكُوتِ.

(١) أي: يمحو، يقال: قفا الله أثره يَقْفُوهُ: عَفَاهُ وَمَحَاهُ، كَمَا فِي «الْقَامُوسِ».

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ الْوَصَالِ (رَقْم ١٩٦١ - ١٩٦٤) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو، وَأَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، وَعَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَفِي كِتَابِ الْاِعْتَصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، بَابُ مَا يَكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ وَالْغُلُوِّ. (رَقْم ٧٢٩٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»، كِتَابُ الصِّيَامِ، بَابُ النِّهْيِ عَنِ الْوَصَالِ (رَقْم ١١٠٢ - ١١٠٥) مِنْ حَدِيثِ: ابْنِ عَمْرٍو، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَنَسٍ، وَعَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) فِي الْأَصْلِ (مَثْنَوِيَّةٌ)، وَالْمَثْبُوتُ مِنَ «الْعَوَارِفِ» (١: ٣٨٣).

فصل

[في أخلاق الصوفية]

قال ابن عطاء: الخلق العظيم: أن لا يكون له اختيار، ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المآلوفات.

فالصوفية رضي الله عنهم راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات؛ حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق. وكم [نفس] تجيب إلى الأعمال، وجمحت عن الأخلاق. [نفوس العباد أجابت إلى الأعمال، وجمحت عن الأخلاق]، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها.

فصل

[من أحسن أخلاقهم: التواضع]

فمن أحسن أخلاق الصوفية: التواضع، ولا يلبس العبد لبسة أجمل من التواضع. ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقداراً يعلم أنه يقيمه، ويقيم كل أحد على ما عنده من نفسه، ومن رزق هذا فقد استراح وأراح، ﴿وَمَا يَفْقَهُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

سئل الجنيد رحمه الله عن التواضع؛ فقال: خفض الجناح، ولين الجانب [١/٢٩].

وسئل الفضيل^(١) عن التواضع؛ فقال: تخضع للحق وتقاد له، وتقبله

(١) الفضيل بن عياض: أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي، شيخ الحرم المكي، أحد الأئمة، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق كثير منهم: =

مَنْ قَالَهُ، وَتَسَمَّعُ مِنْهُ. وَقَالَ: مَنْ رَأَى لِنَفْسِهِ قِيَمَةً؛ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ التَّوَاضُّعِ نَصِيبٌ. وَقَالَ: مَنْ عَرَفَ كَوَافِرَ نَفْسِهِ؛ لَمْ يَطْمَعْ فِي الْعُلُوِّ وَالشَّرَفِ، وَسَلَكَ سَبِيلَ التَّوَاضُّعِ، وَلَا يُخَاصِمُ مَنْ يَذُمُّهُ، وَيَشْكُرُ اللَّهَ لِمَنْ يَحْمَدُهُ.

قال أبو حفص^(١): مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَوَاضَعَ قَلْبُهُ؛ فَلْيُضَحِّبِ الصَّالِحِينَ وَلْيَلْتَزِمِ خِدْمَتَهُمْ، فَمِنْ شِدَّةِ تَوَاضُعِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ يَقْتَدِي بِهِمْ وَلَا يَتَكَبَّرُ. انتهى.

ومتى لم يكن للصوفي حظ في التواضع الخاص على بساط القرب، لا يتوقر حظه من التواضع للخلق، وهذه سعادة إذا أقبلت، جاءت بكلتيها. والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية.

فصل

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَّةِ: الْمُدَارَاةُ وَاحْتِمَالُ الْأَذَى مِنَ الْخَلْقِ. فَالْمُدَارَاةُ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ: مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْجِيرَانِ وَالْأَصْحَابِ، وَالْخَلْقِ كَافَّةً: مِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَّةِ.

وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس.

وقيل: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر.

= عبد الله بن المبارك، وكانت أوقاته معمورة بالصدق والإخلاص، توفي سنة ١٨٧ هـ. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٥٨).

(١) أبو حفص: عمر بن مسلمة الحداد النيسابوري، من قرية يقال لها: كورداباذ (على مدينة نيسابور على طريق بخارى) كان يقول: فساد الأحوال من ثلاثة: فسق العارفين، وخيانة المحبين، وكذب المريدين. توفي رضي الله عنه سنة نيف وستين وميتين. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٧٠).

فما شيءٌ يُستدلُّ به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحُسن المُداراة. والنفس لا تزال تَشْمُزُ مَنْ يَعِكُسُ مُرَادَهَا، وَيَسْتَفِزُّهَا الْغِيْظُ والغضب. وبالمُداراة قطعُ حَمَّةٍ^(١) النَّفْسِ وَرَدُّ طَيْشِهَا ونفورِها. [٢٩/ب].
[قيل] شعراً في معنى [الين] جانب الصُّوفية:

هَيْئُونَ لَيْئُونَ أَيْسَارٌ بَنُو يَسْرِ سُؤَاسٌ مَكْرُمَةٌ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ
لَا يَنْطِقُونَ عَنِ الْفَحْشَاءِ إِنْ نَطَقُوا وَلَا يُمَارُونَ إِنْ مَارُوا بِإِكْثَارِ
مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقُلَ لَأَقِيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي
في الحديث: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ؛ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ،
وَمَنْ حُرِمَ الرَّفْقِ؛ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ»^(٢).

فصل

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَّةِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ: الْإِيثَارُ وَالْمَوَاسَاةُ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَرَطُ الشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ طَبْعاً، وَقُوَّةُ الْيَقِينِ شُرْعاً؛ لِأَنَّهُمْ يُؤَثِّرُونَ بِالْمَوْجُودِ، وَيَصْبِرُونَ عَنِ الْمَفْقُودِ، فَمَا حَمَلَ الصُّوفِيُّ عَلَى الْإِيثَارِ إِلَّا طَهَارَةً نَفْسِهِ وَشَرَفُ غَرِيزَتِهِ، وَمَا جَعَلَهُ [اللَّهُ تَعَالَى] صُوفِياً إِلَّا بَعْدَ [أَنْ] سَوَّى غَرِيزَتَهُ لَذَلِكَ، فَكُلُّ مَنْ كَارَ غَرِيزَتَهُ السَّخَاءَ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ صُوفِياً، [بَلِ] الْغَرِيزَةُ — لِطَهَارَتِهَا — تَنْجَذِبُ إِلَى مُرَادِ الْحَقِّ لَا لِعَوَضٍ، وَذَلِكَ أَكْمَلُ السَّخَاءِ، وَهُوَ مِنْ أَظْهَرِ الْغَرَائِزِ.

(١) الْحَمَّةُ — بِالْفَتْحِ —: كُلُّ عَيْنٍ فِيهَا مَاءٌ حَارٌّ يَنْبُعُ. «القاموس». وَوَجْهُ التَّشْبِيهِ بَيْنَ الْحَمَّةِ، وَفُورَانِ النَّفْسِ وَطَيْشِهَا: وَاضِحٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٦: ١٥٩، ٤٥١)، وَابْنُ خَالٍ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ» (رَقْم ٤٦٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ»، كِتَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّفْقِ (رَقْم ٢٠١٣)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فصل

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَةِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ: التَّجَاوُزُ وَالْعَفْوُ وَمُقَابِلَةُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ. قَالَ سَفِيَانُ: الْإِحْسَانُ: أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ.
وَقَالَ الْحَسَنُ: أَنْ تَعُمَّ وَلَا تُخْصَّ، كَالشَّمْسِ وَالرَّيْحِ وَالْغَيْثِ.

فصل

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَةِ: الْبِشْرُ وَطَلَاقُ الْوَجْهِ مَعَ النَّاسِ، فَالْبِشْرُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ آثَارِ أَنْوَارِ قَلْبِهِ. وَقَدْ يُنَازِلُ بَاطِنَ الصُّوفِيِّ مَنَازِلَاتُ إِلَهِيَّةٌ وَمَوَاهِبُ قُدُوسِيَّةٌ يَرْتَوِي مِنْهَا [١/٣٠] الْقَلْبُ وَيَمْتَلِئُ فَرَحًا وَسُرُورًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ [الآية: يونس: ٥٨].

وَالسُّرُورُ إِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الْقَلْبِ، فَاضَّ عَلَى الْوَجْهِ آثَارُهُ، فَإِذَا تَنَعَّمَ الْقَلْبُ بِلَذِيذِ الْمُسَامَرَةِ ظَهَرَ الْبِشْرُ عَلَى الْوَجْهِ. فَأَرِبَابُ الْمَشَاهِدَةِ مِنَ الصُّوفِيَةِ تَنَوَّرَتْ بِصَائِرِهِمْ بِنُورِ الْمَشَاهِدَةِ، وَانْصَقَلَتْ مِرَاةُ قُلُوبِهِمْ، وَانْعَكَسَ فِيهَا نُورُ الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ، وَإِذَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الْمِرَاةِ الْمَصْقُولَةِ؛ اسْتَنَارَتِ الْجِدَارَاتُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفنح: ٢٩].

فَإِذَا تَأَثَّرَ الْوَجْهُ بِسُجُودِ الظُّلَالِ، وَهِيَ الْقَوَالِبُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَلَّاهُمْ﴾ [الرعد: ١٥]، كَيْفَ لَا يَتَأَثَّرُ بِشُهُودِ الْجَمَالِ؟

فصل

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَةِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ: السَّهْوَةُ وَلِينُ الْجَانِبِ، وَالنُّزُولُ مَعَ النَّاسِ لِأَخْلَاقِهِمْ وَطِبَائِعِهِمْ، وَتَرْكُ التَّعَسُّفِ وَالتَّكْلُفِ.
وَصَفَّ بَعْضُهُمْ طَاوُوسَ فَقَالَ: كَانَ مَعَ الصَّبِيِّ صَبِيًّا؛ وَمَعَ الْكَهْلِ كَهْلًا، وَكَانَ فِيهِ مُزَاحَةٌ إِذَا خَلَا. وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ يُمَازِحُ أَصْحَابَهُ وَيَمَزَحُونَ عَنْهُ

وَيَخْرُجُونَ مِنْ عِنْدِهِ وَهُمْ يَضْحَكُونَ. وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَبَادَحُونَ بِالْبَطِينِ^(١)؛ فَإِذَا كَانَتِ الْحَقَائِقُ كَانُوا هُمْ الرِّجَالُ.

وَلَا يَصْلُحُ الْإِكْثَارُ مِنْ ذَلِكَ لِلْمُرِيدِينَ الْمُبْتَدِئِينَ، لِقَلَّةِ عِلْمِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِالنَفْسِ، وَتَعَدِّيهِمْ حَدَّ الْإِعْتِدَالِ. فَلِلنَفْسِ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ نَهَضَاتٌ وَوَثَبَاتٌ تَجُرُّ إِلَى الْإِفْسَادِ، وَتَجَنُّحُ إِلَى الْعِنَادِ، فَالْنَزُولُ إِلَى طَبَائِعِ النَّاسِ يَحْسُنُ لِمَنْ صَعِدَ عَنْهُمْ وَتَرَقَّى لَعُلَّوْ حَالِهِ وَمَقَامِهِ؛ فَيَنْزِلُ إِلَيْهِمْ وَإِلَى طَبَائِعِهِمْ — حِينَ يَنْزِلُ — بِالْعِلْمِ [٣٠/ب].

فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَصْعَدْ بِصِفَاءِ حَالِهِ عَنْهُمْ، وَفِيهِ بَقِيَّةُ مَزْجٍ مِنْ طَبَائِعِهِمْ وَنَفْسِهِمُ الْجَامِحَةِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ، إِذَا دَخَلَ فِي هَذِهِ الْمَدَاخِلِ؛ أَخَذَتِ النَّفْسُ حَظَّهَا وَاعْتَنَمَتْ مَآرِبَهَا وَاسْتَرْوَحَتْ إِلَى الرُّخْصَةِ. وَالنَزُولُ إِلَى الرُّخْصَةِ يَحْسُنُ لِمَنْ رَكِبَ الْعَزِيمَةَ غَالِبَ أَوْقَاتِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ شَأْنَ الْمُبْتَدِئِ.

فَلِلصُّوفِيَةِ الْعُلَمَاءِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ تَرْوِيحٌ، [و] يَعْلَمُونَ حَاجَةَ الْقَلْبِ إِلَى ذَلِكَ. وَالشَّيْءُ إِذَا وُضِعَ لِلحَاجَةِ يَتَقَدَّرُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، وَذَلِكَ عِلْمٌ غَامِضٌ لَا يَسْلُمُ لِكُلِّ أَحَدٍ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ^(٢) لِابْنِهِ: اقْتَصِدْ فِي مَزَاجِكَ، فَالْإِفْرَاطُ فِيهِ يَذْهَبُ بِالْبَهَاءِ، وَيُجْرِي عَلَيْكَ السُّفْهَاءُ، وَتَرْكُهُ يُغَيِّظُ الْمُؤَانِسِينَ وَيُوجِشُ الْمُخَالِطِينَ.

(١) أَي: يَتَرَامَتُونَ بِهِ.

(٢) سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ: بَنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أُمِيَّةَ، الْأُمَوِيُّ، قُتِلَ أَبُوهُ بَيْدَرًا، وَكَانَ عَمْرُهُ عِنْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ تِسْعَ سِنِينَ، وَهُوَ مَعْدُودٌ فِي الصَّحَابَةِ، وَلِيَّ إِمْرَةِ الْكُوفَةِ لِعِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِمْرَةِ الْمَدِينَةِ لِمَعَاوِيَةَ، تُوُفِيَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ. «التَّقْرِيب» (ص ٢٨٣).

وقال بعضهم: المِزَاجُ مَسْلَبَةٌ لِلْبَهَاءِ، مَقْطَعَةٌ لِلْإِخَاءِ^(١).

فصل

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَّةِ رِضَايَ اللَّهِ عَنْهُمْ: التَّوَدُّدُ وَالتَّأَلُّفُ. [والتَّوَدُّدُ وَالتَّأَلُّفُ] مِنْ اتِّلَافِ الْأَرْوَاحِ.

وقيل: طاعةُ المحبةِ أفضلُ مِنْ طاعةِ الرّهبةِ، فَإِنَّ طَاعَةَ الْمَحَبَّةِ مِنْ دَاخِلٍ، وَطَاعَةَ الرّهبةِ مِنْ خَارِجٍ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَتْ صُحْبَةُ الصُّوفِيَّةِ مُؤَثِّرَةً مِنَ الْبَعْضِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا تَحَابُّوا فِي اللَّهِ؛ تَوَاصَوْا بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَوَقَعَ الْقَبُولُ [بَيْنَهُمْ] لَوْجُودِ الْمَحَبَّةِ؛ فَانْتَفَعَ لَذَلِكَ الْمُرِيدُ بِالشَّيْخِ، وَالْأَخُ بِالْأَخِ.

والتَّوَدُّدُ وَالتَّأَلُّفُ يُوَكِّدَانِ أَسْبَابَ الصُّحْبَةِ. وَالصُّحْبَةُ مَعَ الْآخِيَارِ مُؤَثِّرَةٌ جَدًّا!

وقد قيل: لِقَاءُ الْإِخْوَانِ لُقَاحٌ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْبَوَاطِنَ [١/٣١] تَلْتَمِصُ وَيَتَّقَوْنَ الْبَعْضُ بِالْبَعْضِ؛ بَلْ مَجَرَّدُ النَّظَرِ إِلَى أَهْلِ الصَّلَاحِ يُؤَثِّرُ صِلَاحًا، وَالنَّظَرُ إِلَى الصُّوَرِ يُؤَثِّرُ أَخْلَاقًا مُنَاسِبَةً لِمُخَلِّقِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ، كَدَوَامِ النَّظَرِ إِلَى الْمَحْزُونِ يُحْزِنُ، وَدَوَامِ النَّظَرِ إِلَى الْمَسْرُورِ يَسُرُّ.

وقيل: مَنْ لَا يَنْفَعُكَ لِحَظُهُ لَا يَنْفَعُكَ لَفْظُهُ. وَالْجَمَلُ الشَّرُّودُ بِصِيرِ ذُلُولٍ بِمُقَارَنَةِ الْجَمَلِ الذَّلُولِ، وَالْمُقَارَنَةُ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْجَمَادِ، وَالْمَاءُ وَالْهَوَاءُ يَفْسُدَانِ بِمُقَارَبَةِ الْجَيْفِ، وَالزَّرْعُ [يَنْقَى] عَنْ أَنْوَاعِ الْعُرُوقِ فِي الْأَرْضِ وَالنَّبَاتُ لِمَوْضِعِ الْإِفْسَادِ بِالْمُقَارَنَةِ. وَإِذَا كَانَتِ الْمُقَارَنَةُ مُؤَثِّرَةً فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَفِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ الشَّرِيفَةِ أَكْثَرُ تَأْثِيرًا.

(١) أي: إذا زاد عن حدِّ القصد والاعتدال، كما تقدّم.

وقيل : يُسَمَّى الإنسان إنساناً لأنه يَأْنَسُ بكلُّ ما يراه من خيرٍ أو شرٍّ .
 والتزوُّدُ والتألفُ مُستجلبٌ للمزيد ، وإنما العزلةُ والوَحدةُ تُحمَدُ بالنسبةِ
 إلى أراذلِ الناسِ وأهلِ الشرِّ ، وأما أهلُ العلمِ والصفاءِ والوفاءِ والأخلاقِ
 الحميدةِ تُغْنَمُ مقاربتُهُم ، والاستئناسُ بهم استئناسٌ بالله ، كما أنَّ محبتَهُم من
 محبةِ الله ، والجامعُ معهم رابطةُ الحقِّ ، ومعَ غيرِهِم رابطةُ الطبعِ .
 فالصُّوفيُّ معَ غيرِ الجنسِ كائنٌ بائنٌ ، ومعَ الجنسِ كائنٌ مُعَاينٌ ، والمؤمنُ
 مِرآةُ المؤمنِ ، إذا نظرَ إلى أخيه يَسْتَشِفُّ من وراءِ أقوالِهِ وأعمالِهِ وأحوالِهِ
 تجلياتِ إلهيَّةٍ ، وتعريفاتٍ وتلويحاتٍ من الله الكريمِ خَفِيَّةٍ ، غابَتْ عنِ
 الأغيارِ ، وأدرَكَها أهلُ الأنوارِ .

فصلٌ

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوْفِيَّةِ (٣١/ب) : شُكْرُ الْمُحْسِنِ عَنِ الْإِحْسَانِ ، والدُّعَاءُ
 لَهُ ، وَذَلِكَ مِنْهُمْ مَعَ كَمَالِ تَوَكُّلِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَصَفَاءِ تَوْحِيدِهِمْ ، وَقَطْعِ النَّظَرِ
 إِلَى الْأَغْيَارِ ، وَرَوَيْتِهِمُ الشُّعْمَ مِنَ الْمُنْعِمِ الْجَبَّارِ . وَلَكِنْ يَقْعَلُونَ ذَلِكَ اقْتِدَاءً
 بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فالصُّوفيُّ في الابتداءِ يُقْنِي الخَلْقَ ، وَيَرَى الْأَشْيَاءَ مِنَ اللَّهِ ، حَيْثُ طَالَعَ
 نَاصِبَةَ التَّوْحِيدِ ، وَخَرَقَ الْحِجَابَ الَّذِي مَنَعَ الخَلْقَ عَنِ صِرْفِ التَّوْحِيدِ ، فَلَا
 يُثْبِتُ لِلخَلْقِ مَنَعاً وَلَا عَطَاءً ، وَيَحْجُبُهُ الْحَقُّ عَنِ الخَلْقِ ، فَإِذَا ارْتَقَى إِلَى ذُرْوَةِ
 التَّوْحِيدِ يَشْكُرُ الخَلْقَ بَعْدَ شُكْرِ الْحَقِّ ، وَيُثْبِتُ لَهُمْ وَجُوداً فِي الْمَنعِ وَالْعَطَاءِ ،
 بَعْدَ أَنْ يَرَى الْمُسَبَّبَ ؛ وَذَلِكَ لِسَعَةِ عِلْمِهِ ، وَقُوَّةِ مَعْرِفَتِهِ ، يُثْبِتُ الْوَسَائِطَ . فَلَا
 يَحْجُبُهُ الخَلْقُ عَنِ الْحَقِّ كَأَرْبَابِ الْإِرَادَةِ وَالْمُبْتَدِئِينَ ، فَيَكُونُ شُكْرُهُ لِلْحَقِّ ؛ لِأَنَّهُ
 الْمُنْعِمُ وَالْمُعْطِي وَالْمُسَبِّبُ ، وَيَشْكُرُ الخَلْقَ لِأَنَّهُمْ وَاسِطَةٌ وَسَبَبٌ .

فصل

وَمِنْ صِفَاتِ الصُّوفِيَّةِ: بَذْلُ الْجَاهِ لِلْإِخْوَانِ وَالْمُسْلِمِينَ كَافَّةً. فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ وَافِرَ الْعِلْمِ، بَصِيرًا بَعُيُوبِ النَّفْسِ وَأَفَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، يَتَوَصَّلُ إِلَى قَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ بِبَذْلِ الْجَاهِ وَالْمُعَاوَنَةِ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَشَرِ.

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يُحْتَاجُ إِلَى مَزِيدِ عِلْمٍ؛ لِأَنَّهَا أُمُورٌ تَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ وَمَخَالَطَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ، وَلَا يَصْلُحُ ذَلِكَ إِلَّا لَصُوفِيٍّ تَامَّ الْحَالِ عَالِمِ رَبَّانِي. وَقَالَ عَطَاءٌ^(١): لَأَنْ يُرَآئِيَ الرَّجُلُ سِنِينَ يَكْتَسِبُ جَاهًا يَعْيشُ فِيهِ مُؤْمِنًا، أَتَمُّ لَهُ مِنْ أَنْ يُخْلِصَ الْعَمَلَ لِنَجَاةِ نَفْسِهِ.

وَهَذَا بَابٌ غَامِضٌ لَا يُؤْمَنُ أَنْ يَقْتَنِيَ بِهِ خَلْقٌ مِنَ الْجُهَالِ [١/٣٢] الْمُدَّعِينَ، وَلَا يَصْلُحُ هَذَا إِلَّا لِعَبْدٍ أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى بَاطِنِهِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لَا رَغْبَةَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْجَاهِ وَالْمَالِ، وَلَوْ أَنَّ مُلُوكَ الْأَرْضِ وَقَفُوا فِي خِدْمَتِهِ، مَا طَغَى وَلَا اسْتَطَالَ، وَلَوْ دَخَلَ أَثُونًا^(٢) يُوقَدُ، مَا ظَهَرَتْ نَفْسُهُ بِصَرِيحِ الْإِنْكَارِ لِهَذَا الْحَالِ.

وَهَذَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِأَحَادٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَأَفْرَادٍ مِنَ الصَّالِحِينَ الصَّادِقِينَ، يَسْتَلِخُونَ مِنْ إِرَادَتِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمْ، وَيُكَاشِفُهُمُ اللَّهُ بِمُرَادِهِ مِنْهُمْ، فَيَدْخُلُونَ فِي الْأَشْيَاءِ بِمُرَادِ اللَّهِ، فَإِذَا عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ يُرِيدُ مِنْهُمْ الْمُخَالَطَةَ وَبَذْلَ الْجَاهِ، يَدْخُلُونَ فِي ذَلِكَ بِغَيْبَةِ صِفَاتِ النَّفْسِ، وَهَذَا لِأَقْوَامٍ مَاتُوا ثُمَّ حُشِرُوا، وَأَحْكَمُوا مَقَامَ الْفَنَاءِ، ثُمَّ رُقُوا إِلَى مَقَامِ الْبَقَاءِ، فَيَكُونُ لَهُمْ — فِي كُلِّ مَدْخَلٍ وَمَخْرَجٍ — بُرْهَانٌ وَبَيَانٌ وَإِذْنٌ مِنَ اللَّهِ، عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ، [وَهَذَا] لَيْسَ فِيهِ

(١) عطاء: ابن أبي رباح، القرشي مولاهم، المكي، الفقيه العابد، مفتي الناس بمكة، تتلمذ على ابن عباس، توفي سنة أربع عشرة ومئة. «التفريب» (ص ٥٦).

(٢) ومعناه: الموقف الكبير.

ارتياح لصاحب قلب مُكاشف بصريح [المراد في خفي] الخطاب، فيأخذ وقتَه من الأشياء، ولا تأخذ الأشياء من وقته، ولا يكون هذا إلا في كل قطير من الأقطار واحد متحقق بهذا الحال^(١).

فصل

[في مكانة الأدب من التصوف]

الأدب: تهذيب الظاهر والباطن، فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفياً أدبياً.

إنَّ اللهَ خلقَ الإنسانَ وهيئاً لقبولِ الصَّلاحِ والفسادِ، وجعلهُ أهلاً للأدبِ، ومكارمِ الأخلاقِ - ووجودُ الأهلِيَّةِ فيه كوجودِ النَّارِ في الزُّنادِ، ووجودِ النَّخلِ في النَّوى - وألهمهُ وأمكنهُ من إصلاحِهِ بالتَّربِيَةِ إلى أن يصيرَ النَّوى نخلاً، والزُّنادُ [٣٢/ب] بالعلاجِ حتَّى تخرجَ منه نارٌ.

فصل

[في مخو الغل بنور التوفيق]

قد يكونُ الغلُّ في النَّفسِ معَ مَنْ يُشاكِلُهُ ويُمائِلُهُ لوجودِ المُنافِسةِ، ومن استقصى في تدويرِ النَّفسِ بنارِ الزَّهَادَةِ، يُمحي الغلُّ من باطنِهِ، ولا تبقى عنده مُنافِسةٌ دنيويَّةٌ في حظوظِ عاجِلَةٍ: من جاهٍ ومالٍ.

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في وصفِ أهلِ الجَنَّةِ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

قالَ أبو حَفْصٍ: كيفَ يبقى الغلُّ في قلوبِ اتَّلفَت باللهِ، واتَّفقت على

(١) وينحوه جاء سياق العبارة في «المعارف» (١ : ٤٨٥)، وفيه إرباك.

محبته، واجتمعت على مودته، وأنست بذكره؟ فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس، وظلمات الطبائع، بل كحلّت بنور التوفيق، فصارت كما قال تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

فهكذا قلوب أهل التصوف والمُتَجَمِّعِينَ على الكلمة الواحدة من الالتزام بشروط الطريق، والانكباب على الظفر بالتحقيق.

والناس رجلان: رجل طالب ما عند الله، ويدعو إلى ما عند الله نفسه وغيره، فما للمُحِقِّ الصوفيِّ — مع هذا — منافسة ومراءٍ وغِلٍّ، فإن هذا معه في طريق واحدة ووجهة واحدة، وأخوه ومُعيَّنه، والمؤمنون كالبُنيان يشدُّ بعضه بعضاً.

ورجل مفتتن بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق، فما للصوفيِّ مع هذا منافسة؛ لأنه زهد فيما رغب فيه. فمن شأن الصوفيِّ أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة، حيث يراه محجوباً مُفتتناً، فلا ينطوي على غِلٍّ، ولا يُماريه في [١/٢٣] الظاهر على شيء، لعلمه بظهور نفسه الأماراة بالسوء في المراء والمُجادلة.

فنفُسُ الصوفيِّ قد تبدلت صفاتها، وذهب عنها صفة الشيطنة والسُّبُعِيَّة، وتبدلت بالرفق واللين والسهولة والطُمأنينة.

فصل

[في الرضا بالمقدور]

الحُكْمُ بالحق — في الغضب والرضا — لا يَحْصُلُ [إلا] من عالم رباني، أمير على نفسه يُصرِّفها بعقل حاضر وقلب يقظان، ونظر إلى الله بحسن الاحتساب.

وَالصُّوفِيُّ صَاحِبُ الرِّضَا وَالرَّوْحِ وَالرَّاحَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾.

وَصَلَاةُ قَلْبِ الصُّوفِيِّ وَحَالُهُ يَقْدِفُ زَبَدَ الْغُلِّ وَالْحَقْدِ، كَمَا يَقْدِفُ الْبَحْرُ الزَّبَدَ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَلَاطُمِ أَمْوَاجِ الْأَنْسِ وَالْهَيْئَةِ. وَنَظَرُ الصُّوفِيِّ عِنْدَ الْغَضَبِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ تَقْوَاهُ تَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَزِنَ حَرَكَاتِهِ وَأَقْوَالَهُ بِمِيزَانِ الشَّرْعِ وَالْعَدْلِ، وَيَتَّهَمَ النَّفْسَ بَعْدَمِ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ.

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ أَقْبَهُ النَّاسَ لِنَفْسِهِ؟ قَالَ: أَرْضَاهُمْ لِلْمَقْدُورِ.

وَإِذَا اتَّهَمَ الصُّوفِيُّ النَّفْسَ تَدَارَكَهُ الْعِلْمُ، وَإِذَا لَاحَ لَهُ عِلْمُ الْعِلْمِ قَوِيَ الْقَلْبُ وَسَكَتَتِ النَّفْسُ، وَعَادَ دَمُ الْقَلْبِ إِلَى مَوْضِعِهِ وَمَقَارِهِ، وَاعْتَدَلَ الْحَالُ، وَغَاضَتْ حُمْرَةُ الْخَدِّ، وَبَانَتْ فَضِيلَةُ الْعِلْمِ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «السَّمْتُ الْحَسَنُ وَالتَّوَدُّ وَالْاِقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنْ الشُّبُوءَةِ»^(١).

فصل

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَّةِ: تَرْكُ التَّكْلُفِ، وَذَلِكَ أَنَّ التَّكْلُفَ: تَصْنَعٌ وَتَعْمَلٌ وَتَمَائِلٌ عَلَى النَّفْسِ لِأَجْلِ النَّاسِ، وَذَلِكَ يُبَايِنُ حَالَ الصُّوفِيَّةِ، وَفِي بَعْضِهِ خَفِيُّ مُنَازَعَةٍ لِلْأَقْدَارِ، وَعَدَمُ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ الْجَبَّارُ. وَيُقَالُ: التَّصَوُّفُ تَرْكُ التَّكْلُفِ.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الثاني والعجلة، (رقم ٢٠١٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. والطبراني في «الصغير» (رقم ١٠٦٧)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١: ١٠١)، من حديث عبد الله بن سرجس المزني رضي الله عنه.

ويقال: التكلف: تخلف (٢٣/ب) عَنْ شَأْرِ الصَّادِقِينَ.

رَوَى أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: شَهِدْتُ وَلِيمَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا فِيهَا خُبْزٌ وَلَا لَحْمٌ (١).

والتكلف مذموم في جميع الأشياء، كالتكلف في الملبوس للناس من غير نية فيه، والتكلف في الكلام، وزيادة التملق الذي صار دأب أهل الزمان، فما يكاد يسلم من ذلك إلا آحاد وأفراد، والتملق مباح لحال الصوفية.

وليس من شأن أهل الصديق كثرة الكلام، والتكلف للناس بزيادة التملق والثناء عليهم، وإظهار التنفص.

فصل

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَّةِ نَفْعَ اللَّهِ بِهِمْ: الإنفاق من غير إقتار، وترك الادخار، وذلك أَنَّ الصُّوفِيَّ يَرَى خَزَائِنَ فَضْلِ الْحَقِّ، فَهُوَ بِمِثَابِهِ مَنْ هُوَ مُقِيمٌ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، لَا يَدْخِرُ الْمَاءَ فِي قَرْبَتِهِ وَزَاوِيَتِهِ.

الصُّوفِيُّ كُلُّ خَبَايَاهُ فِي خِزَانَةِ اللَّهِ لَصَدَقِ تَوَكُّلُهُ، وَثِقَتِهِ بِرَبِّهِ، فَالدُّنْيَا لِلصُّوفِيِّ كَذَارِ الْغُرَبَةِ، لَيْسَ لَهُ فِيهَا ادِّخَارٌ، وَلَا لَهُ مِنْهَا اسْتِكْثَارٌ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» (٢).

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري، ومن أعتق جاريته ثم تزوجها (رقم ٥٠٨٥)، ومسلم في «الصحيح»، كتاب النكاح، باب فضل إعتاقه أمته ثم يتزوجها (رقم ١٣٦٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١: ٣٠، ٥٢)، والترمذي في «الجامع»، في أبواب الزهد، باب في التوكل على الله (رقم ٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح. والحاكم في =

فصل

وَمِنْ إِخْلَاقِ الصُّوفِيَّةِ: الْقَنَاعَةُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا. قَالَ ذُو الثُّونِ: مَنْ قَنَعَ اسْتَرَاحَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَاسْتَطَالَ عَلَى أَقْرَانِهِ.

وَقَالَ يَشْرُ: لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَنَاعَةِ إِلَّا التَّمَتُّعُ بِالْعِزِّ لِصَاحِبِهِ لَكَفَى.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرَاغِيُّ: الْعَاقِلُ مَنْ دَبَّرَ أَمْرَ الْقَنَاعَةِ بِالتَّسْوِيفِ، وَدَبَّرَ أَمْرَ الْآخِرَةِ بِالْجَرِّ وَالْتَّعَجِيلِ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: مَنْ قَنَعَ بِالرُّزْقِ [١/٣٤] فَقَدْ ذَهَبَ بِالْآخِرَةِ وَطَابَ عَيْشُهُ.

وَقَالَ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ^(١): الْقَنَاعَةُ سَيْفٌ لَا يَنْبُو^(٢).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ»^(٣).

وَقَالَ عُمَرُ: سَلُوا اللَّهَ الرُّزْقَ يَوْمًا يَوْمٌ، وَلَا يَضُرَّكُمْ أَنْ لَا يُكَبِّرَ لَكُمْ.

= «المستدرک» (٤ : ٣١٨) وصححه، وغيرهم، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١) علي بن أبي طالب: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وزوج ابنته فاطمة، وأبو الحسين، رابع الخلفاء الراشدين، وإمام أهل التقوى والورع، كان يقول: الدنيا جيفة، فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب. توفي رضي الله عنه شهيداً سنة ٤١ هـ. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١ : ٦٨).

(٢) نبا السيفُ يَنْبُو: إذا لم يُصَبَّ الضَّرْبَةَ، قالوا: «لكلُّ سيفٍ نَبْوَةٌ».

(٣) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب» (رقم ٣٠٥)، والبيهقي في «الزهد» (رقم ١٠٥) من حديث جابر، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (رقم ٦٣) من حديث أنس، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (١٠ : ٢٥٦) للطبراني في «الأوسط».

فصل

وَمِنْ أَخْلَاقِ الصُّوفِيَّةِ: تَرْكُ الْمِرَاءِ وَالْمُجَادَلَةِ وَالْغَضَبِ إِلَّا بِحَقٍّ،
واعتِمَادُ الرَّفْقِ وَالْعِلْمِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ تَشِبُّ وَتُظْهَرُ فِي الْمُمَارِينَ.
وَالصُّوفِيُّ كُلَّمَا رَأَى نَفْسَ صَاحِبِهِ ظَاهِرَةً قَابِلَهَا بِالْقَلْبِ، وَإِذَا قُوبِلَتْ
النَّفْسُ بِالْقَلْبِ ذَهَبَتِ الرَّحْشَةُ، وَانْطَفَتِ الْفِتْنَةُ.

وَلَا يُشْتَرَعُ الْمِرَاءُ إِلَّا مِنْ نَفْسٍ زَكِيَّةٍ انْتَرَعَ مِنْهَا الْغِلُّ، وَوُجُودُ الْغِلِّ فِي
النَّفْسِ مِرَاءُ الْبَاطِنِ، وَإِذَا انْتَرَعَ الْغِلُّ مِنَ الْبَاطِنِ؛ ذَهَبَ مِنَ الظَّاهِرِ.

فصل

[فِي مَنَاجِيزِ الْأَدَابِ]

إِذَا تَزَكَّتِ النَّفْسُ تَدَبَّرَتْ بِالْعَقْلِ، وَاسْتَقَامَتِ أَحْوَالُهَا: الظَّاهِرَةُ
وَالْبَاطِنَةُ، وَتَهَذَّبَتِ الْأَخْلَاقُ، وَتَكُونَتِ الْأَدَابُ.

فَالْأَدَبُ: اسْتِخْرَاجُ مَا فِي الْهَيْئَاتِ وَالْخُلُقِ إِلَى الْفِعْلِ، وَهَذَا يَكُونُ لِمَنْ
رُكِبَتِ السَّجِيَّةُ الصَّالِحَةُ فِيهِ، وَالسَّجِيَّةُ: فِعْلُ الْحَقِّ، لَا قُدْرَةَ لِبَشَرٍ عَلَى
تَكْوِينِهَا، كَتَكْوِينِ النَّارِ فِي الزَّنَادِ؛ إِذْ هُوَ فِعْلُ اللَّهِ الْمَخْصُصِ، وَاسْتِخْرَاجُهُ
بِكَسْبِ الْآدَمِيِّ.

فَهَكَذَا الْأَدَابُ: مَنَبَعُهَا السَّجَايَا الصَّالِحَةُ وَالْمِنْعُ الْإِلَهِيَّةُ.

وَلَمَّا هَيَّأَ اللَّهُ بَوَاطِنَ الصُّوفِيَّةِ بِتَكْمِيلِ السَّجَايَا فِيهَا، تَوَصَّلُوا — بِحُسْنِ
الْمُمَارَسَةِ وَالرِّيَاضَةِ — إِلَى اسْتِخْرَاجِ مَا فِي النَّفْسِ — مَرَكُوزٌ بِخَلْقِ اللَّهِ — إِلَى
الْفِعْلِ، فَصَارُوا مُؤَدِّينَ مُهْدِّينَ. وَالْأَدَابُ تَقَعُ فِي بَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْ غَيْرِ
زِيَادَةِ مُمَارَسَةِ وَرِيَاضَةٍ؛ لِقُوَّةِ مَا أَوْدَعَ اللَّهُ [٣٤/ب] فِي غَرَائِزِهِمْ، كَمَا قَالَ

رسول الله ﷺ: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»^(١).

وفي بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة؛ لنقصان قوة أصولها في الغريزة؛ فلهذا احتاج المریدون إلى صحبة المشايخ؛ لتكون الصُّحبة والتعليم عوناً على استخراج ما في الطبيعة إلى الفعل.

قال يوسف بن الحسين^(٢): بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تُنال الحكمة، وبالحكمة يُقام الزهد، وبالزهد تُترك الدنيا، وبترك الدنيا يُرغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تُنال الرفعة عند الله. [قيل: شعراً: [طويل]

إذا نطقت جاءت بكل مליحة وإن سكنت جاءت بكل مליح

فصل

[في آداب الحضرة الإلهية]

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْمَعَ الْأَدَابِ ظَاهِراً وَبَاطِناً، وَكُلُّ الْأَدَابِ تُتَلَقَّى مِنْهُ، فَلَمْ يَزَلْ ﷺ مُسْتَحْلِسَ حَبَالِهِ فِي خِفَارَةِ أَدَبِ حَالِهِ^(٣)، حَتَّى خَرَقَ حُجُبَ

(١) أورده السخاوي في «المقاصد الحسنة» (رقم ٤٥) وذكر له عدة طرق ليس فيها شيء بالقوي، ثم قال: وبالجمل، فهو كما قال ابن تيمية: لا يعرف له إسناد ثابت. انتهى. والحديث معناه صحيح، وكلام ابن تيمية المذكور في «مجموع رسائله الكبرى» (٢: ٣٣٦).

(٢) يوسف بن الحسين: أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي، شيخ الري والجبال في وقته، كان عالماً أديباً، صاحب ذا النون المصري، وأبا تراب النخشي، وغيرهما، وكان من كلامه: اللهم إنا نباتُ زرائع نعمتك، فلا تجعلنا حصائد نقمته. توفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة. انظر «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٢٠١).

(٣) الجبال: جمع حجلة: كالثبّة، وموضع يُزَيَّن بالثياب والستور للعروس. =

السَّمَاوَاتِ؛ فَانصَبْتُ إِلَيْهِ أَقْسَامُ الْقُرْبِ انصِبَاباً، وَانْقَشَعَتْ عَنْهُ سَحَابُ الْحُجُبِ حجاباً حجاباً، حَتَّى اسْتَقَامَ عَلَى صِرَاطٍ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، فَمَرَّ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ إِلَى مَخْدَعِ الْوَصْلِ وَاللَّطَائِفِ، وَهَذَا غَايَةُ فِي الْأَدَبِ، وَنِهَايَةُ فِي الْأَرَبِ.

فصل

[متى يتحقق العبد بالأدب؟]

إِذَا عَرَفَ النَّفْسَ صَادَفَ نُورَ الْعِرْفَانِ، عَلَى مَا وَرَدَ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ؛ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»^(١). وَلِهَذَا الثُّورِ لَا تَظْهَرُ النَّفْسُ بِجِهَالَةٍ إِلَّا وَيَقْمَعُهَا بِصُرِيحِ الْعِلْمِ، وَحِينَئِذٍ تَتَأَدَّبُ. وَمَنْ قَامَ بِأَدَبِ الْحَضَرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فَهُوَ بغيرِهَا أَقْوَمُ وَعَلَيْهَا أَقْدَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

مِنْ آدَابِ الصُّوفِيَّةِ فِي الْوُضُوءِ: حُضُورُ الْقَلْبِ فِي غَسْلِ الْأَعْضَاءِ، بَعْدَ الْقِيَامِ بِمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ. سَمِعْتُ بَعْضَ الصَّالِحِينَ يَقُولُ: إِذَا حَضَرَ [١/٣٥] الْقَلْبُ فِي الْوُضُوءِ؛

= الاستحلاس: لزوم الأمر وعدم مفارقتة. الخفارة: الحماية. ومعنى العبارة: أن المصطفى ﷺ لم يزل ملازماً محلّ الحماية لرفع آدابه إلى أن رفعه مولاه تعالى أعلى مراقبي القرب، صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) قال الإمام أبو المظفر السمعاني في كتابه «القواطع» في أصول الفقه: إنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن (يحيى بن معاذ الرازي) يعني من قوله. ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص ٤١٩، وأفرد له السيوطي رسالة سماها: «القول الأشبه في حديث: من عرف نفسه فقد عرف ربه». مطبوعة في «الحاوي للفتاوي».

يحضرُ في الصَّلَاةِ، وإذا دَخَلَ السَّهْوُ في الوُضوءِ؛ دَخَلَتِ الوَسْوَسَةُ في الصَّلَاةِ.

ومن آدابِهِم: استدامةُ الوُضوءِ، فالوضوءُ سلاحُ المؤمنِ، والجوارحُ إذا كانت في حِمَايَةِ الوُضوءِ - الذي هو أثرُ شرعيٍّ - يَقِلُّ طُرُقُ الشَّيْطَانِ عَلَيْهَا.

ومن آدابِهِم: تركُ الإسرافِ في الماءِ، والوقوفُ على حَدِّ العِلْمِ. واستيفاءُ الصُّوفِيَّةِ في تطهيرِ البواطنِ من الصُّفَاتِ والأخلاقِ المَذْمُومَةِ، لا الاستيفاءُ في طَهَارَةِ الظَّاهِرِ إِلَى حَدِّ يُخْرِجُ عَنْ حَدِّ العِلْمِ.

فصل

[في لَذَاذَةِ الصَّلَاةِ]

في العبدِ اعوجاجٌ لوجودِ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ، وَسُبُحاتُ وجهِ اللَّهِ الكريمِ التي لو كَشَفَتْ حِجَابَهَا لأَحْرَقَتْ مَنْ أَدْرَكَتْهُ، يُصِيبُ بِهَا الْمُصَلِّي - مِنْ وَهَجِ السُّطُوَّةِ الإِلَهِيَّةِ والعِظَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ - ما يَزُولُ بِهِ اعوجاجُهُ، بل يَتَحَقَّقُ بِهِ مِغْرَاجُهُ. فالْمُصَلِّي كَالْمُصْطَلِي بالنَّارِ، والمُصْطَلِي بِنَارِ الصَّلَاةِ وَزَالَ بِهَا اعوجاجُهُ؛ لَمْ يُعْرَضْ عَلَى نَارِ جَهَنَّمَ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ.

فَالصَّلَاةُ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وما كَانَ صِلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ؛ فَحَقُّ الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ خَاشِعاً لَصَوْلَةِ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْعُبُودِيَّةِ.

وقد وَرَدَ: أَنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّى لشيءٍ خَضَعَ لَهُ^(١). وَمَنْ يَتَحَقَّقُ بِالصَّلَاةِ فِي

(١) وهو قوله ﷺ: «إِنَّ نَاساً مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَزْعُمُونَ...» وفي آخره: «... فإِذَا تَجَلَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لشيءٍ مِنْ خَلْقِهِ خَشَعَ لَهُ».

أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِي فِي «السَّنَنِ» (٢: ٦٤، ٦٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٤: ٢٦٧) وَاللَّفْظُ لَهُ، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ»، كِتَابُ =

الصَّلَاةُ؛ تَلَمَّعَ لَهُ طَلَائِعُ التَّجَلِّي؛ فَيَخْشَعُ.

وَالْمُصَلِّي سَائِرٌ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبِهِ، مُودَّعٌ هَوَاهُ وَدُنْيَاهُ وَكُلَّ شَيْءٍ سِوَاهُ.
وَالصَّلَاةُ فِي اللُّغَةِ هِيَ: الدُّعَاءُ، فَكَأَنَّ الْمُصَلِّيَ يَدْعُو اللَّهَ بِجَمِيعِ
جَوَارِحِهِ؛ فَصَارَتْ أَعْضَاؤُهُ كُلُّهَا أَلْسِنَةً يَدْعُو بِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَيُشَارِكُ
الظَّاهِرُ الْبَاطِنَ بِالتَّضَرُّعِ وَالتَّقَلُّبِ فِي الْهَيْثَاتِ، بِتَمَلُّقَاتٍ مُتَضَرِّعٍ سَائِلٍ مُحْتَاجٍ،
فَإِذَا دَعَا بِكُلِّيَّتِهِ أَجَابَهُ مَوْلَاهُ؛ لِأَنَّهُ وَعَدَهُ فَقَالَ: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].
أَمَرَهُمُ بِالْدُّعَاءِ وَوَعَدَهُمْ [٣٥/ب] بِالْإِجَابَةِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا شَرْطٌ.

وَالِاسْتِجَابَةُ وَالْإِجَابَةُ هِيَ: نَفْذُ دَعَاءِ الْعَبْدِ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ الصَّادِقَ الْعَالِمَ
بِمَنْ يَدْعُوهُ بِنُورٍ يَقِينِهِ، تَخْرِقُ دَعْوَتُهُ الْحُجُبَ، وَتَقِفُ الدَّعْوَةُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ مُتَقَاضِيَةً لِلْحَاجَةِ.

وَحَصَّنَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَفِيهَا تَقْدِيمُ الثَّنَاءِ عَلَى الدُّعَاءِ؛
لِيَكُونَ أَسْرَعَ إِلَى الْإِجَابَةِ، وَهِيَ تَعْلِيمُ اللَّهِ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ الدُّعَاءِ.

فصل

[فِي وَصْفِ صَلَاةِ أَهْلِ الْقُرْبِ]

إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا قَالَ: (اللَّهُ أَكْبَرُ) غَابَ فِي مُطَالَعَةِ الْعِظَمَةِ وَالْكِبرِيَاءِ،
وَامْتَلَأَ بَاطِنُهُ نُورًا، وَصَارَ الْكَوْنُ بِأَسْرِهِ — فِي فُضَاءٍ شَرَحَ صَدْرُهُ — كَخَرْدَلَةٍ
بَارِضٍ قَلَاةٍ، ثُمَّ تَلَقَّى الْخَرْدَلَةَ، فَمَنْ يَخْشَى مِنَ الْوَسْوَسةِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ وَمَا
يُتَخَايَلُ فِي الْبَاطِنِ؛ هُوَ مِنَ الْكَوْنِ الَّذِي صَارَ بِمِثَابَةِ الْخَرْدَلَةِ وَالْقَيْتِ.

= الكسوف، باب ١٦ (رقم ١٤٨٥)، وابن ماجه (رقم ١٢٦٢)، والحاكم في
«المستدرک» (١: ٣٣٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١: ٣٣٠)، من
حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

فكيف تُزاحمُ الوسوسةُ [وحديثُ النفسِ] مثلَ هذا العبد؟
وقد تُزاحمُ مُطالعةُ العظمةِ القلبِ، والقلبُ يُمَيِّزُ بالنيَّةِ، فتكونُ النيَّةُ
موجودةً بالطَّفِ صِفَاتِهَا، مُنْدَرِجَةً فِي نورِ العظمةِ اندراجَ الكواكبِ فِي ضوءِ
الشمسِ.

ثُمَّ إِذَا اسْتَوْلَتْ جَوَازِبُ الرُّوحِ، وَتَمَلَّكَتْ: مِنَ الْفَرْقِ إِلَى الْقَدَمِ عِنْدَ
كَمَالِ الْأَنْسِ، وَتَحَقَّقَ قُرَّةُ الْعَيْنِ، وَاسْتِيْلَاءُ سُلْطَانِ الْمُشَاهَدَةِ، تَصِيرُ النَّفْسُ
مَقْهُورَةً ذَلِيلَةً، وَيَسْتَنِيرُ مَرْكَزُهَا بنورِ الرُّوحِ، فَيَنْقَطِعُ حَيْثُذُ جَوَازِبِ النَّفْسِ،
وَعَلَى قَدَرِ اسْتِنَارَةِ مَرْكَزِ النَّفْسِ؛ يَزُولُ كُلُّ الْعِبَادَةِ^(١)، وَيَسْتَغْنِي [حَيْثُذُ] عَنِ
مُقَاوَمَةِ النَّفْسِ وَمَنْعِ جَوَازِبِهَا.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا أَقْبَلَ [عَلَى اللَّهِ] فِي صَلَاتِهِ يَتَحَقَّقُ مَعْنَى الْإِنَابَةِ؛
فَيُنِيبُ إِلَى اللَّهِ، وَيَتَّقِي اللَّهَ بِالتَّبَرِّي عَمَّا سِوَاهُ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ بِصَدْرِ مُنْشَرِحٍ
بِالإِسْلَامِ، وَقَلْبٍ مُنْفَسِحٍ بنورِ الإِنْعَامِ، فَتَخْرُجُ الْكَلِمَةُ فِي فضاءِ قَلْبٍ لَيْسَ فِيهِ
غَيْرُهَا، فَيَتَمَلَّكُهَا الْقَلْبُ بِحُسْنِ الْفَهْمِ، وَلِذَاذَةِ الإِصْغَاءِ، وَيَتَشَرَّبُهَا بِحَلَاوَةِ
الاسْتِمَاعِ [١/٣٦] وَكَمَالِ الْوَعْيِ، وَيَدْرِكُ مِنْ لَطِيفِ مَعْنَاهَا وَشَرِيفِ نَجْوَاهَا
مَعَانِي تَلَطَّفَ عَنْ تَفْصِيلِ الذِّكْرِ، وَتَتَشَكَّلُ بِخَفِيِّ الْفِكْرِ.

فَمِنَ السَّاجِدِينَ مَنْ يُكَاشِفُ أَنَّهُ يَهْوِي إِلَى تَحُومِ الْأَرْضِينَ، مَتَغِيًّا فِي
أَجْزَاءِ الْمُلْكِ؛ لَامِتْلَاءٍ قَلْبِهِ مِنَ الْحَيَاءِ، وَاسْتِشْعَارِ رُوحِهِ عَظِيمِ الْكِبَرِيَاءِ.

وَمِنَ السَّاجِدِينَ مَنْ يُكَاشِفُ أَنَّهُ يَطْوِي بِسَاطِ الْكُونِ وَالْمَكَانِ، وَيَسْرَحُ
قَلْبُهُ فِي فضاءِ الْكَشْفِ وَالْعِيَانِ، فِيَهْوِي دُونَ هَوِيهِ أَطْبَاقُ السَّمَاوَاتِ، وَتَنْمِجِي
لِقُوَّةِ شُهُودِهِ تَمَائِيلُ الْكَائِنَاتِ، وَيَسْجُدُ عَلَى طَرَفِ رِذَائِ الْعَظَمَةِ، وَذَلِكَ أَقْصَى

(١) كُلُّ الْعِبَادَةِ (بِفَتْحِ الْكَافِ): تَعْبُهَا وَإِرْهَاقُهَا.

ما ينتهي إليه طائرُ الهمةِ البشريَّةِ، وتُفي بالوصولِ إليه القوىُ الإنسانيَّةُ .
وتتفاوتُ الأنبياءُ والأولياءُ في مراتبِ العظمةِ، واستشعارِ كُنْهها، لكلِّ
مِنْهُمْ على قَدْرِه حظٌّ من ذلك، ﴿وَقَوْكَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٧٦].
فالإمامُ في الصَّلَاةِ مقدِّمةُ الصَّفِّ في مُحارِبَةِ الشَّيْطَانِ؛ فهو أَوْلَى المصلِّينَ
بالخُشُوعِ، والإتيانِ بوظائفِ الآدابِ ظاهراً وباطناً، والمصلُّونَ المتيقِّظونَ كما
اجتمعتْ ظواهرُهُم تجتمعُ بواطنُهُم، ويتناصَّرونَ ويتعاضَّدونَ، وتسري من
البعضِ إلى البعضِ أنوارُ وبركاتُ . بل جميعُ المؤمنينَ المصلِّينَ في أقطارِ الأرضِ
بينَهُم تعاضُّدٌ وتناصُّرٌ بحسَبِ القلوبِ، ونسَبِ الإسلامِ، ورابطةِ الإيمانِ .

فصلٌ

[في أحسنِ آدابِ الصَّلَاةِ]

[أحسنُ] آدابِ المصلِّي: أن لا يكونَ مشغولَ القلبِ بشيءٍ، قلَّ أو كَثُرَ؛
لأنَّ الأكياسَ لم يرفضوا الدُّنيا إلا ليقِيمُوا الصَّلَاةَ كما أمرُوا؛ لأنَّ الدُّنيا
وأشغالُها لَمَّا كانتْ شاغِلةً للقلبِ رفضوها؛ غيرةً على محلِّ المُناجاةِ، ورغبةً
في أوطانِ القُرْبَاتِ، وإذعاناً بالباطنِ لربِّ البرِّيَّاتِ [٣٦/ب]، فيجتنبُ أن يكونَ
باطنُهُ مرتَهناً بشيءٍ من الدُّنيا .

و[لا] يدخلُ في الصَّلَاةِ إلا وهوَ على أتمِّ الهيئاتِ: وأحسنُ لبسةِ
المصلِّي: سكونُ الأطرافِ، وعدمُ الالتفاتِ، والإطراقُ، ووضعُ اليمينِ على
الشَّمالِ؛ فما أحسنُها من هيئةٍ عبدٍ ذليلٍ، واقفٍ بين يدي عزيزٍ مُقتدرٍ .

فصلٌ

[في جلالِ الصَّدَقِ]

أهلُ الصَّدَقِ لَهُم نياتٌ فيما يفعلونَ، فلا يعارضونَ . والصَّدَقُ محمودٌ

لَعَيْنِهِ كَيْفَ كَانَ. وَالصَّادِقُ فِي خِفَارَةِ صَدَقِهِ كَيْفَ تَقَلَّبَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ قَطُّ إِلَّا أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ فِي جُحِّ لَا يُعْرِفُ.

وقال: النَّفْسُ مِنْ طَبِيعِهَا أَنَّهَا إِذَا قَهَرَتْ لِلَّهِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ عَلَى الضَّرُورَةِ؛ تَأْدَى ذَلِكَ إِلَى سَائِرِ أَحْوَالِهَا، فَيَصِيرُ الْأَكْلُ ضَرُورَةً، وَالنَّوْمُ ضَرُورَةً، وَالْقَوْلُ وَالْفِعْلُ ضَرُورَةً، وَهَذَا بَابٌ كَبِيرٌ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ لِأَهْلِ اللَّهِ تَجِبُ رِعَايَتُهُ وَافْتِقَادُهُ.

وَلَا يُخَصُّ بِعِلْمِ الضَّرُورَةِ وَفَائِدَتِهَا وَطَلِبِهَا، إِلَّا عَبْدٌ يَرِيدُ أَنْ يَقْرُبَهُ اللَّهُ وَيُذْنِبَهُ، وَيَضْطَفِيَهُ وَيُرَبِّيَهُ.

فصل

[وَمِنْ صِفَاتِ الْقَوْمِ]

الصُّوفِيُّ: الَّذِي لَا يَرْجِعُ إِلَى مَعْلُومٍ، وَلَا يَدْرِي مَتَى يُسَاقُ [إِلَيْهِ] الرِّزْقُ، فَإِذَا سَاقَ اللَّهُ إِلَيْهِ الرِّزْقَ تَنَاوَلَهُ بِالْأَدَبِ. وَهُوَ دَائِمُ الْمُرَاقَبَةِ لَوْقَتِهِ، فَهُوَ فِي إِقْتَارِهِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي لَهُ مَعْلُومٌ مُعَدٌّ، فَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ يَصُونُ؛ فَقَدْ أَكْمَلَ الْفَضْلَ، وَأَمَرَ الْقَوْمَ مَبْنَاهُ عَلَى الْإِنْفَاقِ وَالصَّدَقِ.

وَمِنَ الصَّدَقِ: افْتِقَادُ النِّيَّةِ، وَأَحْوَالِ النَّفْسِ، فَكُلُّ مَا صَحَّتِ النِّيَّةُ فِيهِ مِنَ الصَّوْمِ وَالْإِفْطَارِ وَالْمُوَافَقَةِ هُوَ الْأَفْضَلُ.

الصُّوفِيُّ بِحَسَنِ نِيَّتِهِ، وَصَحَّةِ مَقْصِدِهِ، وَوَفُورِ عِلْمِهِ، وَإِتْيَانِهِ [١/٣٧] بِأَدَبِهِ؛ تَصِيرُ عَادَاتُهُ عِبَادَةً.

الصُّوفِيُّ مُوَهَّبٌ وَقْتُهُ لِلَّهِ، وَيَرِيدُ حَيَاتَهُ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْمَالِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فَتَدْخُلُ عَلَى الصُّوفِيِّ أُمُورُ الْعَادَةِ لِمَوْضِعِ حَاجَتِهِ وَضَرُورَةِ بَشَرِيَّتِهِ، وَيُخَفَّفُ بِعَادَاتِهِ نُورُ

يَقْظِيهِ وَحُسْنُ نِيَّتِهِ، فَتَتَنَوَّرُ الْعَادَاتُ وَتَتَشَكَّلُ بِالْعِبَادَاتِ، وَلِهَذَا وَرَدَ: «نَوْمُ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ وَنَفْسُهُ تَسْبِيحٌ»^(١).

هذا مع كون النوم عين الغفلة، ولكن كل ما يُستعان به على العبادة يكون عبادة.

واسمُ الله دواءٌ نافعٌ مجربٌ، يقي الأسواء، ويذهبُ الدَّاءَ، ويجلبُ الشِّفاءَ.

ولُبُّ الناعم لا يصلحُ إلا لعالم بحاله، بصير بصفات نفسه، متفقّد خفيّ شهوات النفس، يلقي الله بحسن النية في ذلك، فلحُسن النية في ذلك وجوهٌ متعدّدة يطول شرحها.

ومن الناس من يلبس ما يدخل الحق عليه؛ فيكون بحكم الوقت، وهذا حسنٌ إذا كان حاله مع الله ترك الاختيار، ف (عند ذلك) لا يسعه إلا أن يلبس الثوب الذي ساقه الله إليه. وكلُّ أحوال الصادقين - على اختلاف تنوعها - مُستَحسنةٌ.

فصل

[في صلاة الليل]

التعاسُ قسَمٌ صالحٌ من الأقسام العاجلة للمريدين، وهو أمانةٌ لقلوبهم

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» (١ : ٣٤٣) : المعروف فيه الصائم دون العالم، وقد تقدم في الصوم. انتهى. قال في «كتاب أسرار الصوم» (١ : ٢٣١) : رويناه في أمالي ابن منده، من رواية ابن المغيرة القواس، عن عبد الله بن عمر بسندٍ ضعيف، ولعله عبد الله بن عمرو؛ فإنهم لم يذكروا لابن المغيرة رواية إلا عنه. ورواه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» (رقم ٦٧٣٤)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى، وفيه سليمان بن عمرو النخعي أحد الكذابين. انتهى.

عَنْ مُنَازَعَاتِ النَّفْسِ ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ - بِالنَّوْمِ - تَسْتَرِيحُ وَلَا تَشْكُو الْكَلَالَ
وَالْتَّعَبَ ؛ إِذْ فِي شِكَايَتِهَا وَتَعَبِهَا تَكْدِيرُ الْقَلْبِ ، وَبِاسْتِرَاحَتِهَا بِالنَّوْمِ - بِشَرِطِ
الْعِلْمِ وَالْإِعْتِدَالِ - رَاحَةُ الْقَلْبِ ، لِمَا بَيْنَ الْقَلْبِ [٢٧/ب] وَالنَّفْسِ مِنَ الْمُوَاطَّاةِ
عِنْدَ طَمَأْنِينَتِهَا لِلْمُرِيدِينَ السَّالِكِينَ .

فَقَدْ قِيلَ : يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ثَلَاثُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ نَوْمًا ؛ حَتَّى لَا يَضْطَرِبَ
الْجَسَدُ ، [فِيكَونُ ثَمَانِ سَاعَاتٍ لِلنَّوْمِ : سَاعَتَيْنِ مِنْ ذَلِكَ يَجْعَلُهُمَا الْمُرِيدُ بِالنَّهَارِ ،
وَسِتَّ سَاعَاتٍ بِاللَّيْلِ] ، وَقَدْ يَكُونُ بِحُسْنِ الْإِرَادَةِ ، وَصَدَقِ الطَّلَبُ ، يَنْقُصُ
النَّوْمُ عَنْ قَدْرِ الثَّلَاثِ ، وَلَا يَضُرُّ ذَلِكَ إِذَا صَارَ بِالتَّدْرِيجِ عَادَةً ، وَقَدْ يَحْمِلُ ثِقَلَ
السَّهْرِ ، وَقِلَّةُ النَّوْمِ : وَجُودُ الرُّوحِ وَالْأَنْسِ ؛ فَإِنَّ النَّوْمَ طَبْعُهُ بَارِدٌ رَطْبٌ يَنْفَعُ
الْجَسَدَ وَالْدُّمَاعَ ، وَيُسْكِنُ مِنَ الْحَرَارَةِ وَالْيُبْسِ الْحَادِثِ فِي الْمِزَاجِ ، فَإِنْ نَقَصَ
عَنِ الثَّلَاثِ يَضُرُّ بِالدُّمَاعِ ، وَيُخْشَى مِنْهُ اضْطِرَابُ الْجِسْمِ .

فَإِذَا نَابَ عَنِ النَّوْمِ رَوْحُ الْقَلْبِ وَأَنْسُهُ ، لَا يَضُرُّ نُقْصَانُهُ ؛ لِأَنَّ طَبِيعَةَ الرُّوحِ
وَالْأَنْسِ بَارِدٌ رَطْبٌ كَطَبِيعَةِ النَّوْمِ . وَقَدْ تَقْصُرُ مَدَّةُ طَوْلِ اللَّيْلِ بِوَجُودِ الرُّوحِ ،
فَتَصِيرُ بِالرُّوحِ أَوْقَاتُ اللَّيْلِ الطَّوِيلَةُ كَالْقَصِيرَةِ . كَمَا يُقَالُ : سَنَةُ الْوَصْلِ سِنَةٌ ،
وَسَنَةُ الْهَجْرِ سِنَةٌ ؛ فَيَصِيرُ اللَّيْلُ لِأَهْلِ الرُّوحِ قَصِيرًا .

الْمُرِيدُ إِذَا خَلَا فِي لَيْلِهِ بِمَنَاجَاةِ رَبِّهِ ، انْتَشَرَتْ أَنْوَارُ لَيْلِهِ عَلَى جَمِيعِ
[أَجْزَاءِ نَهَارِهِ ، وَيَصِيرُ نَهَارُهُ فِي حِمَايَةِ لَيْلِهِ ، وَذَلِكَ لَامْتِلَاءِ] قَلْبِهِ بِالْأَنْوَارِ ؛
فَتَكُونُ حَرَكَاتُهُ وَتَصَارِيفُهُ بِالنَّهَارِ تَصْدُرُ مِنْ مَنَبَعِ الْأَنْوَارِ الْمَجْتَمِعَةِ مِنَ اللَّيْلِ ،
وَيَصِيرُ قَالِبُهُ فِي قُبَّةٍ مِنْ قِبَابِ الْحَقِّ ، مُسَدَّدَةً حَرَكَاتُهُ ، مُوقَّرةً سَكَنَاتِهِ .

وَقَدْ وَرَدَ [مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ] ^(١) : «مَنْ صَلَّى بِاللَّيْلِ ، حَسُنَ وَجْهُهُ

بالتَّهَارِ^(١).

[ويجوزُ أن يكونَ بمعنيين، أحدهما]: أن العِشْكَاءَ تَسْتَبِيرُ بِالمِصْبَاحِ، فإذا صارَ سِرَاجُ اليَقِينِ في القلبِ يَزْهَرُ بِكثرةِ زيتِ العَمَلِ اللَّيْلِ، يزدادُ المِصْبَاحُ إشراقاً، وتكتسِبُ مشكاةُ القلبِ نوراً وضياءً. [١/٣٨].

قال سهلُ بنُ عبدِ الله: اليَقِينُ نارٌ والإقْرَارُ قَتِيلَةٌ والعَمَلُ زَيْتٌ. قال تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

فنورُ اليَقِينِ من نورِ الله، في زجاجةِ القلبِ كالكوْكَبِ الدَّرِّيِّ، وتنعكسُ أنوارُ الزُّجَاجَةِ على مشكاةِ القلبِ. وأيضاً، يلينُ القلبُ بنارِ النُّورِ، وَيَسْرِي لِينُهُ إِلَى القَالِبِ، فيلينُ القَالِبُ لِلَّيْنِ القلبِ فَيَتَشَابَهُانِ لوجودِ اللَّيْنِ الذي عَمَّهُمَا. قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]: وصفَ الجلودَ باللَّيْنِ كما وصفَ القلوبَ باللَّيْنِ، فإذا امتلأ القلبُ بالنورِ، ولأنَّ القَالِبَ بما سَرَى فِيهِ مِنَ الْأَنْسِ وَالشُّرُورِ، يندرجُ المكانُ والزمانُ في نورِ القلبِ، فيندرجُ فِيهِ الْكَلِمُ وَالْآيَاتُ وَالشُّورُ، وتُشْرِقُ الْأَرْضُ — أَرْضُ القَالِبِ — بنورِ رَبِّهَا، إذ يَصِيرُ القلبُ سماءً، والقَالِبُ أرضاً. وَلَذَٰهُ تِلَاوَةُ كَلَامِ اللَّهِ فِي مَحَلِّ الْمُنَاجَاةِ تَسْتَرُ كَوْنَ الْكَائِنَاتِ، والكلامُ المَجِيدُ لكونِهِ يَنُوبُ عَنْ سَائِرِ الوجودِ فِي مُزَاحِمَةِ صَفْوِ الشُّهُودِ، فلا يَبْقَى حَيْثُ لِلنَّفْسِ [حديثٌ]، ولا يُسْمَعُ لِلْمُهَاجِسِ حَسِيسٌ، وفي مثلِ هذِهِ الْحَالِ تُتَصَوَّرُ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ — مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ — مِنْ غَيْرِ

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (رقم ١٣٢٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (رقم ٤٠٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣: ٣٨).

وليس بحديث، إنما هو قولٌ أشبه على بعض الرواة فجعله حديثاً، على ذلك اتفق المحدثون، ومثلوا به في كتب مصطلح الحديث على (الموضوع) غير المقصود.

وسوسةٍ وحديثٍ نفسٍ، وذلك هو الفوز العظيم.

والوجه الثاني [لِمَا وردَ عن بعضهم]: «مَنْ صَلَّى بِاللَّيْلِ حَسَنَ وَجْهَهُ
بِالنَّهَارِ»:

أَنَّ الْأُمُورَ الَّتِي يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا تَحْسُنُ، وَتَتَذَارَكُهُ، [٣٨/ب] الْمَعُونَةُ مِنَ اللَّهِ
الكَرِيمِ فِي تَصَارُيفِهِ، وَيَكُونُ مُعَانًا فِي مَصْدَرِهِ وَمَوْرِدِهِ، فَيَحْسُنُ وَجْهَهُ مَقَاصِدِهِ
[وَأَفْعَالِهِ]، وَيَنْتَظِمُ فِي سَبِيلِ السَّدَادِ، مَسْدَدَةً أَقْوَالَهُ؛ لِأَنَّ الْأَقْوَالَ تَسْتَقِيمُ
بِاسْتِقَامَةِ الْقَلْبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

[فِيمَا يُعِينُ عَلَى الْقِيَامِ]

[فَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ] يُوَاصِلَ بَيْنَ الْعِشَاءِ بَيْنَ الصَّلَاةِ أَوْ بِالنَّسْلَاوَةِ أَوْ الذُّكْرِ،
وَأَفْضَلُ ذَلِكَ الصَّلَاةُ. فَإِنَّهُ إِذَا وَاصَلَ بَيْنَهُمَا يَنْغَسِلُ عَنْ بَاطِنِهِ أَثَرُ الْكُدُورَةِ
الْحَادِثَةِ فِي أَوْقَاتِ النَّهَارِ، مِنْ رُؤْيَةِ الْخَلْقِ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَسَمَاعِ كَلَامِهِمْ؛ فَإِنَّ
ذَلِكَ كُلَّهُ لَهُ أَثَرٌ وَخُدُوشٌ فِي الْقَلْبِ، حَتَّى أَنْ النَّظَرَ إِلَيْهِمْ فِي عَيْنِ الْبَصِيرَةِ
كَالْقَذَى فِي الْعَيْنِ لِلْبَصَرِ، وَبِالْمُوَاصَلَةِ بَيْنَهُمَا يُرْجَى ذَهَابُ ذَلِكَ الْأَثَرِ.

وَيَتْرُكُ الْحَدِيثَ بَعْدَ الْعِشَاءِ [الْآخِرَةَ]؛ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ طَرَاوَةَ الثُّورِ الْحَادِثِ
فِي الْقَلْبِ مِنْ تِلْكَ الْمُوَاصَلَةِ، وَيُقْعِدُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ.

وَالنَّوْمُ عَنِ الْغَلَبَةِ هُوَ الَّذِي يَصْلُحُ لِلْمُرِيدِينَ وَالطَّالِبِينَ. وَبِهَذَا وَصِفَ
الْمُحِبُّونَ، فَقِيلَ: نَوْمُهُمْ نَوْمُ الْغَرَقَى، وَأَكْلُهُمْ أَكْلُ الْمَرْضَى، وَكَلَامُهُمْ
ضُرُورَةٌ.

وَالْكُسْلُ وَالتَّقَاعْدُ وَالتَّنَاوُمُ طَبِيعَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، فَأَرْبَابُ الْهِمَّةِ أَهْلُ الْعِلْمِ
أَزْعَجُوا النُّفُوسَ عَنْ مَقَارِ طَبِيعَتِهَا، وَرَفَقُوا بِالنَّظَرِ إِلَى اللَّذَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ، إِلَى

ذُرِّي حَقِيقَتِهَا، فَتَجَاوَزَتْ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ، [وَخَرَجُوا مِنْ صِفَةِ الْغَافِلِ
الْهَاجِعِ].

فصل

[فِي طَهَارَةِ الْبَاطِنِ]

الطَّهَارَةُ الَّتِي تُثْمِرُ صِدْقَ الرُّؤْيَا: طَهَارَةُ الْبَاطِنِ مِنْ خُدُوشِ الْهَوَى،
وَكُدُورَةِ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، وَالنَّقَاءُ عَنِ أَنْجَاسِ الْغِلِّ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ.
وَقَدْ وَرَدَ: «مَنْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ لَا يَنْوِي ظُلْمَ أَحَدٍ، وَلَا يَحْقِدُ عَلَى أَحَدٍ،
غُفِرَ لَهُ مَا اجْتَرَمَ»^(١).

وَإِذَا طَهُرَتِ النَّفْسُ عَنِ الرَّذَائِلِ؛ انْجَلَسَتْ مِرَاةَ الْقَلْبِ، وَقَابَلَ اللَّوْحَ
الْمَحْفُوظَ فِي النَّوْمِ، وَانْتَقَشَتْ فِيهِ عَجَائِبُ الْغَيْبِ وَغَرَائِبُ الْأَنْبَاءِ، فَفِي
الصُّدُوفِ مَنْ يَكُونُ لَهُ فِي مَنَامِهِ مَكَالِمَةٌ وَمُحَادَثَةٌ، وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ وَيَنْهَاهُ وَيُفْهِمُهُ فِي
الْمَنَامِ أَوْ أَمْرَ خَاصَّةٍ تَتَمَلَّقُ بِحَالِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، فَإِذَا أَخْلَّ بِهَا يَخْشَى أَنْ
يَنْقَطِعَ عَلَيْهِ طَرِيقُ الْإِرَادَةِ، وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الرُّجُوعُ عَنِ اللَّهِ وَاسْتِجَابُ [مَقَامِ]
الْمَقْتِ.

فصل

[آدَابُ الْاسْتِيقَازِ]

إِذَا اسْتِيقَظَ مِنَ النَّوْمِ فَيَمُنْ أَحْسَنَ الْآدَابِ عِنْدَ الْإِسْتِيقَازِ: أَنْ يَذْهَبَ
— بِبَاطِنِهِ — إِلَى اللَّهِ، وَيَصْرِفَ فِكْرَهُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَجُولَ الْفِكْرُ فِي شَيْءٍ

(١) رَوَاهُ ابْنُ شَاهِينَ فِي «الْتَرغيب» (رَقْم ٥٢٢)، وَفِي إِسْنَادِهِ إِسْحَاقُ بْنُ مَرَّةٍ، وَعَنْبَسَةُ،
كِلَاهُمَا مَتْرُوكٌ.

سِوَى اللَّهِ. وَيَشْغَلُ اللُّسَانَ بالذكر، فالصَّادِقُ كالطُّفْلِ الْكَافِ^(١) بِالشَّيْءِ: إِذَا نَامَ يَنَامُ عَلَى مَحَبَّةِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي كَانَ كَلِيفاً بِهِ، وَعَلَى حَسْبِ هَذَا الْكَلِيفِ وَالشُّغْلِ يَكُونُ الْمَوْتُ وَالْقِيَامُ إِلَى الْحَشْرِ، فَلْيَنْظُرْ وَيَعْتَبِرْ عِنْدَ انْتِبَاهِهِ [مَنْ النُّومُ] مَا هُمُّهُ، فَإِنَّ هَكَذَا يَكُونُ هَمُّهُ عِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ الْقَبْرِ، إِنْ كَانَ هَمُّهُ اللَّهُ، وَإِلَّا فَهَمُّهُ غَيْرُ اللَّهِ.

وَالْعَبْدُ إِذَا انْتَبَهَ مِنَ النَّوْمِ فَبَاطِنُهُ عَائِدٌ إِلَى [طَهَارَةِ] الْفِطْرَةِ، فَلَا يَدْعُ الْبَاطِنَ يَتَغَيَّرُ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ حَتَّى لَا يَذْهَبَ عَنْهُ نَوْرُ الْفِطْرَةِ الَّذِي انْتَبَهَ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ فَارِغاً إِلَى رَبِّهِ بِبَاطِنِهِ خَوْفاً عَلَيْهِ مِنْ ذِكْرِ الْأَغْيَارِ، وَمَعَهُمَا وَفَى الْبَاطِنُ بِهَذَا الْمَعْيَارِ فَقَدْ نَقَى طَرِيقَ الْأَنْوَارِ وَطَرَّقَ لِلتَّفَحَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ^(٢)، فَجَدِيرٌ أَنْ تَنْصَبَ إِلَيْهِ أَقْسَامُ اللَّيْلِ انْصِبَاباً [٣٩/ب] وَيَصِيرَ جَنَابُ الْقُرْبِ لَهُ مَوْثِلاً وَمَأْبَأً. وَيَقُولُ بِاللُّسَانِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ، وَيَقْرَأُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

فصل

[فِي مَا يُخِلُّ بِقِيَامِ اللَّيْلِ]

لِلْخَوَاصِّ وَأَهْلِ الْعَزِيمَةِ مُطَالِبَاتٌ مِنْ بَوَاطِينِهِمْ تَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِالْأُولَى، وَتُلْجِئُهُمْ إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِ الْأَعْلَى.

فَكَمْ مِنْ نَائِمٍ سَبَقَ الْقَائِمُ، لَوْفُورٍ عَلَيْهِ، وَحُسْنِ نَيْتِهِ.

وَالَّذِي يُخِلُّ بِقِيَامِ اللَّيْلِ كَثْرَةُ الْاهْتِمَامِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا، وَكَثْرَةُ أَشْغَالِ الدُّنْيَا،

(١) الْكَالِفُ: اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الْكَالَفِ، وَهُوَ: الْوَلَعُ بِالشَّيْءِ وَشِدَّةُ حُبِّهِ.

(٢) (طَرَّقَ) كَذَا فِي الْمَخْطُوطِ، وَفِي «الْعَوَارِفِ» (٢: ٦٥٤)، وَلَعَلَّ مَعْنَاهُ: اتَّخَذَ الطَّرِيقَ وَمَهَّدَهَا لَوُرُودِ التَّفَحَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ.

وإتعاَبُ الجوارِحِ، والامتلاءُ من الطَّعامِ، وكثرةُ الحديثِ واللَّغوِ واللَّغَطِ، وإهمالُ القِيلُولَةِ.

والموقِفُ مَنْ يَغْتَنِمُ وَقْتَهُ، ويعرفُ دَاءَهُ ودَوَاءَهُ، ولا يُهَيِّلُ فِيهِمَلٍ.
وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فِي الدُّنْيَا شُغْلٌ، وقد تَرَكَهَا عَلَى أَهْلِهَا، فما بِالْهُ يَتَبَطَّلُ ولا يَتَنَعَّمُ بِخِدْمَةِ اللَّهِ؟

قال سهل: لا يَكْمَلُ شُغْلُ قَلْبٍ عَبْدٍ بِاللَّهِ الْكَرِيمِ وَلَهُ فِي الدُّنْيَا حَاجَةٌ.

فصل

[وَمِنْ فَوَائِدِ النُّومِ]

النَّفْسُ إِذَا اسْتَرَاخَتْ عَادَتْ جَدِيدَةً. فَإِنْ وَجَدَ فِي بَاطِنِهِ كَذْرًا مِنْ مُخَالَطَةِ
أَوْ مُجَالَسَةِ أَتَفَقَّتْ، يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، وَلَا يَشْرَعُ فِي الصَّلَاةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
يَجِدَ الْبَاطِنَ عَائِدًا إِلَى حَالِهِ مِنَ الصَّفَاءِ.

وَالَّذَانِ قُورَ حَلَاوَةِ الْمُتَنَاجَاةِ، وَصَفْوِ الْأَنْسِ فِي الصَّلَاةِ، يَتَكَدَّرُونَ بِبَسِيرِ
مَنْ الْأَسْتِرْسَالِ فِي الْمُبَاحِ، وَنَصِيرِ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ مِنْ ذَلِكَ عُقْدٌ وَكَدَرٌ. وَقَدْ
يَكُونُ ذَلِكَ لِمَجَرَّدِ الْمُخَالَطَةِ وَالْمُجَالَسَةِ مَعَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، مَعَ كَوْنِ ذَلِكَ
عِبَادَةً، وَلَكِنْ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ.

فَلَا يَدْخُلُ الصَّلَاةَ إِلَّا بَعْدَ حُلِّ الْعُقْدِ، وَإِذْهَابِ الْكُدُورَةِ، وَحُلِّ [١/٤٠]
الْعُقْدِ بِصَدَقِ الْإِنَابَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ. وَدَوَاءُ مَا يَحْدُثُ مِنْ
الْكَدَرِ — بِمُجَالَسَةِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدَانِ —: أَنْ يَكُونَ فِي مُجَالَسَتِهِ غَيْرَ رَاكِنٍ إِلَيْهِمْ
كُلُّ الرُّكُونِ، بَلْ يَسْتَرِقُ الْقَلْبُ فِي ذَلِكَ نَظْرَاتٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَتَكُونُ النَّظَرَاتُ
كَفَارَةً تِلْكَ الْمُجَالَسَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَوِيَّ الْحَالِ، لَا يَحْجُبُهُ الْخَلْقُ عَنِ الْحَقِّ،
فَلَا يَنْعِقِدُ عَلَى بَاطِنِهِ عُقْدَةً.

فهو كما يدخل في الصلاة يجدها، ويجد باطنه وقلبه؛ لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة، كان استرواح نفسه مُنغمساً بروح قلبه؛ لأنه يُجالس ويخالط بعين ظاهره، ناظره إلى الخلق، وعين قلبه مُطالعة إلى الحضرة الإلهية، فلا ينعقد على باطنه عقدة.

فصل

[في اشتدامة العمل]

من له همّة ناهضة، وعزيمة صادقة، لا يستكثر شيئاً لله تعالى.

والذؤوب في العمل واستيعاب أجزاء النهار بلذادة وحلاوة من غير سامة، لا يصح إلا لعبد تزكت نفسه بكمال التقوى، واستقصى في الزهد في الدنيا، وانزع منه متابعة الهوى. ومتى بقي على الشخص من التقوى [والزهد والهوى بقية]: لا يدوم رَوْحُه في العمل، [بل] ينشط وقتاً [ويَسْأَمُ وقتاً]، وتناوب النشاط والكسل فيه: لبقاء متابعة شيء من الهوى، بفقصان تقوى أو محبة دُنيا.

وإذا صحَّ في الزهد والتقوى، إن ترك العمل بالجوارح [٤٠/ب] لا يفتُر عن العمل بالقلب، فمن رآه دوام الروح، واستحلاء الذؤوب في العمل لئلا يفتُر، فعليه بحسم مادة الهوى، والهوى رَوْح النفس لا يزول، ولكن تزول مُتابعته.

والنبي ﷺ ما استعاذ إلا من متابعة الهوى لا من وجوده، فقال: «أعوذ بك من هوى متَّبَع»^(١)، ولا استعاذ من وجود الشَّح، بل استعاذ من طاعته،

(١) الوارد هو ما رواه أبو داود في «السنن»، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (رقم ٤٣٤١)، والترمذي في «جامعه»، أبواب تفسير القرآن، باب ٦، (رقم ٣٠٥٨)، =

فقال: «وشح مطاع».

ودقائق متابعه الهوى بتجاوز الاعتدال في التَّوَم والأكل، إلى غير ذلك من أقسام الهوى المتَّبِع، وهذا شغل [مَنْ ليس] لَهُ شُغْل [إِلَّا] في الدنيا.

فصل

[في مجالسة الأبرار]

أفضل من الأذكار والتلاوة مجالسة مَنْ يُرْهَدُ في الدنيا، وَيُسَيِّدُ كَلَامَهُ عُرَى السَّقْوَى من العلماء الزَّاهِدِينَ المتكلمين بما يَقْوِي عِزَّائِمَ المُرِيدِينَ، فإذا صَحَّت نِيَّةُ الْقَائِلِ وَالْمُسْتَمِعِ، فهذه المُجَالِسَةُ أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار، وإن عُدِمَتْ هذه المُجَالِسَةُ وتَعَذَّرَتْ، فليَتَرَوَّحْ بِالسَّنَقْلِ في أنواع الأذكار.

ويقول كلما خرج من منزله: بِسْمِ اللَّهِ، مَا شَاءَ اللَّهُ، حَسْبِيَ اللَّهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، اللَّهُمَّ إِلَيْكَ خَرَجْتُ وَأَنْتَ أَخْرَجْتَنِي.

فصل

[في آداب المُريد مع الشيخ]

آداب المُريدِينَ مع الشيوخ عند الصُّوفِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من مهام الآداب، وللقوم في ذلك اقتداء برسولِ اللَّهِ ﷺ.

= وابن ماجه في «السنن» (رقم ٤٠١٤)، والحاكم في «المستدرک» (٤ : ٣٢٢) من حديث أبي ثعلبة الخُثَنِيِّ، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾، فَقَالَ: «يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، مَرَوْا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًا مَطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا يَدُلُّكَ مِنْ طَلِبِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ».

أدبُ المريد مع الشيخ: أن يكونَ مسلوبَ [١/٤١] الاختيار، ولا يتصرفَ في نفسه وماله، إلا بمراجعة الشيخ وأمره.

وأدبه في مجلسه: أن يلزمَ السكوت، ولا يقول شيئاً بحضرة من كلام خشن، إلا إذا استأمره [الشيخ] ووجد [من الشيخ] فُسحةً له في ذلك.

وشأن [المريد في حضرة الشيخ] كمن هو قاعدٌ على ساحلٍ بحرٍ ينتظرُ رزقاً يساقُ إليه، فتطلعه إلى الاستماع وما يُرزق من كلام الشيخ، يُحققُ مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله. وتطلعه إلى القولِ برده عن مقام الطلب، والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه، وذلك جناية من المريد.

وينبغي أن يكونَ تطلعه إلى مُبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ، على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ، بل يُبادئه بما يريد؛ لأنَّ الشيخ يكونُ مستنطقاً، نطقه بالحق، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله، ويستمطرُ ويستسقي لهم، فيكونُ لسانه وقلبه — في القول والنطق — مأخوذَيْن إلى مُبهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح [به] عليه؛ لأنَّ الشيخ يعلمُ تطلعُ المطالب إلى قوله واعتداده بقوله، فالقول كالْبَذْرِ: يقع في الأرض، فإذا كان البذرُ فاسداً لا يربيع^(١). وفسادُ الكلمة [١/٤١] ب [بدخول الهوى فيها].

فالشيخ ينقي [بذر] الكلام عن شوب الهوى، ويُسلمه إلى الله، ويسأل الله المعونة والسداد، ثم يقول فيكونُ كلامه بالحق من الحق للحق.

فالشيخ للمريد أمينُ الإلهام، كما أنَّ جبريل أمينُ الوحي، فكما لا يخونُ

(١) الرِّيعُ، والرَّيْعَانُ: نموُّ الزرع وزيادته. ووقع في المخطوط: (بزرع) بدل (بريع)، وهو تحريف. ر: «المعارف» (٢: ٧٠٦).

جبريل في الوحي، لا يخون الشيخ في الإلهام، وكما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، فالشيخ مُقتد برسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً، لا يتكلم بهوى النفس.

وهوى النفس في القول يطلب الكلام: لاستجلاب القلوب، وصرف الوجوه إليه، واستحلاء الكلام والعُجب. وذلك جنابة^(١) عند المحققين.

والشيخ فيما يجري على لسانه راقِد النفس، تشغله مطالعة نعم الحق في ذلك، وأخذ الحظ من فوائده عن ظهور النفس بالاستحلاء والعُجب، ويكون فيما يجريه الحق [عليه] مستمعاً كأحد المستمعين.

فأحسن آداب المريدين مع الشيخ: الشُّكُون والخمود حتى يبادئه [الشيخ] بما [له] فيه الصَّلاح قولاً وفِعلاً.

وينبغي للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ، بل يُحبُّ للشيخ كلَّ منزلة عالية، ويتمنى له عزيز المنع وغرائب المواهب، وبهذا يظهر جوهر المريدين في حُسن الإرادة.

وهذا يعزُّ في المريدين، فأرادته للشيخ تُعطيه فوق ما يتمنى لنفسه، ويكون قائماً بأدب الإرادة. قال السري^(٢): [حُسن] الأدب ترْجُمانُ العقل.

(١) في «العوارف» (٢: ٧٠٧): خيانة.

(٢) السري السقطي: هو سريُّ بن المغلس السَّقَطِي، كنيته: أبو الحسن، قيل: إنه خال الجنيد وأستاذه في الطريق، وصحب معروفاً الكرخي، وهو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد، وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيوخهم في وقته، وإليه ينتمي أكثر الطبقة الثانية. توفي سنة ٢٥١هـ. انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٤٨، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ١١٦).

وينبغي أن لا يَنْبَسِطَ مع الشَّيْخِ برفعِ الصَّوْتِ وكثرة الضَّحِكِ [١/٤٢] وكثرة الكلامِ إلا إذا بَسَطَهُ [الشَّيْخُ] .

وقَدْ يُنَازِلُ باطِنَ بعضِ المریدینَ مِنَ الحُرْمَةِ والوقارِ [مَنْ الشَّيْخُ] ما لا يستطيعُ [المریدُ] أنْ يُشَبِّحَ النَّظَرَ إلى الشَّيْخِ .

وقَدْ كُنْتُ أَحَمُّ، فیدخلُ عَلَيَّ عُمِّي وشيخي أبو النَّجِيبِ السَّهْرَوَرْدِي^(١) [رحمةُ اللَّهِ عليه] فيرْشَحُ جَسَدِي عرقاً، وكُنْتُ أتمنَّى العَرَقَ لتخفَّ الحُمَّى، [فكنتُ أَجدُ ذلكَ عندَ دخولِ الشَّيْخِ عَلَيَّ]، ويكونُ في قُدُومِهِ بركةٌ وشفاءٌ .

وإذا سَكَنَ الوقارُ القلبَ عَلِمَ اللُّسَانُ كَيْفِيَّةَ الخِطَابِ .

قال أبو عُثْمَان: الأدبُ عندَ الأكابرِ وفي مَجَالِسِ السَّادَاتِ مِنَ الأولياءِ، يبلُغُ بصاحبه إلى الدَّرَجَاتِ العُلَى، والخيرِ في العاقبةِ والأولى، ألا تَرَى إلى قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٥] .

فحقُّ المریدِ عِمارةُ الظَّاهِرِ والباطِنِ بالأدبِ مع الشَّيْخِ، فما يُنْكِرُهُ المریدُ: لِقَلَّةِ علمِهِ بحَقِيقَةِ ما يوجَدُ مِنَ الشَّيْخِ، فلِلشَّيْخِ في كلِّ شيءٍ عذرٌ بلسانِ العِلْمِ والحِكْمَةِ .

قال بعضُ المشايخِ: مَنْ لَمْ يُعْظَمْ حُرْمَةُ مَنْ تَأَدَّبَ بِهِ، حُرِمَ بركةُ ذلكَ الأدبِ .

واستغراقُ المریدِ في الشَّيْخِ بالنَّظَرِ إِلَيْهِ، ومطالعةُ مواردِ فضلِ اللَّهِ عَلَيْهِ، أنْجَعُ لَهُ مِنَ الإصْغَاءِ إلى السَّمَاعِ .

ومَنْ الأدبِ: أنْ لَا يَكُتُمَ عن الشَّيْخِ شيئاً مِنْ حالِهِ ومواهبِ الحقِّ عنده،

(١) أبو النجيب السهروردي، انظر ترجمته في مقدمة الكتاب .

وما يَظْهَرُ لَهُ مِنْ كُلِّ كَرَامَةٍ وَإِجَابَةٍ، وَيَكْشِفَ لَهُ مِنْ حَالِهِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ، وما يَسْتَحْيِي مِنْ كَشْفِهِ بِذِكْرِهِ إِيْمَاءً وَتَعْرِضاً، وَيَبْكِيهِ [٤٢/ب] يَصِيرُ عَلَى بَاطِنِهِ [مِنْهُ] عَقْدَةٌ فِي الطَّرِيقِ، وبِالْقَوْلِ مَعَهُ تَنْحَلُّ الْعُقْدُ وَتَزُولُ.

وَمَتَى كَانَ عِنْدَ الْمُرِيدِ تَطَلُّعٌ إِلَى شَيْخٍ آخَرَ، لَا تَصْفُو صُحْبَتُهُ، وَلَا يَنْفُذُ الْقَوْلُ فِيهِ، وَلَا يَسْتَعِدُّ بَاطِنُهُ لِسِرَابَةِ حَالِ الشَّيْخِ إِلَيْهِ. وَكَلِّمَا أَيْقَنَ تَفَرَّدَ الشَّيْخُ بِالْمَشِيخَةِ؛ عَرَفَ فَضْلَهُ وَقَوِيَّتَ مَحَبَّتِهِ.

وَالْمَحَبَّةُ وَالتَّأَلُّفُ هُوَ الْوَاسِطَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْخِ، وَعَلَى قَدْرِ قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ تَكُونُ سِرَابَةُ الْحَالِ؛ لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ عَلَامَةُ التَّعَارُفِ، وَالتَّعَارُفُ عَلَامَةُ الْجِنْسِيَّةِ، وَالْجِنْسِيَّةُ جَالِبَةٌ لِلْمُرِيدِ حَالِ الشَّيْخِ أَوْ بَعْضِ حَالِهِ.

وَمِنَ الْأَدَبِ: أَنْ يُرَاعِيَ خَطَرَاتِ الشَّيْخِ فِي جُزْئِيَّاتِ الْأُمُورِ وَكُلِّيَّاتِهَا، وَلَا يَسْتَحْقِرَ كَرَامَةَ الشَّيْخِ الْبَسِيرَ مِنْ حَرَكَاتِهِ، مَعْتَمِداً عَلَى حُسْنِ خُلُقِ الشَّيْخِ، وَكَمَالِ حِلْمِهِ وَمُدَارَاتِهِ. فَاحْتِرَامُ الْعُلَمَاءِ تَوْفِيقٌ وَهِدَايَةٌ، وَإِهْمَالُ ذَلِكَ خِذْلَانٌ وَعُقُوقٌ.

فصل

[فِي آدَابِ الشَّيْخِ]

أَهْمُ الْأَدَابِ: أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ الصَّادِقُ لِلتَّقَدُّمِ عَلَى قَوْمٍ، وَلَا يَتَعَرَّضَ لاسْتِجْلَابِ بَوَاطِنِهِمْ بِلَطْفِ الرَّفْقِ وَحُسْنِ الْكَلَامِ، مَحَبَّةً لِلْإِسْتِجَابِ.

وَالنَّفُوسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ قَبُولِ الْخَلْقِ وَالشُّهْرَةِ، وَفِي الْخَمُولِ السَّلَامَةِ، فَإِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ، وَتَمَكَّنَ الْعَبْدُ مِنْ حَالِهِ، وَعَلِمَ بِتَعْرِيفِ اللَّهِ إِيَّاهُ أَنَّهُ مُرَادٌ بِالْإِرْشَادِ وَالتَّعْلِيمِ لِلْمُرِيدِينَ: فَيُكَلِّمُهُمْ حَيْثُذِ كَلَامِ النَّاصِحِ الْمُشْفِقِ، الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ، بِمَا يَنْفَعُهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

وكلُّ مريدٍ ومُسْتَرَشِدٍ ساقَهُ اللهُ إِلَيْهِ يُرَاجِعُ اللهُ فِي [١/٤٣] مَعْنَاهُ، وَيُكْثِرُ مِنَ اللُّجُوءِ إِلَيْهِ فِي أَنْ يَتَوَلَّاهُ فِيهِ، وَفِي الْقَوْلِ مَعَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ مَعَهُ بِالْكَلِمَةِ إِلَّا وَقَلْبُهُ نَاطِرٌ إِلَى اللهِ، مُسْتَعِينٌ بِهِ فِي الْهِدَايَةِ لِلصَّوَابِ.

سَمِعْتُ [شَيْخَنَا] أَبَا النَجِيبِ [يُوصِي وَ] يَقُولُ: لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنَ الْفُقَرَاءِ إِلَّا فِي أَصْفَى أَوْقَاتِكَ؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ تَقَعُ فِي قَلْبِ الْمَرِيدِ الصَّادِقِ، كَالْحَبَّةِ تَقَعُ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَبَّةُ الْفَاسِدَةُ تَهْلِكُ وَتَضِيعُ، وَفَسَادُهَا بِالْهَوَى، وَقَطْرَةُ هَوَى تُكَدِّرُ بَحْرًا مِنَ الْعِلْمِ.

وَمِنْ [أَدَبِ الشَّيْخِ]: أَنْ يَكُونَ لَهُ خُلُوةٌ خَاصَّةٌ، وَوَقْتُ خَاصٌّ لَا يَسَعُهُ فِيهِ مُعَانَاةُ الْخَلْقِ، حَتَّى يَقْبِضَ عَلَى جَلَوَاتِهِ فَائِدَةُ خُلُوتِهِ، وَلَا يَدَّعِي لِنَفْسِهِ قُوَّةَ ظَنٍّ مِنْهُ أَنْ اسْتِدَامَةَ الْمُخَالَطَةِ مَعَ الْخَلْقِ وَالْكَلَامِ مَعَهُمْ لَا يَضُرُّهُ وَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى الْخُلُوةِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ — مَعَ كِمَالِ حَالِهِ — كَانَ لَهُ قِيَامٌ بِاللَّيْلِ، وَصَلَوَاتٌ يُصَلِّيهَا وَيَدَاوُمُ عَلَيْهَا، وَأَوْقَاتٌ يَخْلُو فِيهَا.

فَطَبْعُ الْبَشَرِ لَا يَسْتَعْنِي عَنِ السِّيَاسَةِ، قَلَّ ذَلِكَ أَوْ كَثُرَ، لَطَفَ ذَلِكَ أَوْ كَشَفَ. وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ قَانِعٍ بِالسَّيْرِ مِنْ طِيبَةِ الْقَلْبِ، اتَّخَذَ ذَلِكَ رَأْسَ مَالِهِ، وَاغْتَرَّ بِطِيبَةِ قَلْبِهِ، وَاسْتَرْسَلَ فِي الْمُمَازَحَةِ وَالْمُخَالَطَةِ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ مُنَاحَاً لِلْبَطَالِينِ بِلَقْمَةٍ تُوَكَّلُ عِنْدَهُ، وَبِرَفْقٍ يُوجَدُ مِنْهُ، فَيَقْصِدُهُ مَنْ لَيْسَ قَصْدُهُ الدِّينَ، وَلَا بُغْيَتُهُ سُلُوكُ الْمُتَّقِينَ، فَافْتِنَ وَفْتَنَ، وَبَقِيَ فِي خُطَةِ الْقُصُورِ، وَوَقَعَ فِي دَائِرَةِ الْفُتُورِ [١/٤٣] ب.

كَانَ الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ [لِأَصْحَابِهِ]: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ صَلَاةَ رَكْعَتَيْنِ خَيْرٌ [لِي] مِنَ الْجُلُوسِ مَعَكُمْ مَا جَلَسْتُ. فَإِذَا رَأَى الْفَضْلَ فِي الْخُلُوةِ يَخْلُو، وَإِذَا رَأَى الْفَضْلَ فِي الْجُلُوسِ يَجْلِسُ مَعَ الْأَصْحَابِ، فَتَكُونُ جَلُوتُهُ فِي حِمَايَةِ خُلُوتِهِ، وَخُلُوتُهُ مُزِيدًا لَجَلُوتِهِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ : لَا تُضِغْ حَقَّ أَخِيكَ بِمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ .

وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : « مَا تَصَدَّقَ [مَتَصَدَّقٌ] بِصَدَقَةٍ أَفْضَلَ مِنْ عِلْمٍ يُبْثُّ فِي النَّاسِ »^(١) ، وَتَأْيِيدُ اللَّهِ يَتَذَارَكُ الْمُرِيدِينَ الصَّادِقِينَ فِي مَوْرِدِهِمْ وَمَصْدَرِهِمْ .

قَالَ أَبُو بَكْرِ الْوَرَّاقُ : مَا ظَهَرَتْ الْفِتْنَةُ إِلَّا بِالْخُلْطَةِ : مَنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ، وَمَا سَلِمَ إِلَّا مَنْ جَانَبَ الْخُلْطَةَ .

وَقِيلَ : الْخَلْوَةُ أَصْلٌ ، وَالْخُلْطَةُ عَارِضٌ . فَلْيَلْزِمِ الْأَصْلَ وَلَا يُخَالِطِ إِلَّا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ . وَإِذَا خَالَطَ لَا يُخَالِطُ إِلَّا بِحُجَّةٍ ، فَإِذَا خَالَطَ يُلَازِمُ الصَّمْتَ ؛ فَإِنَّهُ أَصْلٌ وَالْكَلَامُ عَارِضٌ ، فَخَطَرُ الصُّحْبَةِ كَبِيرٌ ، يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَى مَزِيدٍ عَلَيْهِ .

فصل

[فِي فَضْلِ الصُّحْبَةِ]

الصُّحْبَةُ تَفْتَحُ مَسَامَ الْبَاطِنِ ، وَيَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ بِهَا عِلْمَ الْحَوَادِثِ وَالْعَوَارِضِ .

قِيلَ : أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْآفَاتِ : أَكْثَرُهُمْ آفَاتٍ . وَيَتَصَلَّبُ الْبَاطِنُ بِرَزَينِ الْعِلْمِ ، وَيَتِمَكَّنُ الصُّدُقُ بِطُرُقِ هُبُوبِ الْآفَاتِ ، ثُمَّ التَّخْلُصِ مِنْهَا بِالْإِيمَانِ ، وَيَقَعُ بِطَرِيقِ الصُّحْبَةِ وَالْأَخُوَّةِ التَّعَاوُذُ وَالتَّعَاوُنُ .

وَيَتَقَوَّى جُنُودُ الْقَلْبِ وَتَسْتَرُوحُ الْأَرْوَاحُ : بِالتَّشَامُ ، وَتَتَفَقُّ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَيَصِيرُ مِثَالُهَا فِي الشَّاهِدِ [١/٤٤] كَالْأَصْوَاتِ : إِذَا اجْتَمَعَتْ خَرَقَتْ الْأَجْرَامَ ، وَإِذَا انْفَرَدَتْ قَصُرَتْ عَنْ بُلُوغِ الْمَرَامِ .

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٧ : ٢٣١) مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» (١ : ١٦٦) : فِيهِ عَوْنٌ ، ضَعِيفٌ .

في الحديث: «المؤمن كثيرٌ بأخيه»^(١).

والاهتمامُ بهمهمُ الصَّدِيقِ حَقِيقَةُ الصَّدَاقَةِ.

وقالَ عمر: إذا رأى أحدُكم وُدّاً من أخيه، فليتمسك به؛ فقلَّما يُصِيبُ ذلك:

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ فهو المرادُ وأين ذاك الواحدُ
وفي الإنسان ميلٌ إلى الجنس بالوصفِ الأعم، فلما عَلِمَ الحَذَاقُ ذلكَ
الهمهمُ اللهَ محبةَ الخلوةِ والعزلةِ؛ لتصفيةِ النَّفسِ عن الميلِ بالوصفِ الأعم؛
لترتقي الهممُ العالِيَةُ عن ميلِ الطُّبَاعِ إلى تَأَلُّفِ الأرواحِ. وإذا وَقَّوْا التَّصْفِيَةَ
حقَّها اشْرَأَبَتْ الأرواحُ إلى جنسِها بالتألفِ الأصليِّ الأوَّلِي، وأعادها الله إلى
الخلقِ مُصَفَّاةً، واستفادتِ الثُّفُوسُ الطَّاهِرَةُ بنورِ الأرواحِ، وظهرتِ صفةُ
الجِبِلَّةِ مِنَ الألفَةِ المُكَمَّلَةِ أَلْفَةً مألُوفَةً؛ فصارتِ العزلةُ من أهمِّ الأمورِ عندَ مَنْ
يَأْلَفُ وَيُؤَلَّفُ، ومن أدلِّ الدَّلِيلِ على أنَّ الذي اعتزلَ النَّاسَ أَلْفٌ مألُوفٌ. فالعزلةُ
مرغوبةٌ في وقتِها، والصَّحبةُ مرغوبةٌ في وقتِها.

كانِ بَشْرُ بْنُ الْحَارِثِ^(٢) يقولُ: إذا قَصَرَ العبدُ في طاعةِ الله، سَلَبَهُ اللهُ مَنْ

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣: ٢٤٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (رقم ١٩٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (رقم ٦٦٢٥)، من حديث أنس رضي الله عنه، وهو عند الدولابي في «الكنى» (١: ١٦٨)، والديلمي (رقم ٦٨٨٢)، وغيرهما من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. والحديث موضوع.

(٢) بشر بن الحارث: هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله، الحافني، يكنى: أبا نصر، أصله من «مرو» من قرية (بكرذ) أو (مابرسام)، سكن بغداد، ومات بها يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٢٢٧هـ، أسند الحديث. كان يقول: «يأتي زمان على الناس لا تقرُّ فيه عين حكيم، ويأتي عليهم =

يُؤْنَسُهُ .

فالأنيسُ يُهَيِّئُهُ اللَّهُ لِلصَادِقِينَ ، رِقْقاً مِنَ اللَّهِ وَثَوَاباً لِلْعَبِيدِ مُعْجَلاً .
والأنيسُ [٤٤/ب] قد يكون مُفِيداً كَالشَّيْخِ ، وقد يكون مُسْتَفِيداً كَالْمُرِيدِ .

فصحيحُ الخلوة والعزلة لا يُتْرَكُ من غير أنيس ، فإن كَانَ قاصِراً يُؤْنَسُهُ
اللَّهُ بِمَنْ يُتَمَّمُ حاله [به] ، وإن كَانَ غيرَ قاصِرٍ يَقْبِضُ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُؤْنَسُهُ مِنَ
المُرِيدِينَ . وهذا الأنسُ ليسَ فيه ميلٌ بالوصفِ الأعمُّ ، بَلْ هُوَ بِاللَّهِ ، وَمِنَ اللَّهِ ،
وفي اللَّهِ .

فصل

[في المؤاخاة في الله]

روى عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ ، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «الْمُتَحَابُّونَ فِي
اللَّهِ عَلَى عَمُودٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ ، فِي رَأْسِ الْعَمُودِ سَبْعُونَ أَلْفَ غُرْفَةٍ ، مَشْرِفُونَ
عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ، يُضِيءُ حُسْنُهُمْ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ،
[فيقولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : انْطَلِقُوا بِنَا نَنْظُرَ إِلَى الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ . فَإِذَا
أَشْرَفُوا عَلَيْهِمْ أَضَاءَ حُسْنُهُمْ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا] ، عَلَيْهِمْ
ثِيَابٌ سُندِسٌ خُضْرٌ ، مَكْتُوبٌ عَلَى جِبَاهِهِمْ : هَؤُلَاءِ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ»^(١) .

[و] قَالَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ^(٢) لِمُعَاذِ بْنِ

= زمان تكون فيه الدولة للحمقى على الأكياس . انظر ترجمته في : «طبقات الصوفية»
للسلمي ص ٣٩ ، «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨ : ٣٣٦ - ٣٦٠) .

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «تراجم الأئمة» (١ : ٥٦٦) ، والسَّهْمِي في «تاريخ
جرجان» (رقم ٢٥) ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وهو موضوع .

(٢) أبو إدريس الخولاني : من جلة المشايخ وأئمةهم ، كان يقول : ليس بفتية من يحدث =

جَبَل^(١): إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: أَبَشِرْ ثُمَّ أَبَشِرْ ثُمَّ أَبَشِرْ. [فلاني] سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «يُنْصَبُ لِطَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِي كِرَاسِيٌّ مِنْ ذَهَبٍ حَوْلَ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تُضِيءُ وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، يَقْزَعُ النَّاسُ وَلَا يَقْرَعُونَ، وَيَخَافُ النَّاسُ وَلَا يَخَافُونَ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». قِيلَ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ»^(٢).

فالمُواخِصَةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى أَصْفَى مِنَ الْمَاءِ الزُّلَالِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ؛ فَاللَّهُ مُطَالِبٌ بِالصَّفَاءِ فِيهِ، وَكُلُّ مَا صَفَا دَامَ، وَالْأَصْلُ فِي دَوَامٍ [١/٤٥] صَفَائِهِ: عَدَمُ الْمُخَالَفَةِ.

فِي الْحَدِيثِ: «لَا تُمَارِ أَخَاكَ، وَلَا تُمَارِضْهُ، وَلَا تَعِدْهُ مَوْعِدًا فَتُخْلِفْهُ»^(٣).

= بالحديث من غير عمل، وكان يعلق سوطه في مسجده فيقول: أنا أحق بالسوط من الدواب، وكان يمشي على الماء في دجلة. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١): (١١٣).

(١) معاذ بن جبل: بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي، من الخزرج، يكنى أبا عبد الرحمن، شهد بدرًا وهو ابن عشرين سنة، وبعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاضيًا إلى اليمن ومعه كتاب إليهم يقول فيه: «بعثتُ لكم خير أهلي». توفي سنة ١٨ هـ عن ثلاث وثلاثين سنة. انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١: ٢٢٨).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب الشعر، باب ما جاء في المتحابين في الله (٢): (٧٢٦)، وأحمد في «المسند» (٥: ٢٣٣، ٢٣٩، ٣٢٨)، والترمذي في «الجامع» أبواب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله (رقم ٢٣٩٠)، والحاكم في «المستدرک» (٤: ١٦٩) وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وابن حبان (رقم ٥٧٧ مع الإحسان) جميعاً من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع» كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المراء، (رقم ١٩٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٣٩٤)، وابن السني في «عمل»

قال أبو سعيد الخزاز: صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ خَمْسِينَ سَنَةً، مَا وَقَعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ خِلَافٌ، [فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ:] لِأَنِّي كُنْتُ مَعَهُمْ عَلَى نَفْسِي.

وَيَسْبِغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ لِمَوْلَاهُ، بِنَفْسِهِ، وَيُرِيدُ كُلُّ مَا يُرِيدُ لِمَوْلَاهُ لَا لِنَفْسِهِ، وَإِذَا صَاحَبَ شَخْصًا تَكُونُ صُحْبَتُهُ إِيَّاهُ لِلَّهِ، وَإِذَا صَحِبَهُ لِلَّهِ يَجْتَهِدُ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ يَزِيدُهُ عِنْدَ اللَّهِ زُلْفَى، وَكُلُّ مَنْ قَامَ بِحُقُوقِ اللَّهِ؛ يَرْزُقُهُ عِلْمًا بِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ وَغُيُوبِهَا، وَيُعَرِّفُهُ مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنَ الْأَدَبِ، وَيُوقِّعُهُ مِنْ أَدَاءِ الْحُقُوقِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَيُفَقِّهُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلَا يَقُوْتُهُ شَيْءٌ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى [حَقُوقِ] الْحَقِّ، وَفِيمَا يَرْجِعُ إِلَى حُقُوقِ الْخَلْقِ.

فَكُلُّ تَقْصِيرٍ يُوجَدُ: مِنْ خُبْثِ النَّفْسِ وَعَدَمِ تَرْكِيبِهَا، وَبِقَاءِ صِفَاتِهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ صَحِبَتْ ظَلَمَتْ بِالْإِفْرَاطِ تَارَةً وَبِالتَّفْرِيطِ أُخْرَى، وَتَعَدَّتِ الْوَاجِبَ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الْحَقِّ وَالْخَلْقِ. وَالْحِكَايَاتُ وَالْمَوَاعِظُ، وَالْآدَابُ وَسَمَاعُهَا، لَا يَعْمَلُ فِي النَّفْسِ زِيَادَةً تَأْثِيرَ، وَيَكُونُ كَبِيرُ يُقْلَبُ فِيهِ الْمَاءُ مِنْ فَوْقَ، فَلَا يُمْكُثُ فِيهِ، وَلَا يُتَنَفَّسُ بِهِ.

وَإِذَا أُخِذَتْ بِالشَّقْوَى وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، نَبَعَ مِنْهَا مَاءُ الْحَيَاةِ، وَتَفَقَّهَتْ وَعِلِمَتْ، وَأَدَّتِ الْحُقُوقَ، وَقَامَتْ بِوَاجِبِ الْآدَابِ بِتَوْفِيقِ [ب/١٥] اللَّهِ وَمُنَّهِ وَعَوْنِهِ.

فصل

[فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ النَّفْسِ]

الرُّوحُ الْعُلُويُّ يَهُمُّ بِالْارْتِقَاءِ إِلَى [مَوْلَاهُ] شَوْقًا وَحُسْنًا وَتَنْزُّهًا عَنِ

= اليوم والليلة (رقم ٢٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣: ٣٤٤) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

الأكوان، ومن الأكوان: القلب والنفس.

فإذا ارتقى الروح يحنو القلب [إليه] حنو الولد الحنين البار إلى الوالد، وتحنو النفس إلى القلب الذي هو الولد، حين الوالدة الحنينة إلى ولدها. وإذا حنت النفس ارتقت من الأرض، وانزوت عروقها الضاربة إلى العالم السفلي، وانكوى هواها، وانحسمت مادته، وزهدت في الدنيا، وتجاغت عن دار الغرور، وأنابت إلى دار الخلود.

فإذا سكنت [النفس، التي هي الأم] إلى الأرض انجذب إليها القلب انجذاب [الولد الميال إلى] الوالدة المعوجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم، وتنجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه [من] انجذاب الوالد إلى ولده. فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه.

وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٢٨].

فمن عرف أصول النفس وجبلاتها، عرف أن لا قدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها.

فإذا امتلأ القلب سكينته خلع على القلب^(١) خلع الطمأنينة؛ لأن السكينة مزيد الإيمان، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح، لما منح من حظ اليقين. وعند توجه القلب [إلى محل الروح] تتوجه النفس إلى محل القلب، وفي ذلك طمأنينتها [١/٤٦] وإذا انزعجت من مقام جبلاتها ودواعي طبيعتها، متطلعة إلى مقام الطمأنينة، فهي لوامة؛ لأنها تعود باللائمة على نفسها، لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة، ثم انجذابها إلى محلها التي كانت فيه أمارة

(١) في المخطوط: (النفس). والمثبت من «العوارف» (٢: ٧٨٨).

بالشُّوء، وإذا أقَامَتْ في محلِّها لا يَغْشَاهَا نورُ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ، فهي على ظُلْمَتِهَا أَمَارَةٌ بِالشُّوءِ.

فَالنَّفْسُ وَالرُّوحُ يَتَطَارَدَانِ، فَتَارَةٌ تَمْلِكُ الْقَلْبَ دَوَاعِي الرُّوحِ، وَتَارَةٌ تَمْلِكُهُ دَوَاعِي النَّفْسِ.

النَّفْسُ كُلَّمَا تَحَرَّكَتْ كَثُرَتْ صَفَاءُ الْقَلْبِ، وَإِذَا تَكَدَّرَ الْقَلْبُ طَمِعَ الشَّيْطَانُ وَقَرُبَ مِنْهُ؛ لِأَنَّ صَفَاءَ الْقَلْبِ مُحْفُوفٌ بِالتَّذَكُّرِ وَالرُّعَايَةِ، وَلِلذِّكْرِ نُورٌ يَتَّقِيهِ الشَّيْطَانُ، كَانْتِقَاءٍ أَحَدِنَا النَّارَ.

فَبِالتَّقْوَى [وَجُودُ] خَالِصِ الذِّكْرِ، بِهَا يَنْفَتَحُ بَابُهُ، وَلَا يَزَالُ [الْعَبْدُ] يَتَّقِي حَتَّى يَحْمِيَ الْجَوَارِيحَ مِنَ الْمَكَارِهِ، ثُمَّ يَحْمِيهَا مِنَ الْفُضُولِ وَمَا لَا يَعْنِيهِ، فَتَصِيرُ أَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ ضَرُورَةً، ثُمَّ يَنْقَلُ تَقْوَاهُ إِلَى بَاطِنِهِ، وَيَطْهَرُ الْبَاطِنُ، وَيَقْبِذُهُ عَنِ الْمَكَارِهِ ثُمَّ مِنَ الْفُضُولِ، حَتَّى يَتَّقِيَ حَدِيثَ النَّفْسِ، وَيَرَى الْإِصْغَاءَ إِلَى حَدِيثِ النَّفْسِ ذَنْبًا فَيَتَّقِيهِ، وَيَقْبِذُ الْقَلْبَ عِنْدَ هَذَا الْإِنْتِقَاءِ بِالذِّكْرِ، اتِّقَادَ الْكَوَاكِبِ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ، وَيَصِيرُ الْقَلْبُ (السَّمَاءَ) مُحْفُوظًا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (الذِّكْرِ)، وَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ بَعْدَ الشَّيْطَانِ.

وَمِثْلُ هَذَا الْعَبْدِ تَنْدُرُ فِي حَقِّهِ الْخَوَاطِرُ الشَّيْطَانِيَّةُ وَلَمَّاتُهُ، [٤٦/ب] وَتَكُونُ لَهُ خَوَاطِرُ النَّفْسِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَتَّقِيَهَا، وَيُمَيِّزَهَا بِالْعِلْمِ؛ لِأَنَّ مِنْهَا خَوَاطِرَ لَا يَضُرُّ إِمَاضُهَا، كُمُطَالَباتِ النَّفْسِ بِحَاجَاتِهَا، وَحَاجَاتِهَا تَنْقَسِمُ إِلَى: الْحَقُوقِ وَالْحُظُوظِ، وَيَتَعَيَّنُ التَّمْيِيزُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَاتِّهَامُ النَّفْسِ بِمُطَالَباتِ الْحُظُوظِ.

وَمِنَ الْأَدَبِ عِنْدَ الْإِسْتِيْبَاهِ: إِنْزَالُ الْخَوَاطِرِ بِمُحَرِّكِ النَّفْسِ وَخَالِقِهَا وَبَارِنِهَا. وَفَاطِرِهَا، وَإِظْهَارُ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ إِلَيْهِ، وَالاعْتِرَافُ بِالْجَهْلِ، وَطَلَبُ الْمَعْرِفَةِ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَتَى بِهَذَا الْأَدَبِ يُغَاثُ وَيُعَانُ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ: هَلِ الْخَاطِرُ لِطَلَبِ حَظٍّ أَوْ حَقٍّ.

فصل

[في اللَّمَّتَيْنِ]

لَمَّةُ الْمَلِكِ إِذَا حَرَّكَتِ الرُّوحَ، وَاهْتَزَّتِ الرُّوحُ بِالْهِمَّةِ الصَّالِحَةِ [قَرُبَتْ] بِاهْتِزَازِهَا [بِالْهِمَّةِ الصَّالِحَةِ] إِلَى حِظَائِرِ الْقُرْبِ، فَوَرَدَ عَلَيْهِ عِنْدَ ذَلِكَ خَوَاطِرُ مِنَ الْحَقِّ، وَإِذَا تَحَقَّقَ بِالْقُرْبِ؛ يَتَحَقَّقُ بِالْفَنَاءِ، فَتَثْبُتُ الْخَوَاطِرُ الرَّبَّانِيَّةُ عِنْدَ ذَلِكَ لِمَوْضِعِ قُرْبِهِ، فَيَكُونُ أَصْلُ خَوَاطِرِ الْحَقِّ لَمَّةَ الْمَلِكِ.

وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إِذَا حَرَّكَتِ النَّفْسَ، هَوَتْ بِجِبِلَّتِهَا إِلَى مَرْكَزِهَا مِنَ الْغَرِيزَةِ وَالطَّبْعِ، فَظَهَرَ مِنْهَا لِحَرَكَتِهَا خَوَاطِرُ مُلَائِمَةٍ لِعَزِيزَتِهَا وَطَبِيعَتِهَا وَهَوَاهَا، فَصَارَتْ خَوَاطِرُهَا نَتِيجَةَ لَمَّةِ الشَّيْطَانِ.

فَأَصْلُهُمَا لَمَّتَانِ [يُتَتَجَانِ أُخْرَيَيْنِ]، وَخَوَاطِرُ الْيَقِينِ وَالْعَقْلِ مُنْدَرِجٌ فِيهِمَا.

فصل

[في الْحَالِ وَالْمَقَامِ]

[لَا يَسْتَقِرُّ مَقَامُ الْمَحَاسَبَةِ إِلَّا بِنَازِلِ حَالِ الْمُرَاقَبَةِ، وَ] لَا يَسْتَقِرُّ مَقَامُ الْمُرَاقَبَةِ، إِلَّا بِنَازِلِ حَالِ الْمُشَاهَدَةِ. فَإِذَا مُنِحَ الْعَبْدُ بِنَازِلِ حَالِ الْمُشَاهَدَةِ، اسْتَقَرَّتْ مُرَاقِبَتُهُ، وَصَارَتْ مَقَامَهُ. وَنَازِلُ الْمُشَاهَدَةِ أَيْضاً [١/٤٧] يَكُونُ حَالاً يَحُولُ بِالْإِسْتِتَارِ، وَيُظْهَرُ بِالتَّجَلِّيِ، ثُمَّ يَصِيرُ [مَقَاماً] وَتَتَخَلَّصُ شَمْسُهُ عَنِ كُسُوفِ الْإِسْتِتَارِ.

ثُمَّ فِي مَقَامِ الْمُشَاهَدَةِ أَحْوَالٌ وَزِيَادَاتٌ وَتَرْقِيَاتٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ أَعْلَى: مِنْ عَيْنِ الْيَقِينِ إِلَى حَقِّ الْيَقِينِ، وَحَقِّ الْيَقِينِ نَازِلٌ يَخْرِقُ شَغَافَ الْقَلْبِ، فَذَلِكَ آخِرُ فُرُوعِ الْمُشَاهَدَةِ.

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيْمَانًا يُبَاشِرُ قَلْبِي»^(١).
وهذه الحالة التي خرقت شغاف القلوب، ووصلت إلى سويداءه - وهي حق اليقين - هي أسنى العطايا، وأعز الأحوال وأشرفها.

ونسبة هذا الحال من المشاهدة، كنسبة الأجر من الثراب، [إذ يكون تراباً ثم طيناً ثم لبناً ثم أجراً]، فالمشاهدة كالثراب، والفناء كالطين، والبقاء كاللبن، وهذه الحالة كالأجر، وهي آخر الفروع، وهي أشرف الأحوال، وهي مخض موهبة لا تكتسب.

وسميت كل المواهب من التوازل بالعبد أحوالاً؛ لأنها غير مقدورة للعبد بكنسبه.

وقول عليّ كرم الله وجهه: «سألوني عن طرق السماوات، فأني أعرف بها من طرق الأرض»، إشارة إلى المقامات والأحوال.

فطرق السماء: التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات. فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماوياً، فهي طرق السماوات، ومُستنزَل البركات، وهي الأحوال التي لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوي.

ولا يزال [العبد] يتزهد بنازلة حال تربيته لذة الاشتغال بالدنيا [٤٧/ب] وتفتح له الإقبال عليها، ثم تمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة، حتى تتداركه المعونة من الله الكريم؛ فيزهد ويستقر زهده.

ولا تزال نازلة حال التوكل تفرغ باب قلبه، حتى يتوكل، وهكذا حال

(١) أخرجه البزار في «المسند» (رقم ٢١٢٩ مع كشف الأستار)، وفيه سعيد بن سنان، بين الضعف.

الرُّضَا، [حَتَّى يَطْمئنَّ عَلَى الرُّضَا] فَيَصِيرَ ذَلِكَ مَقَامَهُ.

فصل

[في إيجاز المقامات]

جَمَعَ مَقَامَ التَّوْبَةِ حَالَ الزُّجُرِ، وَحَالَ الْإِنْتِبَاهِ، وَحَالَ التَّيَقُّظِ، وَمُخَالَفَةَ
النَّفْسِ، وَالتَّقْوَى، وَالْمُجَاهَدَةَ، وَرُؤْيَا عُيُوبِ الْأَفْعَالِ، وَالْإِنَابَةَ، وَالصَّبْرَ،
وَالرُّضَا، وَالْمَحَاسَبَةَ، وَالْمُرَاقَبَةَ، وَالرَّعَايَةَ، وَالشُّكْرَ، وَالْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ.
فَإِذَا صَحَّتِ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ، وَتَزَكَّتِ النَّفْسُ؛ انْجَلَتْ مِرَاةُ الْقَلْبِ، وَبَانَ لَهُ
قُبْحُ الدُّنْيَا فِيهَا، فَحَصَلَ الزُّهْدُ. وَالزَّاهِدُ يَتَحَقَّقُ فِيهِ التَّوَكُّلُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَزْهَدُ فِي
الْمَوْجُودِ إِلَّا لِاعْتِمَادِهِ عَلَى الْمَوْعُودِ، وَالسُّكُونُ إِلَى وَعْدِ اللَّهِ هُوَ عَيْنُ التَّوَكُّلِ.
وَمَا بَقِيَ عَلَى الْعَبْدِ مِنَ بَقِيَّةٍ فِي تَحَقُّقِ الْمَقَامَاتِ كُلِّهَا بَعْدَ تَوْبَتِهِ،
يَسْتَدْرِكُهُ بِزُهْدِهِ فِي الدُّنْيَا.

سُئِلَ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ الزُّهْدِ فَقَالَ: أَنْ لَا تُبَالِيَ مَنْ أَكَلَ الدُّنْيَا
مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ.

فَإِذَا [صَحَّ زُهْدُ الْعَبْدِ] صَحَّ تَوَكُّلُهُ؛ لِأَنَّ صِدْقَ تَوَكُّلِهِ مَكَّنُهُ مِنْ زُهْدِهِ فِي
الْمَوْجُودِ. فَمَنْ اسْتَقَامَ فِي التَّوْبَةِ، وَزَهَدَ فِي الدُّنْيَا، وَحَقَّقَ هَذَيْنِ الْمَقَامَيْنِ،
اسْتَوْفَى سَائِرَ الْمَقَامَاتِ، وَتَمَكَّنَ فِيهَا، وَتَحَقَّقَ بِهَا.

وَالزُّهْدُ وَالتَّوْبَةُ إِذَا اجْتَمَعَا مَعَ صِحَّةِ الْإِيمَانِ وَعُقُودِهِ وَشُرُوطِهِ، يُعَوِّزُ
هَذِهِ الثَّلَاثَةَ رَابِعٌ بِهِ تَمَامُهَا، وَهُوَ: دَوَامُ الْعَمَلِ لِلَّهِ [١/٤٨]؛ لِأَنَّ الْأَحْوَالَ السَّنِيَّةَ
يُنْكَشِفُ بَعْضُهَا بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ، وَيَسْتَرُّ بَعْضُهَا مَتَوَقِّفًا عَلَى وَجُودِ الرَّابِعِ، وَهُوَ
دَوَامُ الْعَمَلِ لِلَّهِ.

وَكثِيرٌ مِنَ الزَّاهِدِ الْمُتَحَقِّقِينَ بِالزُّهْدِ، الْمُسْتَقِيمِينَ فِي التَّوْبَةِ، تَخَلَّفُوا عَنْ

سَنِيّ الأحوال، لتخْلِفِهِمْ عَنْ هَذَا الرَّابِعِ . ولا يُرَادُ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِكَمَالِ
الْفَرَاغِ الْمُسْتَعَانَ بِهِ عَلَى إِدَامَةِ الْعَمَلِ لِلَّهِ .

والعملُ لِلَّهِ : أن يكونَ الْعَبْدُ لا يَزَالُ ذَاكِرًا أو تَالِيًا أو مُصَلِّيًا أو مُرَاقِبًا ، لا
يشغَلُهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا وَاجِبٌ شَرْعِيٌّ ، أو مُهِمٌّ لا بُدَّ مِنْهُ طَبِيعِيٌّ ، فإذا استولَى العملُ
الْقَلْبِيُّ عَلَى الْقَلْبِ مَعَ وجودِ الشُّغْلِ الَّذِي آدَاهُ [إليه] حُكْمُ الشَّرْعِ ، لا يَفْتَرُ بَاطِنُهُ
عَنِ الْعَمَلِ . وإذا كَانَ — مَعَ الزُّهْدِ وَالتَّقْوَى — مَتَمَسِّكًا بِدَوَامِ الْعَمَلِ ؛ فقد أَكْمَلَ
الْفَضْلَ ، وما آلى جَهْدًا فِي الْعُبُودِيَّةِ .

قال سَهْلٌ : الْعَبْدُ إِذَا تَرَكَ التَّدْبِيرَ وَالْإِخْتِيَارَ ؛ فَقَدْ قَامَ مَقَامَ الْعُبُودِيَّةِ .

فإذا تحَقَّقَ الْعَبْدُ بِالتَّوْبَةِ وَالزُّهْدِ وَدَوَامِ الْعَمَلِ لِلَّهِ ؛ شغَلَهُ وَقْتُهُ الْحَاضِرُ
عَنْ وَقْتِهِ الْآتِي ، وَيَصِلُ إِلَى مَقَامِ تَرْكِ التَّدْبِيرِ وَالْإِخْتِيَارِ ، ثُمَّ يَصِلُ إِلَى أَنْ يَمْلِكَ
الْإِخْتِيَارَ ، فيكونَ اخْتِيَارُهُ مِنْ اخْتِيَارِ اللَّهِ ؛ لِزَوَالِ هَوَاهُ ، وَوُفُورِ عِلْمِهِ ، وَانْقِطَاعِ
مَادَّةِ الْجَهْلِ عَنْ بَاطِنِهِ .

و[الْعَبْدُ] لا يَتَحَقَّقُ بِهَذَا الْمَقَامِ الْعَالِي ، وَالْحَالِ الْعَزِيزِ — الَّذِي هُوَ
الْغَايَةُ وَالنَّهَايَةُ ، وَهُوَ : أَنْ يَمْلِكَ الْإِخْتِيَارَ بَعْدَ تَرْكِ التَّدْبِيرِ وَالْخُرُوجِ مِنْ
الْإِخْتِيَارِ — إِلَّا بِأَحْكَامِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ؛ لِأَنَّ [٤٨/ب] تَرَكَ التَّدْبِيرَ
فَنَاءً ، وَتَمْلِكُ التَّدْبِيرَ وَالْإِخْتِيَارَ مِنَ اللَّهِ عَبْدُهُ ، وَرُدُّهُ إِلَى الْإِخْتِيَارِ ، تَصَرُّفٌ
بِالْحَقِّ ، وَهُوَ مَقَامُ الْبَقَاءِ ، وَهُوَ الْإِنْسِلَاحُ عَنْ وجودِ كَانَ بِالْعَبْدِ إِلَى وجودِ يَصِيرُ
بِالْحَقِّ .

وهذا الْعَبْدُ مَا بَقِيَ [عَلَيْهِ] مِنَ الْأَعْوْجَاجِ ذَرَّةً ، وَاسْتِقَامَ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ فِي
الْعُبُودِيَّةِ ، وَعَمَّ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ ، وَتَوَطَّنَ حَظِيرَةُ الْقُدُسِ بِنَفْسِ
— بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ — مُتَمَسِّكَةً بِالْإِسْتِكَانَةِ وَالْإِفْتِقَارِ ، مُتَحَقِّقَةً بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
« لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ فَأَهْلِكَ ، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ ؛ فَأُضَيِّعَ . »

اَكْلَانِي كَلَاءَةَ الْوَلِيدِ، وَلَا تَخْلُ عَنِّي»^(١).

فصل

[في إشارات المشايخ وترتيب المقامات]

[سُئِلَ الْمَغَازِلِيُّ عَنِ التَّوْبَةِ، فَقَالَ: تَسْأَلُنِي عَنْ تَوْبَةِ الْإِنَابَةِ أَوْ عَنْ تَوْبَةِ
الاسْتِجَابَةِ؟ فَقَالَ السَّائِلُ: مَا تَوْبَةُ الْإِنَابَةِ؟ فَقَالَ: أَنْ تَخَافَ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ
قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، قَالَ: فَمَا تَوْبَةُ الْاسْتِجَابَةِ؟ قَالَ: أَنْ تَسْتَحْيِيَ [مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
لِقُرْبِهِ مِنْكَ. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ تَوْبَةِ الْاسْتِجَابَةِ إِذَا تَحَقَّقَ الْعَبْدُ بِهَا، رُبَّمَا تَابَ
فِي صَلَاتِهِ مِنْ كُلِّ خَاطِرٍ يُلِثُّ بِهِ سِوَى اللَّهِ، وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهُ، وَهَذِهِ تَوْبَةٌ لَازِمَةٌ
لِبَوَاطِنِ أَهْلِ الْقُرْبِ.

[طويل]

كما قيل:

«وَجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبٌ»

مَنْ تَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِهِ حَلَاوَةُ حُبِّ اللَّهِ الْخَاصِّ، عَنْ صَفَاءٍ مُشَاهِدَةٍ، وَصِرَفٍ
يَقِينٍ، أَيُّ حَلَاوَةٍ تَبَقَّى فِي قَلْبِهِ؟ وَإِنَّمَا حَلَاوَةُ الْهَوَى لَعَدَمِ حَلَاوَةِ حُبِّ اللَّهِ.

فصل

[قالوا في الورع]

وَقَالَ الثُّورِيُّ^(٢): [التَّوْبَةُ] أَنْ تَتُوبَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

(١) سبق تخريجه ص ٦٠ من الكتاب.

(٢) الثوري: أهر الحسين أحمد بن محمد النوري، بغدادي المتشأ والمولد، صاحب
السري السقطي، ومحمد بن علي القصاب، ورأى أحمد بن أبي الحواري، وتوفي
سنة ٢٩٥ هـ، انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠: ٢٤٩).

وَقَالَ السُّبُلِيُّ: الْوَرَعُ أَنْ تَتَوَرَّعَ أَنْ يُشَتَّتَ قَلْبُكَ عَنِ اللَّهِ طَرَفَةً عَيْنٍ.
وَقَالَ الْخَوَّاصُ^(١): الْوَرَعُ: أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ [الْعَبْدُ] إِلَّا بِالْحَقِّ غَضِبَ أَوْ
رَضِيَ، وَأَنْ يَكُونَ اهْتِمَامُهُ بِمَا يُرْضِي اللَّهَ.

فصل

[وَقَالُوا فِي الزُّهْدِ]

قَالَ الْجُنَيْدُ: الزُّهْدُ [١/٤٩]: خُلُوُّ الْيَدِ عَنِ الْأَمْلاكِ، وَالْقُلُوبِ عَنِ التَّشْتِيعِ.
وَقَالَ السَّرِيُّ: الزُّهْدُ: تَرْكُ حَظْوِظِ النَّفْسِ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الدُّنْيَا، وَيَجْمَعُ هَذِهِ
الْحُظُوظَ: الْمَالِيَّةُ وَالْجَاهِيَّةُ، حُبُّ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ النَّاسِ، وَحُبُّ الْمَحْمَدَةِ
[و] الشَّأْنِ مِنَ الْخَلْقِ.

فصل

[وَقَالُوا فِي الصَّبْرِ]

قَالَ سَهْلٌ: الصَّبْرُ: انْتِظَارُ الْفَرَجِ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْخِدْمَةِ وَأَعْلَاهَا.
وَالصَّبْرُ وَالْعِلْمُ مُتَلَازِمَانِ، كَالرُّوحِ وَالْجَسَدِ، لَا يَسْتَقِيلُ أَحَدُهُمَا دُونَ
الْآخَرِ، وَمَصْدَرُهُمَا الْعَرِيزَةُ الْعَقْلِيَّةُ. وَبِالصَّبْرِ تَحَامِلُ عَلَى النَّفْسِ، وَبِالْعِلْمِ
تَرَقُّ إِلَى الرُّوحِ. وَهُمَا الْبِرْزَخُ وَالْفُرْقَانُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ، لِيَسْتَقِرَّ كُلُّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا فِي مَسْتَقَرِّهِ، وَفِي ذَلِكَ صَرِيحُ الْعَدْلِ، وَصِحَّةُ الْإِعْتِدَالِ. وَبِانْفِصَالِ

(١) إِبْرَاهِيمُ الْخَوَّاصُ: أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْخَوَّاصُ، مِنْ أَجَلٍ مَنْ سَلَكَ
طَرِيقَ التَّوَكُّلِ، كَانَ أَوْحَدَ الْمَشَايِخِ فِي وَقْتِهِ، مِنْ أَقْرَانِ الْجُنَيْدِ وَالنُّوْرِيِّ، وَلَهُ مَقَامٌ
يَطُولُ شَرْحُهُ. تَوَفَّى بِجَامِعِ الرِّيِّ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ. انْظُرْ: «الطَّبَقَاتُ
الْكُبْرَى» لِلشَّعْرَانِيِّ (١: ٢١٤).

أحدهما عن الآخر ميلُ النَّفْسِ [إلى] الرُّوحِ .

قَالَ الْجُنَيْدُ : إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ ، وَأَكْرَمَ الْإِيمَانَ بِالْعَقْلِ ،
وَأَكْرَمَ الْعَقْلَ بِالصَّبْرِ .

وَأَنشَدَ إِبْرَاهِيمُ الْخَوَّاصُ رَحِمَهُ اللَّهُ شِعْرًا : [طويل]

وَدَافَعْتُ عَنْ نَفْسِي لِنَفْسِي فَعَزَّتْ	صَبَرْتُ عَلَى بَعْضِ الْأَذَى خَوْفَ كُلِّهِ
وَلَوْ لَمْ أُجْرَعْهَا أَذَى لَأَشْمَازَتْ	وَجَرَّعْتُهَا الْمَكْرُوهَ حَتَّى تَذَرَّبَتْ
وَيَا رَبِّ نَفْسٌ بِالتَّذَلُّلِ عَزَّتْ	أَلَا رَبِّ ذُلٌّ سَاقٍ لِلنَّفْسِ عِزَّةٌ
إِلَى غَيْرِ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشُلَّتْ	إِذَا مَا مَدَدْتُ الْكَفَّ التَّمِسُّ الْغِنَى
وَأَرْضَى بِدُنْيَانِي ، وَإِنْ هِيَ قَلَّتْ	سَاصِبِرُ جَهْدِي ، إِنَّ فِي الصَّبْرِ عِزَّةً

فصل

[وقالوا في الفقر]

قَالَ الْكَتَّانِيُّ^(١) : إِذَا صَحَّ الْإِفْتِقَارُ [إِلَى اللَّهِ] صَحَّ الْغِنَى بِاللَّهِ ؛ لِأَنَّهُمَا
حَالَانِ لَا يَتِمُّ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِالْآخَرِ .

وَقَالَ الثُّورِيُّ : نَعْتُ الْفُقَرَاءِ الشُّكُونُ عِنْدَ الْعَدَمِ ، وَالْبَذَلُ عِنْدَ الْوُجُودِ
[٤٩/ب] .

وَقَالَ الْخَوَّاصُ : الْفَقْرُ رِدَاءُ الشَّرَفِ ، وَلِبَاسُ الْمُرْسَلِينَ ، [و] جَلِبَابُ
الصَّالِحِينَ . وَقَالَ سَهْلٌ : الْفَقِيرُ الصَّادِقُ لَا يَسْأَلُ ، وَلَا يَرُدُّ ، وَلَا يَخْبِسُ . قَالَ

(١) الكتاني : أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني ، أصله من بغداد ، صاحب الجنيد
والنوري والخراز ، وأقام بمكة وجاور بها إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة ،
كان أحد المشار إليهم بالبنان ، وكان يقال : الكتاني سراج الحرم . انظر : «الطبقات
الكبرى» للشعراني (١ : ٢٣٨) .

الزَّقَاقُ^(١): تَرَكَ الْفُقَرَاءُ، أَخَذَ الْبُلْغَةَ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ؛ لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَنْفَعُهُمُ الْوَجُودُ، إِذْ لِلَّهِ فَاقَتُهُمْ، وَلَا يَضُرُّهُمْ الْفَاقَةُ، إِذْ لِلَّهِ وَجُودُهُمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْفَقْرُ: وَقُوفُ الْحَاجَةِ عَلَى الْقَلْبِ، وَمَحْوُهَا عَمَّا سِوَى الرَّبِّ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ: حَقِيقَةُ [الْفَقْرِ: أَنْ] لَا يَسْتَغْنِي إِلَّا بِاللَّهِ، وَرِسْمُهُ: عَدَمُ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا.

فصل

[وَقَالُوا فِي الشُّكْرِ]

قَالَ بَعْضُهُمْ: الشُّكْرُ [هُوَ] الْغَيْبَةُ عَنِ [الشُّكْرِ بِرُؤْيَةِ الْمُنْعِمِ]. وَقَالَ يَحْيَى: لَسْتُ بِشَاكِرٍ مَا دُمْتُ تَشْكُرُ.

وِغَايَةُ الشُّكْرِ: التَّحْيِيرُ، وَذَلِكَ أَنَّ الشُّكْرَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ يَجِبُ الشُّكْرُ عَلَيْهَا. [وَمَعْنَى الشُّكْرِ فِي اللُّغَةِ هُوَ: الْكَشْفُ وَالْإِظْهَارُ]، فَتَشْرُ النِّعَمَ وَتَعْدَاذُهَا وَإِظْهَارُهَا بِاللِّسَانِ مِنَ الشُّكْرِ، وَبِاطْنُ الشُّكْرِ: أَنْ تَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا تَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا يُنْشِدُ عَنْ بَعْضِهِمْ:

[كامل]
أَوْلَيْتَنِي نِعْمًا أَبُوحُ بِشُكْرِهَا وَكَفَيْتَنِي كُلَّ الْأُمُورِ بِأَسْرِهَا
فَلَا شُكْرَ لَكَ مَا حَيْثُ وَإِنْ أُمْتُ فَلَيْسَ شُكْرُكَ أَعْظَمِي فِي قَبْرِهَا

[و] حَقِيقَةُ الشُّكْرِ: أَنْ يَرَى جَمِيعَ الْمَقْضِيِّ لَهُ بِهِ نِعْمًا غَيْرَ مَا يَضُرُّهُ فِي

(١) الزَّقَاقُ: أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ نَصْرِ الزَّقَاقُ، مِنْ أَقْرَانِ الْجَنِيدِ، وَمِنْ أَكْبَرِ مُشَايِخِ مِصْرَ، قَبْلَ بَعْدِ وَفَاتِهِ: لَمَّا مَاتَ الزَّقَاقُ انْقَطَعَتْ حُجَّةُ الْفُقَرَاءِ فِي دُخُولِهِمْ مِصْرَ. انْظُرْ: «الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى» لِلشَّعْرَانِيِّ (١: ٧٦).

دينه ؛ لأن الله لا يقضي للعبد المؤمن شيئاً إلا وهو نعمة في حقه ؛ فإما عاجلة يمرُّها ، ويقهرها وإما آجلة بما يقضى له من المكاره ، فإما أن تكون درجة له أو تمحيصاً أو تكفيراً . فإذا عَلِمَ العبدُ أن مَولاهُ أنصَحَ له من نفسه ، وأعلم بمصالحه (١/٥٠) وأن كل ما منه نعم ؛ فقد شكره .

فصل

[وقالوا في الخوف]

قال أبو عمرو الدمشقي^(١) : الخائف : مَنْ يَخَافُ مِنْ نَفْسِهِ أَكْثَرَ [مما يَخَافُ] مِنَ الشَّيْطَانِ . وقال بعضهم : الخائف : مَنْ يَتْرُكُ مَا يَخَافُ أَنْ يُعَذَّبَ عَلَيْهِ . وقيل : الخائف : الذي لا يَخَافُ غَيْرَ اللَّهِ الْكَرِيمِ إِجْلَالاً لِلَّهِ تَعَالَى . وقال سهل : الخوفُ ذَكْرٌ ، وَالرَّجَاءُ أُنْثَى ، مِنْهُمَا تَتَوَالَّدُ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ . وقال ذو النُّونِ : لَا يُنْقَى الْمُحِبُّ كَأْسَ الْمَحَبَّةِ حَتَّى يَنْضَحَ بِالْخَوْفِ قَلْبُهُ .

فصل

[وقالوا في الرجاء]

قال شاه الكرماني^(٢) : علامة الرجاء حُسنُ الطَّاعَةِ . وقيل : الرجاء : قُرْبُ

(١) أبو عمرو الدمشقي : أحد مشايخ الشام ، وكان من علمائها ، كلهم يذعنون له لا سيما في علوم الحقائق ، صاحب ابن الجلاء ، وأصحاب ذي النون ، وله كتاب في الرد على من قال بقديم الأرواح ، توفي سنة عشرين وثلاثمئة . «الطبقات الكبرى» للشعراني (١ : ٢٢١) .

(٢) شاه الكرماني : أبو الفوارس ، شاه بن شجاع الكرماني ، كان من أولاد المملوك ، صاحب أبا تراب النخشي وأبا عبيد البصري ، وكان من أجَلِ علماء الطائفة ، وله =

القلبِ مِنْ مُلَاطَفَةِ الرَّبِّ . وَقَالَ ابْنُ خَفِيفٍ : الرَّجَاءُ : ارْتِيَاخُ الْقُلُوبِ لِرُؤْيَةِ
[كَرَمِ] الْمَرْجُوءِ .

فصلٌ

[وَقَالُوا فِي التَّوَكُّلِ]

قَالَ السَّرِي : التَّوَكُّلُ : الْإِنْخِلَاعُ عَنِ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ .

وَقَالَ ذُو الثُّونِ : التَّوَكُّلُ : [تَرْكُ] تَدْبِيرِ النَّفْسِ ، وَالْإِنْخِلَاعُ مِنَ الْحَوْلِ
وَالْقُوَّةِ .

وَقَالَ الزَّزَّاقُ : التَّوَكُّلُ : رَدُّ الْعَيْشِ إِلَى يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَإِسْقَاطُ هَمِّ غَدٍ . وَقَالَ
الرَّاسِطِيُّ : أَصْلُ التَّوَكُّلِ صِدْقُ الْفَاقَةِ وَالْإِفْتِقَارِ ، وَأَنْ لَا يُفَارِقَ التَّوَكُّلَ فِي
أَمَانِيهِ ، وَلَا يَلْتَمِثَ بِسِرِّهِ إِلَى تَوَكُّلِهِ لِحِظَةً فِي عُمْرِهِ .

وَقَالَ سَهْلٌ : أَوَّلُ مَقَامَاتِ التَّوَكُّلِ : أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ كَالْمَبْتُ
بَيْنَ يَدَيِ الْغَاسِلِ ، يُقَلِّبُهُ كَيْفَ أَرَادَ ، وَلَا يَكُونُ لَهُ حَرَكَةٌ وَلَا تَدْبِيرٌ .

وَقَالَ الْقَصَّارُ^(١) : التَّوَكُّلُ هُوَ : الْإِعْتَصَامُ بِاللَّهِ . وَقَالَ سَهْلٌ [أَيْضاً] :
الْعِلْمُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ التَّعَبُّدِ ، وَالتَّعَبُّدُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ الْوَرَعِ ، وَالْوَرَعُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ
الزُّهْدِ ، وَالزُّهْدُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ التَّوَكُّلِ .

= رسالات مشهورة وكلام حسن . انظر : «الطبقات الكبرى» للشعراني (١ : ٢٠٠) .

(١) حمدون القصار : هو حمدون بن أحمد بن عمارة ، أبو صالح القصار النيسابوري ،
شيخ أهل الملامة بنيسابور ومؤسس الطريقة الملامية ، ومنه انتشرت ، صاحب أبا
تراب النخشي وعلياً النصراباذي ، كان عالماً فقيهاً يذهب مذهب الشوري ، توفي
رحمه الله سنة ٢٧١هـ بنيسابور ، ودفن في مقبرة الحيرة . انظر ترجمته في : «حلية
الأولياء» لأبي نعيم (١٠ : ٢٣١) ، «الطبقات الكبرى» للشعراني (١ : ٧١) .

والتوكلُ [٥٠/ب] على قدر العلم بالوكيل، فكلُّ [مَنْ] كَانَ أُنْتُمْ معرفة؛ كَانَ أُنْتُمْ توكلًا، وَمَنْ كَمَلَ توكلُهُ غَابَ فِي رُؤْيَةِ الوكيلِ عَنْ رُؤْيَةِ توكلِهِ، ثُمَّ إِنَّ [قُوَّةَ] المَعْرِفَةِ تُفِيدُهُ صِرْفَ العلمِ بِالْعَدْلِ فِي الْقِسْمَةِ، وَأَنَّ الْأَقْسَامَ نُصِبَتْ بِإِزَاءِ الْمَقْسُومِ لَهُمْ عَدْلًا وَمُوَازَنَةً، وَأَنَّ النَّظَرَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ : لَوْجُودِ الْجَهْلِ فِي النَّفْسِ، وَكَلَّمَا أَحْسَنَ بِشَيْءٍ يَقْدَحُ فِي توكلِهِ، يَرَاهُ مِنْ مُنْبَجِ النَّفْسِ .

فَنَقْصَانُ التَّوَكُّلِ يَظْهَرُ بِظُهُورِ النَّفْسِ، وَكَمَالُهُ يَثْبُتُ بِغَيْبَةِ النَّفْسِ، وَلَيْسَ لِلْأَقْوِيَاءِ اعْتِدَادٌ بِتَصْحِيحِ توكلِهِمْ، وَإِنَّمَا شَغَلَهُمْ فِي تَغْيِيبِ النَّفْسِ بِتَقْوِيَةِ مَوَادِّ الْقَلْبِ، فَإِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ، انْحَسَمَتْ مَادَّةُ الْجَهْلِ، فَصَحَّ التَّوَكُّلُ وَالْعَبْدُ غَيْرُ نَاطِرٍ إِلَيْهِ .

وَكَلَّمَا تَحَرَّكَ مِنَ النَّفْسِ بَقِيَّةٌ، يَرُدُّ عَلَى ضَمِيرِهِمْ سِرٌّ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الْمُنْكُوتِ : ٤٢]، فَيَغْلِبُ وَجُودُ الْحَقِّ الْأَعْيَانِ وَالْأَكْوَانِ، وَيَرَى الْكَوْنَ بِاللَّهِ، مِنْ غَيْرِ اسْتِقْلَالِ الْكَوْنِ فِي نَفْسِهِ، فَيَصِيرُ التَّوَكُّلُ حَيْثُ اضْطِرَّارًا، وَلَا يَقْدَحُ فِي توكلٍ مِثْلِ هَذَا الْمَتَوَكِّلِ مَا يَقْدَحُ فِي توكلِ الضُّعْفَاءِ مِنْ وَجُودِ الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِطِ؛ لِأَنَّهُ يَرَى الْأَسْبَابَ مَوَانَا لَا حَيَاةَ لَهَا إِلَّا بِالتَّوَكُّلِ، وَهَذَا توكلُ خَوَاصِّ [خَوَاصِّ] أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ .

فصل

[وَقَالُوا فِي الرِّضَا]

قَالَ الْجُنَيْدُ : الرِّضَا هُوَ : صِحَّةُ الْعِلْمِ الْوَاصِلِ إِلَى الْقُلُوبِ، فَإِذَا بَاشَرَ الْقَلْبُ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ أَذَاهُ إِلَى الرِّضَا، وَلَيْسَ [١/٥١] الرِّضَا وَالْمَحَبَّةُ كَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَإِنَّهُمَا — يَعْنِي الرِّضَا وَالْمَحَبَّةُ — حَالَانِ لَا يُفَارِقَانِ الْعَبْدَ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَا فِي الْجَنَّةِ يَسْتَعْنِي عَنْهُمَا .

وقال أبو تراب^(١): لَيْسَ يَنَالُ الرِّضَا عَنِ اللَّهِ مَنْ [لِلدُّنْيَا] فِي قَلْبِهِ مِقْدَارٌ.
وقال سيّدنا الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(٢): مَنْ اتَّكَلَ عَلَى حُسْنِ اخْتِيَارِ اللَّهِ
لَهُ لَمْ يَتَمَنَّ أَنَّهُ فِي غَيْرِ الْحَالَةِ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ.

وقال عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: [مَنْ جَلَسَ عَلَى بِسَاطِ الرِّضَا، لَمْ يَنْتَلُهُ مِنَ اللَّهِ
مَكْرُوهٌ أَبَدًا، وَ] مَنْ جَلَسَ عَلَى بِسَاطِ الشُّوَالِ، لَمْ يَرْضَ عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ.

وقيل: الرِّضَا أَنْ لَا تَنْدَمَ عَلَى مَا فَاتَ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا تَتَأَسَّفَ عَلَيْهَا.

إِذَا تَمَكَّنَ الثُّورُ مِنَ الْبَاطِنِ اتَّسَعَ الصَّدْرُ، وَانْفَتَحَتْ عَيْنُ الْبَصِيرَةِ، وَعَايَنَ
حُسْنَ تَدْبِيرِ اللَّهِ، فَيَنْتَرِعُ الشَّخْطَ وَالضَّجَرَ؛ لِأَنَّ انْشِرَاحَ الصَّدْرِ يَتَضَمَّنُ حِلَاوَةَ
الْحُبِّ، وَفِعْلُ الْمَحْبُوبِ بِمَوْجِعِ الرِّضَا عِنْدَ الْمُحِبِّ الصَّادِقِ؛ لِأَنَّ الْمُحِبَّ يَرَى
أَنَّ الْفِعْلَ مِنَ الْمَحْبُوبِ مُرَادُهُ وَاخْتِيَارُهُ، فَيَقْنِي فِي لَذَّةِ رُؤْيَا اخْتِيَارِ الْمَحْبُوبِ
عَنِ اخْتِيَارِ نَفْسِهِ، كَمَا قِيلَ:

❖ [و] كُلُّ مَا يَفْعَلُ الْمَحْبُوبُ مُحِبُّوبٌ ❖

(١) أبو تراب النخشي: هو أبو تراب عسكر بن الحصين النخشي النسفي، كان من أشهر
شيوخ خراسان، مشهوراً بكرمه وزهده وعبادته، له كرامات باهرة، وأحوال ظاهرة
في البداء وغيرها، وهو من أشهر الشيوخ سواح الصوفية، يقطع الصحاري الواسعة
متجرداً من كل لوازم الحياة، صحب حاتم الأصم وغيره. توفي رحمه الله في
الصحراء سنة ٢٤٥ هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ٤٥)،
«الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٧١).

(٢) الحسن بن علي: ابن أبي طالب، وابن فاطمة الزهراء بنت خير الخلق ﷺ، ولد في
نصف رمضان سنة ثلاث، وأذن رسول الله ﷺ في أذنه، وسماه الحسن. كان حليماً
كريمًا، ترك الخلافة لله عز وجل، وقد وليها بعد قتل أبيه سبعة أشهر، ومناقبه
مشهورة، توفي سنة خمسين ودفن بالبقيع رضي الله عنه. انظر: «الطبقات الكبرى»
للشعراني (١: ٧٩).

فصل

[في ذكر الأحوال]

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَسَمْعِي وَبَصَرِي وَأَهْلِي وَمَالِي، وَمَنْ الْعَاءِ الْبَارِدِ»^(١). فَكَأَنَّهُ ﷺ طَلَبَ خَالِصَ الْحُبِّ، وَخَالِصَ الْحُبِّ هُوَ: أَنْ يُحِبَّ اللَّهُ بِكُلِّئِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ فِي حَالٍ [قَائِمًا بِـ] شُرُوطِ حَالِهِ بِحُكْمِ الْعِلْمِ، وَالْجِبِلَّةُ [٥١/ب] قَدْ تَكَرَّرَ، وَيَكُونُ النَّظَرُ إِلَى الْإِنْقِيَادِ بِالْعِلْمِ لَا إِلَى الْإِسْتِعْصَاءِ بِالْجِبِلَّةِ، فَقَدْ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ بِحُكْمِ الْإِيمَانِ، وَيُحِبُّ الْأَهْلَ وَالْوَلَدَ بِحُكْمِ الطَّبَعِ.

وَبَوَاعِثُ الْمَحَبَّةِ فِي الْإِنْسَانِ مُتَنَوِّعَةٌ، فَمِنْهَا: مَحَبَّةُ الرُّوحِ، وَمَحَبَّةُ الْقَلْبِ، وَمَحَبَّةُ النَّفْسِ، وَمَحَبَّةُ الْعَقْلِ. فَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ [وَقَدْ ذَكَرَ] الْأَهْلَ وَالْمَالَ وَالْعَاءَ الْبَارِدَ، [مَعْنَاهُ]: اسْتِنْصَالُ عُرُوقِ الْمَحَبَّةِ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ، حَتَّى يَكُونَ حُبُّ اللَّهِ غَالِبًا؛ فَيُحِبُّ اللَّهُ بِقَلْبِهِ وَرُوحِهِ وَكُلِّئَتِهِ، حَتَّى يَكُونَ حُبُّ اللَّهِ أَغْلَبَ - فِي الطَّبَعِ أَيْضًا وَالْجِبِلَّةِ - مِنْ حُبِّ الْمَاءِ الْبَارِدِ، وَهَذَا يَكُونُ [حُبًّا] خَاصًّا لِخَوَاصِّ تَنْغَمُرُ بِهِ وَبِنُورِهِ نَارُ الطَّبَعِ وَالْجِبِلَّةِ، وَهَذَا يَكُونُ حُبَّ الذَّاتِ عَنْ مَشَاهِدَةٍ بِعُكُوفِ الرُّوحِ وَخُلُوصِهِ إِلَى مَوَاطِنِ الْقُرْبِ.

وَالْحُبُّ الْخَاصُّ هُوَ: حُبُّ الذَّاتِ عَنْ مُطَالَعَةِ الرُّوحِ، وَهُوَ الْحُبُّ الَّذِي فِيهِ التَّكَرُّرَاتُ، وَهُوَ الْأَصْطِنَاعُ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ لِعَبْدِهِ، وَاصْطِفَاؤُهُ إِيَّاهُ، وَهَذَا الْحُبُّ يَكُونُ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ لِأَنَّهُ مَخْضُ مَوْهَبَةٍ لَيْسَ لِلْكَسْبِ فِيهِ مَدْخَلٌ، وَهُوَ مَفْهُومٌ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ عَنْ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ»، كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ ٧٤، (رَقْمُ ٣٤٩٠)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحِلْيَةِ» (١: ٢٢٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَجَدَانِ رُوحٍ تَلْتَذِ بِحُبِّ الذَّاتِ .

وهذا الحُبُّ رُوحٌ، والحُبُّ الذي يَظْهَرُ مِنْ مُطَالَعَةِ الصِّفَاتِ، وَيَطْلُعُ مِنْ مُطَالَعِ الْإِيمَانِ: قَالَبُ هَذَا الرُّوحِ. وَلَمَّا صَحَّتْ مَحَبَّتُهُمْ هَذِهِ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، [١/٥٢] لَأَنَّ الْمُحِبَّ [يَذِلُّ] لِمَحْبُوبِهِ وَلِمَحْبُوبٍ مَحْبُوبِهِ. [قِيلَ] شعراً:

لَعَيْنٌ تُفَدِّي أَلْفَ عَيْنٍ وَتُنَقِّي
وَيُكْرِمُ أَلْفَ لِلْحَبِيبِ الْمُكْرَمِ

وهذا الحُبُّ الخاصُّ هُوَ أَصْلُ الْأَحْوَالِ السَّيِّئَةِ وَمُوجِبُهَا، وَهُوَ فِي الْأَحْوَالِ كَالْتَّوْبَةِ فِي الْمَقَامَاتِ: فَمَنْ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عَلَى الْكَمَالِ، تَحَقَّقَ بِسَائِرِ الْمَقَامَاتِ مِنَ الزُّهْدِ [وَالرُّضَا] وَالتَّوَكُّلِ، وَمَنْ صَحَّتْ مَحَبَّتُهُ هَذِهِ تَحَقَّقَ بِسَائِرِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ وَالصَّخْوِ وَالْمَخَوِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

والتَّوْبَةُ لِهَذَا الْحُبِّ أَيْضاً بِمِثَابَةِ الْجُنْمَانِ؛ لِأَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْحُبِّ الْعَامِّ^(١) الَّذِي هُوَ لِهَذَا الْحُبِّ كَالْجَسَدِ، وَمَنْ أَخَذَ فِي طَرِيقِ الْمَحْبُوبِينَ، وَهُوَ طَرِيقٌ خَاصٌّ مِنْ طَرِيقِ الْمَحَبَّةِ تَكْمُلُ فِيهِ، وَيَجْتَمِعُ بِهِ رُوحُ الْحُبِّ الْخَاصِّ مَعَ قَالِبِ الْحُبِّ الْعَامِّ الَّذِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ النَّصُوحِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَتَقَلَّبُ فِي أَطْوَارِ الْمَقَامَاتِ؛ لِأَنَّ التَّقَلُّبَ فِيهَا [وَالترقيَ مِنْ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَى شَيْءٍ]: طَرِيقُ الْمُحِبِّينَ.

فَمَنْ أَخَذَ طَرِيقَ الْمَحْبُوبِينَ، يَطْوِي بِسَاطَ أَطْوَارِ الْمَقَامَاتِ، وَيَنْدَرِجُ فِيهِ

(١) نص في «العوارف» على أن الحبَّ حُبَّان: حبٌّ عام، وحبٌّ خاص، فاما الحبُّ العام فهو حبٌّ يكون لكسب العبد فيه مدخل، محرَّكه من الصفات، وهو مغسَّرٌ بامثال الأمر، وربما كان حباً من معدن العلم بالآلاء والنعم. «عوارف» (٢: ٨٦٤).

والحبُّ الخاص هو الذي تقدم بيانه قريباً.

صَفْوُهَا وَخَالِصُهَا بِأَنَّمْ وَصَفِيهَا.

والمقاماتُ لا تَقِيدُهُ وَلَا تَحْبِسُهُ، وَهُوَ يُقَيِّدُهَا وَيَحْبِسُهَا بِتَرْقِيهِ مِنْهَا، وَاسْتِنزَاعِهِ صَفْوَهَا وَخَالِصَهَا؛ لِأَنَّهُ حَيْثُ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوَارُ الْحُبِّ الْخَاصِّ خَلَعَ مَلَابِسَ صِفَاتِ النَّفْسِ وَنُعُوتِهَا.

والمقاماتُ كُلُّهَا مُصَفِيَةٌ لِلتُّعُوتِ وَالصِّفَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ: فَالزُّهْدُ تَصْفِيَةٌ عَنِ الرِّغْبَةِ، وَالتَّوَكُّلُ تَصْفِيَةٌ عَنِ قِلَّةِ الْاعْتِمَادِ الْمُتَوَلَّدِ [٥٢/ب] مِنْ جَهْلِ النَّفْسِ، وَالرِّضَا تَصْفِيَةٌ عَنِ ضَرْبَانِ عِرْقِ الْمُنَازَعَةِ، وَالْمُنَازَعَةُ لِبَقَاءِ جُمُودٍ فِي النَّفْسِ مَا أَشْرَقَتْ عَلَيْهَا [شُمُوسُ] الْمَحَبَّةِ الْخَاصَّةِ؛ فَبَقِيَتْ ظُلُمَتُهَا وَجُمُودُهَا.

فَمَنْ تَحَقَّقَ بِالْحُبِّ الْخَاصِّ لَا نَتِ نَفْسُهُ، وَذَهَبَ جُمُودُهَا، فَمَاذَا يَنْزِعُ الزُّهْدُ مِنْهُ وَرَغْبَةُ الْحُبِّ أَحْرَقَتْ رَغْبَتَهُ؟ وَمَاذَا يُصْفِي مِنْهُ التَّوَكُّلُ وَمُطَالَعَةُ الْوَكِيلِ حَشَوُ بَصِيرَتِهِ؟! [و] مَاذَا يَسْكُنُ فِيهِ الرِّضَا مِنْ عُرُوقِ الْمُنَازَعَةِ، مِمَّنْ لَمْ يُسَلِّمْ كُلِّيَّتَهُ؟!

فصل

[منه]

النَّفْسُ إِذَا تَحَرَّكَتْ صِفَتُهَا، مُنْقَلِبَةً مِنْ دَائِرَةِ الزُّهْدِ، يَرُدُّهَا الزَّاهِدُ إِلَى الدَّائِرَةِ بَزْهَدِهِ، وَالتَّوَكُّلُ إِذَا تَحَرَّكَتْ [نَفْسُهُ] يَرُدُّهَا بِتَوَكُّلِهِ، وَالرَّاضِي يَرُدُّهَا بِرِضَاهِ، وَهَذِهِ الْحَرَكَاتُ مِنَ النَّفْسِ بَقَايَا وَجُودِيَّةٌ تَفْتَقِرُ إِلَى سِيَاسَةِ الْعِلْمِ، وَفِي ذَلِكَ يَنْسَمُ رُوحَ الْقُرْبِ مِنْ بَعِيدٍ، وَهُوَ: أَدَاءُ حَقِّ الْعُبُودِيَّةِ مَبْلَغَ الْعِلْمِ، وَبِحَسَبِهِ الْاجْتِهَادُ وَالْكَسْبُ.

وَمَنْ أَخَذَ فِي طَرِيقِ الْخَاصَّةِ عَرَفَ طَرِيقَ التَّخْلِصِ مِنَ الْبَقَايَا، بِالنَّسْرِ بِأَنْوَارِ فَضْلِ الْحَقِّ تَعَالَى، وَمَنْ اكْتَسَى مَلَابِسَ أَنْوَارِ الْقُرْبِ بِرُوحِ دَائِمَةِ الْعُكُوفِ،

مَحِيَّةٍ عَنِ الطَّوَارِقِ وَالضَّرُوفِ: لَا يُزْعِجُهُ طَلَبٌ، وَلَا يُوجِشُهُ سَلَبٌ.

فَالزُّهْدُ وَالتَّوَكُّلُ وَالرِّضَا كَائِنٌ فِيهِ وَهُوَ غَيْرُ كَائِنٍ فِيهَا، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ كَيْفَ تَقَلَّبَ كَانَ زَاهِداً وَإِنْ رَغِبَ؛ لِأَنَّهُ بِالْحَقِّ لَا بِنَفْسِهِ، وَإِنْ رُئِيَ مِنْهُ الِاتِّفَاتُ إِلَى الْأَسْبَابِ فَهُوَ مُتَوَكِّلٌ، وَإِنْ وُجِدَتْ [١/٥٣] مِنْهُ الْكَرَاهَةُ، فَهُوَ رَاضٍ؛ لِأَنَّ كَرَاهَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَنَفْسُهُ لِلْحَقِّ، وَلِأَنَّ كَرَاهَتَهُ لِلْحَقِّ: أُعِيدَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ بِدَوَائِعِهَا وَصِفَاتِهَا مَطْهَرَةً مُوَهَّوَةً مَحْمُولَةً مُلَطَّوْفَةً بِهَا، فَصَارَ عَيْنُ الدَّاءِ دَوَاءً، وَصُورُ الْإِعْلَالِ شِفَاءً، وَنَابَ طَلَبُ اللَّهِ لَهُ مَنَابَ كُلِّ طَلَبٍ مِنْ زُهْدٍ وَتَوَكُّلٍ وَرِضَا.

وَقَالَ الْوَرَّاقُ: الشُّرُورُ بِاللَّهِ مِنْ شِدَّةِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالْمَحَبَّةُ فِي الْقَلْبِ نَارٌ تَحْرِقُ كُلَّ دَنَسٍ.

قَالَ سَمْنُونٌ^(١): ذَهَبَ الْمُحِبُّونَ بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(٢) فَهُمْ مَعَ اللَّهِ.

فِي زَاهَةِ النَّفْسِ وَكَمَالِ التَّزَكِّيَةِ يُسْتَعَدُّ لِلْمَحَبَّةِ، وَالْمَحَبَّةُ مُوَهَّوَةٌ غَيْرُ مَعْلَلَةٍ بِالتَّزَكِّيَةِ، وَلَكِنْ سُنَّةُ اللَّهِ جَارِيَةٌ أَنْ يُزَكِّيَ نَفْسَ أَحِبَّائِهِ بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ

(١) سمنون بن حمزة: هو أبو الحسن الخواص، ويسمى (سمنوناً المحب)، وقد سمي هو نفسه سمنوناً الكذاب لكتمه عسر البول بلا تضرر، صاحب سرّاً السقطي ومحمد ابن علي القصاب وأبا أحمد القلانسي، كان يتكلم في المحبة أحسن كلام، وتحدث ذات مرة في المحبة فتكثرت قناديل المسجد. توفي - رحمه الله - بعد الجئيد سنة ٢٩٨هـ، انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠: ١٨٩ - ٢١٢)، «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحیح»، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله (رقم ٦١٦٨ - ٦١٦٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وبعده (رقم ٦١٧٠) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، ومسلم في «الصحیح» كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (رقم ٢٦٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وتأبيده، وإذا مُنَحَ نِزَاهَةُ النَّفْسِ وَطَهَارَتَهَا، ثُمَّ جُذِبَ رُوحُهُ بِجَاذِبِ الْمَحَبَّةِ خُلِعَ عَلَيْهِ خِلْعُ الصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَهُ رَتَبَةً فِي الْوُصُولِ، فَتَارَةً يَنْبِيعُ الشَّوْقُ مِنْ بَاطِنِهِ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، لَكُونِ عَظِيمِ أَمْرِ اللَّهِ غَيْرِ مُتَنَاهٍ، وَتَارَةً يَتَسَلَّى بِمَا مُنِحَ، فَيَكُونُ ذَلِكَ وَصُولَهُ الَّذِي يُسَكِّنُ نِيرَانَ شَوْقِهِ، وَيَبَاعِثُ الشَّوْقَ تَسْتَقِرُّ الصِّفَاتُ الْمَوْهوبَةُ الْمُحَقَّقَةُ رَتَبَةَ الْوُصُولِ عِنْدَ الْمُحِبِّ، وَلَوْلَا بَاعِثُ الشَّوْقِ رَجَعَ الْقَهْقَرَى، وَظَهَرَتْ صِفَاتُ نَفْسِهِ الْحَائِلَةِ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ.

وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْوُصُولِ [غَيْرَ مَا ذَكَرْنَاهُ] أَوْ تَخَايَلَ لَهُ غَيْرُ هَذَا الْقَدْرِ، فَهُوَ مُتَعَرِّضٌ لِمَذْهَبِ النَّصَارَى فِي اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ [٥٣/ب].

فصل

[فِي الشَّوْقِ]

إِشَارَاتُ الْمَشَايِخِ فِي الْاسْتِغْرَاقِ وَالْفَنَاءِ كُلِّهَا عَائِدَةٌ إِلَى تَحْقِيقِ مَقَامِ الْمَحَبَّةِ، بِاسْتِيلَاءِ نُورِ الْيَقِينِ وَخُلَاصَةِ الذِّكْرِ عَلَى الْقَلْبِ، وَتَحْقِيقِ حَقِّ الْيَقِينِ بِزَوَالِ اعْوْجَاجِ الْبَقَايَا، وَأَمْتِ اللَّوْثِ الْوُجُودِيِّ مِنْ بَقَايَا صِفَاتِ النَّفْسِ، وَإِذَا صَحَّتِ الْمَحَبَّةُ تَرْتَبَتْ عَلَيْهَا أَحْوَالُهَا وَتَبِعَتْهَا.

وَلَا يَكُونُ الْمُحِبُّ إِلَّا مُشْتَاقًا أَبَدًا؛ لِأَنَّ أَمْرَ الْحَقِّ لَا نِهَآيَةَ لَهُ، فَمَا مِنْ حَالٍ يَبْلُغُهَا الْمُحِبُّ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَنَّ [مَا] وَرَاءَ ذَلِكَ أَوْفَى مِنْهَا وَأَتَمُّ.

وَلَيْسَ هَذَا الشَّوْقُ [الْحَادِثُ عِنْدَهُ] كَسَبِّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَوْهَبَةٌ خَصَّ اللَّهُ بِهَا الْمُحِبِّينَ.

وَالشَّوْقُ مِنَ الْمَحَبَّةِ كَالزُّهْدِ مِنَ التَّوْبَةِ، إِذَا اسْتَقَرَّتِ التَّوْبَةُ ظَهَرَ الزُّهْدُ، وَإِذَا اسْتَقَرَّتِ الْمَحَبَّةُ ظَهَرَ الشَّوْقُ.

وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ: الشَّوْقُ ثَمَرَةُ الْمَحَبَّةِ، مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ اشْتَاقَ إِلَى لِقَائِهِ.

وقال ذو النون: الشَّوقُ أعلى الدَّرَجَاتِ وأعلى المقامات، فإذا بَلَغَهَا الإنسانُ اسْتَبْطَأَ المَوْتَ شَوْقاً إلى رَبِّهِ، والنَّظَرُ إِلَيْهِ.

وعِنْدِي أَنَّ الشَّوْقَ الكَائِنَ فِي المَحْبِبِّينَ إِلَى رَبِّهِ يَتَوَقَّعُونَهَا فِي الدُّنْيَا، غَيْرُ الشَّوْقِ الَّذِي يَكُونُ يُتَوَقَّعُ مَا بَعْدَ المَوْتِ، وَاللَّهُ يُكَاشِفُ أَهْلَ وَدِّهِ بِعَطَايَا يَجِدُونَهَا عِلْماً، وَيَطْلُبُونَهَا ذَوْقاً، فَكَذَلِكَ يَكُونُ [شَوْقُهُمْ]، لِبَصِيرَةِ الْعِلْمِ ذَوْقاً، وَلَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ مَقَامِ الشَّوْقِ اسْتِبْطَاءُ المَوْتِ.

وَرَبِّمَا الْأَصِحَّاءُ مِنَ المَحْبِبِّينَ يَسْتَلِدُّونَ بِالحَيَاةِ [١/٥٤] لِلَّهِ كَمَا قَالَ الْجَلِيلُ لَخَلِيلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فَمَنْ كَانَتْ حَيَاتُهُ لِلَّهِ مَنَحَةً اللَّهُ الْكَرِيمُ لَذَّةُ المُنَاجَاةِ وَالْمَحَبَّةِ لِلَّهِ، [ف] تَمْتَلِئُ عَيْنُهُ مِنَ التَّشَدُّدِ^(١)، ثُمَّ يُكَاشِفُهُ مِنَ المِنَحِ وَالْعَطَايَا فِي الدُّنْيَا مَا يَتَحَقَّقُ بِمَقَامِ الشَّوْقِ مِنْ غَيْرِ الشَّوْقِ إِلَى مَا بَعْدَ المَوْتِ.

وَإِذَا كَانَتْ أَنْصِبَةُ القُرْبِ مِنَ العَطَايَا وَالْمِنَحِ غَيْرَ مُنَاسِبَةٍ، كَيْفَ يُنَكِّرُ الشَّوْقُ مِنَ المَحَبِّ؟ فَهُوَ غَيْرُ غَانِبٍ وَغَيْرُ مُشْتَاكِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَا وَجَدَ، وَلَكِنْ يَكُونُ مُشْتَاقاً لِمَا لَمْ يَجِدْ مِنَ أَنْصِبَةِ القُرْبِ، فَكَيْفَ يُفْتَحُ حَالُ الشَّوْقِ وَالْأَمْرُ هَكَذَا؟

وَالْإِنْسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أُمُورٍ يَرُدُّهَا حُكْمُ الْحَالِ لِمَوْضِعِ بَشَرِيَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ، وَعَدَمِ وَقُوفِهِ عَلَى حَدِّ الْعِلْمِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ حُكْمُ الْحَالِ، وَوُجُودِ هَذِهِ الْأُمُورِ مُشِيرٍ لِنَارِ الشَّوْقِ، وَلَا نَعْنِي بِالشَّوْقِ إِلَّا مُطَالَبَةً تَنْبِئُ مِنَ الْبَاطِنِ إِلَى الْأُولَى وَالْأَعْلَى مِنْ أَنْصِبَةِ القُرْبِ.

(١) لعله يعني به الأمر الحال الواقع، في مقابلة المستقبل بعد الموت.

وهذه المطالبة كائنة في المحبين، فالشوق إذا كائن لا وجة لإنكاره.
 قال فارس: قلوب المشتاقين منورة بنور الله، فإذا تحركت اشتياقاً أضاء
 النور ما بين المشرق والمغرب، فيعرضهم الله على الملايكة، فيقول: هؤلاء
 المشتاقون إليّ، أشهدكم أنني إليهم أشوق.
 وقال ابن عطاء: الشوق: احتراق الحشا وتلهب القلوب، وتقطع الأكباد
 من البعد بعد القرب [٥٤/ب].
 وقال النصراباذي^(١): «لخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق، فمن
 دخل في حال الاشتياق هَامَ فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار.

فصل

[في الأنس]

قال الواسطي: لا يصل إلى مقام الأنس من لم يستوحش من الأكوان
 كلها.

كتب مطرف بن الشخير^(٢) إلى عمر بن عبد العزيز: ليكن أنسك بالله،

(١) النصراباذي: هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي، شيخ خراسان في وقته،
 صاحب الشبلي، وأبا علي الروذباري والمرتضى، وجاور بمكة، حج سنة ٣٣٦هـ،
 ومات سنة ٣٦٧هـ، له أقوال مشهورة في الحقائق، منها قوله: «إذا بدا لك شيء من
 بؤادي الحق فلا تلتفت إلى جنة ولا نار، ولا تخطرهما ببالك، وإذا رجعت عن ذلك
 الحال فعظم ما عظمه الله تعالى. انظر ترجمته في: «طبقات الصوفية» للسلمي ص
 ٤٨٤، «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ١٠٥).

(٢) مطرف بن الشخير: هو مطرف بن عبد الله بن الشخير، من الأئمة الأكابر، ومن
 حفاظ الحديث، كان يقول: لا يحتكم ورع إلا على أهله. توفي رضي الله عنه بعد «

وَانْقِطَاعُكَ إِلَيْهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا اسْتَأْنَسُوا بِاللَّهِ، وَكَانُوا فِي وَحْدَتِهِمْ أَشَدَّ اسْتِثْنَاءً
مَنْ النَّاسِ فِي كَثَرَتِهِمْ، وَأَوْحَشُ مَا يَكُونُ النَّاسُ أَنْسُ مَا يَكُونُونَ، وَأَنْسُ مَا
يَكُونُ النَّاسُ، أَوْحَشُ مَا يَكُونُونَ.

وَقَالَتْ رَابِعَةٌ^(١): كُلُّ مَطِيحٍ مُسْتَأْنِسٍ. وَأَنْشَدَتْ: [كامل]

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدَّثِي وَأَبْحَثُ جَسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي
فَالْجِسْمُ مَنِي لِلْجَلِيسِ مُوَانِسُ وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أَيْسِي
وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ^(٢): مَنْ لَمْ يَسْتَأْنِسْ بِمُحَادَثَةِ اللَّهِ عَنْ مُحَادَثَةِ
الْمَخْلُوقِينَ فَقَدْ قَلَّ عِلْمُهُ، وَعَمِيَ قَلْبُهُ، وَضُيْعَ عُمْرُهُ.

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ مَعَكَ فِي الدَّارِ؟ فَقَالَ: اللَّهُ مَعِي، وَلَا يَسْتَوْحِشُ مَنْ
أَنْسَ بِرَبِّهِ. وَقَالَ الْخِرَازِيُّ: الْأَنْسُ مُحَادَثَةُ الْأَرْوَاحِ مَعَ الْمَحْبُوبِ فِي مَجَالِسِ
الْقُرْبِ. وَوَصَفَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ صِفَةَ أَهْلِ الْمَحَبَّةِ [الوَاصِلِينَ] فَقَالَ: جَدَّدَ لَهُمْ

= الطاعون الجارف لما تولى الحجاج العراق، سنة سبع وثمانين. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٩٣).

(١) رابعة العدوية: كانت من أهل البصرة، ومولاة لآل عتيك، وكثيراً ما كان سفيان الثوري يسألها عن مسائل، ويعتمد عليها ويرغب في موعظتها، كانت كثيرة اليكاء، واشتهرت بالشعر الرقيق، وكانت تقول: لكل شيء ثمرة، وثمره المعرفة الإقبال. انظر ترجمتها في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦: ١٩٢)، «الطبقات الكبرى» للشعراني (١: ٥٦).

(٢) مالك بن دينار: هو أبو يحيى مالك بن دينار السامي الناجي. تابعي من البصرة. كان زاهداً معروفاً مشهوراً، روى عن أنس بن مالك وقدامى التابعين، كان يكسب قوت يومه من كتابة نسخ من القرآن الكريم، ويعتبر من مبكرى العلماء المسلمين الذين عرفوا بقراءة الكتب القديمة. توفي رحمه الله سنة ١٢٧ هـ، كما في «البداية والنهاية» (١٣: ٢١٤ ط. هجر). انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢: ٣٥٧).

الوَدَّ في كُلِّ طَرَفَةٍ عَيْنٍ بِدَوَامِ الْإِتِّصَالِ، وَأَوَاهُمْ فِي كَتْفِهِ بِحَقَائِقِ الشُّكُونِ إِلَيْهِ،
حَتَّى أَنْتَ قُلُوبُهُمْ، وَحَسَّتْ أَرْوَاحُهُمْ شَوْقاً، فَكَانَ الْحُبُّ وَالشَّوْقُ مِنْهُمْ إِشَارَةً
مَنْ الْحَقُّ إِلَيْهِمْ عَنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ [١/٥٤] وَهُوَ الْوُجُودُ بِاللَّهِ، فَذَهَبَتْ مُنَاهِمُ،
وَانْقَطَعَتْ آمَالُهُمْ عِنْدَهُ، لِمَا بَانَ [مِنْهُ] لَهُمْ.

ولو أَنَّ الْحَقَّ أَمَرَ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ بِسْأَلُونِ لَهُمْ، مَا سَأَلُوا بَعْضَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ
مِنْ قَدِيمٍ وَحَدَائِثِهِ، وَدَوَامِ أَزَلِّيَّتِهِ وَسَابِقِ عِلْمِهِ، فَصَارَ يَخْشُدُهُمْ مِنْ عَيْبِهِ
الْعُمُومُ، إِذْ رَفَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ جَمِيعَ الْهُمُومِ.

وَأُنْشِدَ فِي مَعْنَاهُ:

كَأَنْتَ لِقَلْبِي أَهْوَاءَ مَفْرَقَةٍ فَاسْتَجَمَعْتَ مُذْ رَأَيْتَكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِي
وَصَارَ يَخْشُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَخْشُدُهُ وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى إِذْ كُنْتُ مَوْلَايَ
تَرَكَتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَا دِينِي وَدُنْيَائِي

وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ: الْإِنْسُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَتِلَاوَةِ كَلَامِهِ وَسَائِرِ
أَبْوَابِ الْقُرْبَاتِ، وَهَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْإِنْسِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْحَةٌ وَمِثَّةٌ، وَلَكِنْ
لَيْسَ هُوَ حَالُ الْإِنْسِ الَّذِي هُوَ يَكُونُ لِلْمُحِبِّينَ.

وَالْإِنْسُ [حَالٌ شَرِيفٌ، يَكُونُ عِنْدَ طَهَارَةِ الْبَاطِنِ وَكُنْهِهِ] بِصَدَقِ الزُّهْدِ،
وَبِكَمَالِ الثَّقَوَى، وَقَطْعِ الْأَسْبَابِ وَالْعَلَائِقِ، وَمُخَوِّ الْخَوَاطِرِ وَالْهَوَاجِسِ،
وَحَقِيقَتُهُ عِنْدِي^(١) كُنْسُ الْوُجُودِ [بِثَقَلٍ] لِأَيْحِ الْعِظَمَةِ، وَانْتِشَارِ الرُّوحِ فِي
مِيَادِينِ الْفُتُوحِ.

وَمِنْ الْإِنْسِ: خُضُوعُ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، [وَأَمِنْ الْهَيْبَةِ: [خَشُوعُهَا، وَ]
الْخُشُوعُ وَالْخُضُوعُ مُتَقَارِبَانِ، وَيَقْتَرِفَانِ بِفَرْقٍ لَطِيفٍ مُذَرِّكٍ بِإِيمَاءِ الرُّوحِ.

(١) أي: عند السهروردي رحمه الله.

فصل

[في القُرب]

[مَنْ غَابَتْ نَفْسُهُ فِي نَوْرِ رُوحِهِ] إِذَا صَحَا [وَأَفَاق] تَتَخَلَّصُ الرُّوحُ مِنَ النَّفْسِ وَالنَّفْسُ مِنَ الرُّوحِ، وَيَعُودُ الْكُلُّ مِنَ الْعَبْدِ إِلَى مَحَلِّهِ وَمَقَامِهِ، فَيَقُولُ: (يَا اللَّهُ، يَا رَبِّ) بِلِسَانِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ الْعَائِدَةِ إِلَى مَقَامِ حَاجَتِهَا وَمَحَلِّ عُبُودِيَّتِهَا. وَالرُّوحُ [هـ/ب] يَسْتَقِيلُ بِفَتْوحِهِ وَبِكَمَالِ الْحَالِ عَنِ الْأَقْوَالِ، وَهَذَا أَتَمُّ وَأَقْرَبُ [مَنْ الْأَوَّل]؛ لِأَنَّهُ وَفَى حَقَّ الْقُرْبِ، بِاسْتِقْلَالِ الرُّوحِ [بِالْفَتْوح]، وَأَقَامَ رِسْمَ الْعُبُودِيَّةِ بِعَوْدِ حُكْمِ النَّفْسِ إِلَى مَحَلِّ الْإِفْتِقَارِ، وَحَظُّ الْقُرْبِ لَا يَزَالُ يُصِيبُ الرُّوحَ بِإِقَامَةِ رِسْمِ الْعُبُودِيَّةِ مِنَ النَّفْسِ.

قَالَ الْجَنِيدُ: إِنَّ اللَّهَ يَقْرُبُ مِنْ قُلُوبِ عِبَادِهِ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَى مِنْ قُرْبٍ قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنْهُ، فَاَنْظُرْ مَاذَا يَقْرُبُ مِنْ قَلْبِكَ.

قَالَ ذُو الثُّونِ: مَا أَزْدَادَ أَحَدٌ مِنَ اللَّهِ قُرْبَةً إِلَّا أَزْدَادَ هَيْبَةً. وَقَالَ سَهْلٌ: أَدْنَى مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الْقُرْبِ: الْحَيَاءُ. وَقَالَ النَّصْرَابَادِي: بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ تُنَالُ الْمَعْرِفَةُ، وَبِإِدَاءِ الْفَرَائِضِ تُنَالُ الْقُرْبَةُ، وَبِالْمُوَظَّيَةِ عَلَى النَّوَافِلِ تُنَالُ الْمَحَبَّةُ.

فصل

[في الحياء]

قَالَ السَّرِي: احْفَظْ [عَنِّي] مَا أَقُولُ لَكَ: إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْأَنَسَ يَطْوِقَانِ بِالْقَلْبِ، فَإِنْ وَجَدَا فِيهِ الزُّهْدَ وَالْوَرَعَ حَطًّا، وَإِلَّا رَحَلَا.

وَالْحَيَاءُ: إِطْرَاقُ الرُّوحِ إِجْلَالًا لِعَظِيمِ الْجَلَالِ، وَالْأَنَسُ: التَّذَادُ الرُّوحِ بِكَمَالِ الْجَمَالِ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَهُوَ الْغَايَةُ فِي الْمُنَى، وَالنَّهَايَةُ فِي الْعَطَاءِ.

وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: الْعِلْمُ الْأَكْبَرُ: الْهَيْبَةُ وَالْحَيَاءُ، فَإِذَا ذَهَبَ عَنْهُ الْهَيْبَةُ

والحياءُ فلا خَيْرَ فيه .

فصلٌ

[في مراتب الوصول إلى الله تعالى]

ومن وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان، فهو في رتبة من الوصول، ثم يتفاوتون: فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة في التجلي، فيقضي فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله، ويخرج في هذه [الحالة] من التدبير والاختيار، وهذه رتبة في الوصول. ومنهم من يوقف في مقام الهيبة [١/٥٦] والأنس بما يكشف به قلبه من مطالعة الجلال والجمال، وهذه تجلي بطريق الصفات، فهو رتبة في الوصول.

ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء، مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمُشاهدة، مغيباً في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين، وهذه رتبة في الوصول.

وفوق هذا: حق اليقين، ويكون من ذلك لَمَح في الدنيا للخواص، وهو سرّيان نور المُشاهدة في كُلّية العبد، حتى يحظى به رُوحه وقلبه ونفسه، حتى قاله أيضاً، وهذا من أعلى رتب الوصول.

[فإذا تحققت الحقائق، يعلم العبد، مع هذه الأحوال الشريفة، أنه — بعد — في أول المنزل، فإين الوصول؟].

هيهات! منازل طريق الوصل لا تنقطع أبداً الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف في العمر القصير الدنيوي؟

وإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء، يعود إلى الوجود الثوراني الذي هو القلب، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك، ومهما تخلص إلى [الفناء و]

البقاء فلا قبض ولا بسط.

ومن عدم القبض والبسط ارتقى منهما، فنفسه مطمئنة، لا يتقديح عن جوهرها نازاً تُوجب القبض، ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى، حتى يظهر منه البسط. ورئما صار لمثل هذا القبض والبسط في نفسه، لا من نفسه، يكون نفسه مطمئنة، وما لقلبه قبض ولا بسط؛ لأن القلب متحصن بشعاع نور الروح، مستقر في دعة القرب، فلا قبض، ولا بسط. والفناء الظاهر: أن لا يتجلى الحق له بطريق الأفعال، ويُسلَب [ب/٥٦] العبد اختياره وإرادته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلاً إلا بالحق، ثم يأخذه في المعاملة مع الله بحسبه.

والفناء الباطن: أن يُكاشَف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات، فيستولي على باطنه أمر الحق، حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس. وليس من ضرورة [الفناء] أن يغيب إحساسه، وقد [تتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص]، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق.

فصل

[في العلم اللدني]

عن النبي ﷺ: «إِنَّ [مِنْ] معَادِنِ الثَّقَوِي تَعَلَّمَكَ — إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ — عِلْمَ مَا لَا تَعْلَمُ، وَالتَّنْقِصُ فِيمَا عَلِمْتَ قَلَّةُ الزِّيَادَةِ فِيهِ وَإِنَّمَا يُرْهِدُ الرَّجُلَ فِي عِلْمٍ مَا لَمْ يَعْلَمْ قَلَّةُ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا قَدْ عِلِمَ»^(١).

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (رقم ٢٥١٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١) : ٩٥، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١ : ٨٥ - ٨٦) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١ : ٤١٤) من حديث جابر رضي الله عنه، وفيه ياسين الزيات: منكر الحديث، قال الهيثمي في «المجمع» (٢ : ١٣٦). وهو حديث موضوع.

فَمَشَايِخُ الصُّوفِيَّةِ أَحْكَمُوا أَسَاسَ التَّقْوَى، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِلَّهِ تَعَالَى،
وَعَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا [للموضع] تَقْوَاهُمْ، فَعَلَّمَهُمُ اللَّهُ مَا لَمْ يَتَعَلَّمُوا مِنْ غَرَائِبِ
الْعُلُومِ وَدَقَائِقِ الْإِشَارَاتِ، وَاسْتَبْطَوا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ غَرَائِبَ الْعُلُومِ، وَعَجَائِبَ
الْأَسْرَارِ فِي الْعِلْمِ.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ: أَوَّلُ الْفَهْمِ لِكَلَامِ اللَّهِ: الْعَمَلُ بِهِ؛ لِأَنَّ فِيهِ الْعِلْمَ
وَالْفَهْمَ وَالِاسْتِبْطَاءَ، وَأَوَّلُ الْفَهْمِ إِلْقَاءُ السَّمْعِ وَالْمُشَاهَدَةُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٢٧].

وَقَالَ الْوَاسِطِيُّ: الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ [هُمْ الَّذِينَ] رَسَخُوا بِأَرْوَاحِهِمْ فِي
غَيْبِ الْغَيْبِ، وَفِي سِرِّ السِّرِّ، فَعَرَفَهُمْ مَا عَرَفَهُمْ، وَأَرَادَ مِنْهُمْ مِنْ مُقْتَضَى الْآيَاتِ
مَا لَمْ يُرَدِّ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَخَاضُوا [١/٥٧] بِخَرِّ الْعِلْمِ بِالْفَهْمِ لِطَلَبِ الزِّيَادَاتِ؛
فَانْكَشَفَ لَهُمْ مِنْ مَذْخُورِ الْخَزَائِنِ، وَالْمَخْزُونِ تَحْتَ كُلِّ حَرْفٍ وَآيَةٍ، مِنَ الْفَهْمِ
وَعَجَائِبِ النَّصِّ، فَاسْتَخْرَجُوا الدُّرَرَ وَالْجَوَاهِرَ، وَنَطَقُوا بِالْحِكْمَةِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ قَالَ]: «إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا
الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا أَهْلُ الْغِرَةِ بِاللَّهِ»^(١).

قَالَ الْقُرَشِيُّ: هِيَ أَسْرَارُ اللَّهِ يُبْدِيهَا إِلَى أُمَنَاءِ أَوْلِيَائِهِ وَسَادَاتِ النَّبَلَاءِ،
مِنْ غَيْرِ سَمَاعٍ وَلَا دَرَسَةٍ، وَهِيَ مِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي لَا يَطْلُعُ عَلَيْهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ.
وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ حَالِ مُوسَى فِي [وَقْتِ] ^(٢) الْكَلَامِ فَقَالَ: أَفْنِيَّ مُوسَى

(١) قَالَ فِي «غُنْيَةِ الْعَارِفِ» (٢: ٨٩٣) بِهَامِشِ الْعَوَارِفِ: أَخْرَجَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ
فِي «الْأَرْبَعِينَ»، وَالطَّبِيبِي فِي «التَّرْغِيبِ»، وَالِدَيْلَمِي فِي «مُسْنَدِ الْفَرْدَوْسِ»، وَجَمَاعَةٌ،
بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ.

(٢) فِي الْمَخْطُوطِ: (حَالِ)، وَالْمَثْنَتِ مِنْ «الْعَوَارِفِ» (٢: ٨٩٥).

عن موسى، فلم يكن لموسى خبرٌ عن موسى، ثم كُلِّمَ فكان المكلَّم والمكلَّم هو، وكيف كان موسى يُطَبِّقُ حَمَلَ الْخِطَابِ وَرَدَّ الْجَوَابِ لَوْلَا بَيَاتُهُ سَمِعَ؟
ومعنى هذا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَحَهُ قُوَّةً، بِتِلْكَ الْقُوَّةِ سَمِعَ، وَلَوْلَا تِلْكَ الْقُوَّةُ مَا قَدَّرَ عَلَى السَّمْعِ. ثُمَّ أُنْشِدَ قَائِلًا مَتَمَثِّلًا:
[كامل]

وَبَدَأَ لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا أَنْدَمَلَ الْهَوَى	بَرَقَ تَأَلَّقَ مَوْهِناً لَمَعَانُهُ
يَبْدُو كَحَاشِيَةِ الرُّدَاءِ وَدُونَهُ	صَغْبُ الدَّرَى مُتَمَنِّعٌ أَرْكَانُهُ
فَبَدَأَ لِيَنْظُرَ كَيْفَ لَاحَ فَلَمْ يُطَبِّقْ	نَظَرًا إِلَيْهِ وَرَدَّهُ أَشْجَانُهُ
فَالنَّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ	وَالْمَاءُ مَا سَمَحَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

انتهى.

[خاتمة المختصر]

وهَذَا آخِرُ مَا قَصَدْتُهُ مِنَ الْإِخْتِصَارِ وَالِاتِّقَاطِ وَالِانْتِخَابِ، لِهَذِهِ الْفُصُولِ
وَالْجُمْلِ الْمُهِمَّةِ ذَاتِ الْفَوَائِدِ الْجَمَّةِ، وَالتَّأْيِيرِ وَالتَّنْوِيرِ، وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ. جَعَلَ
اللَّهُ ذَلِكَ خَالِصاً [٥٧/ب] لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَمُقَرَّباً إِلَى رِضْوَانِهِ، إِنَّهُ هُوَ الْجَوَادُ
الْكَرِيمُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

قَالَ سَيِّدُنَا الْحَبِيبُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلَوِي الْحَدَّادُ^(١) نَفَعَ اللَّهُ بِهِ: الطَّرِيقُ إِلَى

(١) الإمام العلامة الداعي إلى الله، قطب الدعوة والإرشاد، ومجدد القرن الثاني عشر الهجري، شيخ الإسلام عبد الله بن علوي بن محمد الحداد باعلوي (١٠٤٤ - ١١٣٢هـ). مولده بالشَّيْبَر (من ضواحي تريم حضرموت). تربى في تريم، وكُفِّ بِصْرُهُ صَغِيرًا. جَدُّ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ وَرِسَالَةِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ، حَتَّى أَقَامَهُ اللَّهُ مَظْهَرًا لِلدَّعْوَةِ وَالْهُدَايَةِ، فَعَمَّ نَفْعُهُ الْأَقْطَارَ وَانْتَشَرَتْ دَعْوَتُهُ. أَلْفَ كِتَابًا نَافِعَةً مَبَارَكَةً قِيلَ: إِنَّهَا=

اللَّهِ، ظَاهِرُهَا عِلْمٌ، وَبَاطِنُهَا فَهْمٌ، وَحَاصِلُهَا أَشْرَارٌ، وَغَايَتُهَا ذَهَابٌ فِي اللَّهِ .
انتهى^(١).

تَمَّ الْكِتَابُ، وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ نَسَاجَتِهِ عَصَرَ يَوْمِ الْاِثْنِينَ ٢٢ شَهْرِ رَجَبِ
الْأَصَبِّ مِنْ سَنَةِ ١٢٨٥، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، بِقَلَمِ الْفَقِيرِ
إِلَى مَوْلَاهُ: مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُوبَكْرٍ بْنِ عَمْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بَايُوسُفَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ
وَلِوَالِدَيْهِ وَأَحِبَّائِهِ وَلِمَشَائِخِهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ. آمِينَ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا، وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

* * *

= جَمَعَتْ زُبْدَةَ كَلَامِ الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. تُوْفِيَ بِتَرْيَمٍ وَدُفِنَ بِمَقْبَرَتِهَا (زَنْبَل)،
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ.

(١) بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْتَفْسِيرَةُ النُّورَانِيَّةُ الْجَامِعَةُ لِلْإِمَامِ الْحَدَّادِ؛ خَتَمَ الْمَخْتَصِرُ الْعَلَامَةُ ابْنَ
سَمِيطَ كِتَابَهُ هَذَا، وَنَعَمًا فَعَلَ، فَلَقَدْ لَخَّصَ — بِإِيرَادِهِ تِلْكَ الْكَلِمَةَ — أَمْرَ الطَّرِيقِ إِلَى
اللَّهِ تَعَالَى، كُلَّهُ. نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الْعِلْمَ وَالْفَهْمَ، وَيُنَوِّرَ قُلُوبَنَا بِنُورِ مَعْرِفَتِهِ،
وَيُؤَيِّدَ عَلَيْنَا عَافِيَتَهُ وَعَقْوَاهُ، حَتَّى نَلْقَاهُ تَعَالَى وَهُوَ عِنَّا — وَعَنْ سَائِرِ أَحِبَّائِنَا — رَاضٍ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ. (كُتِبَ مَرَّاجَعُهُ: الْعَبْدُ الضَّعِيفُ إِيَادُ أَحْمَدُ
الْفُجُوج).

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
كلمة الناشر.....	٥
مقدمات التحقيق	
ترجمة الإمام شهاب الدين السهروردي	٧
ترجمة الإمام أبي النجيب السهروردي	١١
ترجمة الإمام محمد بن زين بن سميط	١٣
هذا الكتاب	١٦
وصف النسخة الخطية المعتمدة	١٧
عملنا في الكتاب	١٨
النص المحقق	
مقدمة مؤلف الأصل : الإمام السهروردي	٢٥
باب : في ذكر شيء من البدايات والتهابات	٢٩
فصل : في التبة	٢٩
فصل : في منشأ علوم الصوفية	٤١
فصل : حال الصوفي المنقطع	٤٥
فصل : حال الصوفي المتجرد	٤٦
فصل : حال الصوفي المتأهل	٤٦
فصل : نصيحة للصوفي المتأهل	٤٧
القول في السماع	٤٨
فصل : في أدب زيارة الصالحين	٤٩

الموضوع	الصفحة
فصل: في تحقيق التوكل الباطن وترك التدبير	٤٩
فصل: في فضيلة علم الحقائق	٥٢
فصل: في إجابة الدعوة إلى الله تعالى	٥٢
فصل: في تواضع أهل التصوف	٥٣
فصل: في مجانية الصوفية للغش والحسد	٥٤
فصل: في أن الصوفية هم أهل الاتباع	٥٥
فصل: في ماهية التصوف وعلامات الصوفي	٥٦
فصل: في أن الظاهر دليل الباطن	٥٨
فصل: في رتبة المشيخة	٥٩
فصل: في دوام الافتقار إلى الله تعالى	٦٠
فصل: الصوفية صنفان: مرادون ومريدون	٦١
فصل: حقيقة التصوف والإرادة	٦٣
فصل: في صحبة الشيخ	٦٥
فصل: في مقاصد السفر	٦٧
فصل: في أدب المطالعة	٦٨
فصل: في طلب علم الباطن	٦٩
فصل: في حسن الاستماع	٧٢
فصل: في الاستجابة لله ورسوله ﷺ	٧٤
فصل: في الفهم عن الله تعالى	٧٥
فصل: في الأربعينية	٧٦
فصل: في فضل الأربعينية وثمرتها	٧٧
فصل: في فضائل الخلوة ومنافعها	٧٨
فصل: في أعمال الخلوة	٨٠
فصل: فيمن يطوي لله تعالى	٨١
فصل: في أخلاق الصوفية	٨٣
فصل: من أحسن أخلاقهم: التواضع	٨٣

الموضوع	الصفحة
فصل: ومن أخلاقهم: المداراة واحتمال الأذى من الخلق	٨٤
فصل: ومن أخلاقهم: الإيثار والمواساة	٨٥
فصل: ومن أخلاقهم: التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة	٨٦
فصل: ومن أخلاقهم: البشر وطلاقة الوجه مع الناس	٨٦
فصل: ومن أخلاقهم: السهولة ولين الجانب	٨٦
فصل: ومن أخلاقهم: التوؤد والتألف	٨٨
فصل: ومن أخلاقهم: شكر المحسن عن الإحسان	٨٩
فصل: ومن أخلاقهم: بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة	٩٠
فصل: في مكانة الأدب من التصوف	٩١
فصل: في محور الغل بنور التوفيق	٩١
فصل: في الرضا بالمقدور	٩٢
فصل: ومن أخلاق الصوفية: ترك التكلف	٩٣
فصل: ومن أخلاقهم: الإنفاق من غير إقتار، وترك الادخار	٩٤
فصل: ومن أخلاقهم: القناعة باليسير من الدنيا	٩٥
فصل: ومن أخلاقهم: ترك العراء والمجادلة والغضب إلا بحق	٩٦
فصل: في منبع الأدب	٩٦
فصل: في آداب الحضرة الإلهية	٩٧
فصل: متى يتحقق العبد بالأدب؟	٩٨
فصل: في آداب الصوفية في الوضوء	٩٨
فصل: في لذاذة الصلاة	٩٩
فصل: في وصف صلاة أهل القرب	١٠٠
فصل: في أحسن آداب الصلاة	١٠٢
فصل: في جلال الصدق	١٠٢
فصل: ومن صفات القوم	١٠٣
فصل: في صلاة الليل	١٠٤
فصل: فيما يعين على القيام	١٠٧

الموضوع	الصفحة
فصل: في طهارة الياطن	١٠٨
فصل: آداب الاستيقاظ	١٠٨
فصل: فيما يُخلُّ بقيام الليل	١٠٩
فصل: ومن فوائد النوم	١١٠
فصل: في استدامة العمل	١١١
فصل: في مجالسة الأبرار	١١٢
فصل: في آداب المريد مع الشيخ	١١٢
فصل: في آداب الشيخ	١١٦
فصل: في فضل الصلوة	١١٨
فصل: في المؤاخاة في الله	١٢٠
فصل: في معرفة أحوال النفس	١٢٢
فصل: في اللمتين	١٢٥
فصل: في الحال والمقام	١٢٥
فصل: في إيجاز المقامات	١٢٧
فصل: في إشارات المشايخ وترتيب المقامات	١٢٩
فصل: قالوا في الورع	١٢٩
فصل: وقالوا في الزهد	١٣٠
فصل: وقالوا في الصبر	١٣٠
فصل: وقالوا في الفقر	١٣١
فصل: وقالوا في الشكر	١٣٢
فصل: وقالوا في الخوف	١٣٣
فصل: وقالوا في الرجاء	١٣٣
فصل: وقالوا في التوكل	١٣٤
فصل: وقالوا في الرضا	١٣٥
فصل: في ذكر الأحوال	١٣٧
فصل: في الشوق	١٤١

الموضوع	الصفحة
فصل: في الأُنس	١٤٣
فصل: في القُرْب	١٤٦
فصل: في الحياء	١٤٦
فصل: في مراتب الوصول إلى الله تعالى	١٤٧
فصل: في العلم اللدني	١٤٨
خاتمة المختصر	١٥٠
فهرس المحتويات	١٥٣

